

بحوث ومقالات

المعجم العربي : متى يستكمل ؟ دعوة إلى عمل للاستاذ محمد شوقي أمين

هذه المعجمات تمثل نقاء اللغة وفصاحتها
قبل اختلاط الألسن وفشو اللحن وشيوع
الطائفة

فأعلى أن المعجمات التي ألفت في العصور
الوسطى أضافت إلى مادته المعجمات الفصحاح
بعض المولد من ألفاظ الحياة أو من مصطلحات
المعارف العامة ولعل أبر هذه المعجمات بهذا
الجانب المضاف معجم « لسان العرب »
ومعجم « تاج العروس » . فأما ما جرت به
أقلام كتاب العربية في مؤلفاتهم الداخلة
في أصناف العلوم والفنون والآداب على
كثرتها وتنوعها في العصور المتوالية فلم
تتضمن المعجمات كلها من ذلك إلا النزر
اليسير ونسبته لا تكاد تبلغ العشر . ومعنى
ذلك أن ألفاظ الحضارة العربية المتمثلة في
شئ دروب المعرفة والتي احتوتها كتب
التراث العربي وهي ألوف لم تسجل في
معجم جامع أو في معاجم مستقلة متخصصة
وينتج من ذلك أن المعجم العربي الذي بين
أيدينا يقتصر من الألفاظ على الفصيح
للمأثور وإلى جانبه بعض المولد في مختلف

١- أرى -- ولا يسعني إلا أن أرى - أن
المعجم العربي لم يستكمل بعد . وربما كان
هذا القول مشاراً للعجب أول وهلة ، فالمعجمات
عشرات : مؤلفات ومختلفات على تعاقب
العصور فلا يكاد يخلو عصر جديد ، من
معجم يزيد . ولكني أرى أن هذه المعجمات
على كثرتها وتنوعها هي التي بما حوت
توحي بهذا السؤال : متى يتاح للمعجم
العربي الاستكمال ؟ .

٢ - نشأت المعجمات اللغوية وسائل
قصارا في موضوعات خاصة كالنخل والإبل
واللبأ واللبن والريح ثم تعاقبت المعجمات
إما « حرفية » مع التباين في الترتيب والتنسيق ،
وإما « موضوعية » خاصة أو عامة . وأشهر
« الحرفي » الجديرة والصحاح والأساس
وأشهر « الموضوعي » فقه اللغة والمخصص .
والأساس في تأليف هذه المعجمات في جملتها
هو الاختصار على « أصحح روايته من
مأثور اللغة في عصور الاستشهاد ، وهي
في المعارف حتى القرن الثالي في الخواصر
والقرن الرابع في البوادي ومن ثم كانت

الأحقاب . وإذن يحق القول بأن المعجم العربي لم يستكمل بعد .

٣ - لا يفوتني أن الأقدمين استبان لهم ذلك فعالجوا الأمر بتأليف كتب شبه معجمية تنصيد من المصطلحات ما استطاع ، ومن أمثلة ذلك تعريفات الجرجاني ومفتاح العلوم للخوارزمي ، وأبجد العلوم لصديق حسن خان ، وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوي ، وكذا كتاب أبي البقاء واصطلاحات الصوفية للكاشاني . ولكن هذه الكتب على جلالة قدرها وجزالة فائدتها يرد عليها أمران : الأمر الأول أنها لا تستوعب كل أنواع المعارف والعلوم ، والأمر الثاني أنها لا تستوعب كل مصطلحات الدائرة العلمية التي تخصصت فيها ، وثمة أمر ثالث يرد عليها وهو أنها ألقت في عصور متقدمة وقد جد بعد تأليفها من المصطلحات في موضوعاتها أضعاف ما حوته مضامينها . فهي في الواقع مادة معاونة ، وليست عملاً مستكملاً أو شبه مستكمل .

٤ - أضيف إلى ذلك أن مؤلفا معجميا متأخرا هو الزبيدي كان حريصا في « تاجه » على تسجيل المستدرک عقب كل مادة من مواد معجمه وبلغ من بره بالشائع المتعارف أنه سجل كثرة كاثرة من جديد الألفاظ المعاصرة له حتى إنه لم يبخل على العامية المصرية التي عايشها بتسجيل بعض ما يدور فيها من ألفاظ ومصطلحات .

٥ - أضيف إلى ذلك أيضا أن الحذاق من المحققين لكتب التراث كانوا يتفطنون إلى ورود ألفاظ لا وجود لها في المعجمات المتداولة فكانوا حراسا على أن ينهوا عليها في قوائم يزيلون بها كتب التحقيق ومن بين هذه النوائم ما يرجع إلى عصور الاستشهاد ومنها ما يعد من المولد فيما تلى من العصور .

٦ - كل ما أسلفته من أعمال في نطاق التحصيل للمولد في عصور العربية التي تزيد على عشرة قرون لا يبلغ قدرا من الكفاية للاطمئنان إلى أن لغة الحضارة العربية خلال تلك القرون حاصلة في اليد يمكن الرجوع إليها كما يمكن الرجوع إلى المأثورة من النصيح في عصور الاستشهاد . حسبي أن أذكر من الأمثلة كتاب المنتظم لابن الجوزي والنسوك للمقريزي ونهاية الأرب للنويري وصبح الأعشى للقاتشندي وعجائب الآثار للعجرتي ، وذلك لأقرر أن في هذه الكتب وفي عشرات من أمثالها ألفاظا ومواضيع مولدة عبرت عن جوانب الحياة في عصورها على حين أن المعجمات العامة أو المتخصصة قد عجزت وحديثها لا تستطيع الاتفاق على مداولاتها كما أراد لها واضعوها في عصور التاريخ . ولعل ذلك ما حدا بمشرق هو (دوزي) إلى تأليف كتابه تكملة المعجمات العربية وهو على ما بذل فيه من جهد ليس إلا نقطة عجلان ونهضة

فلنأتى ومن ثم كان غناؤه غير كبير. وفيما أذكر أن لغوى العراق مصطفى جواد حدثنى بأنه عاكف على تأليف معجم يسميه (المستدرك) وهو يشتمل على ما استطاع جمعه من ألفاظ وعبارات تضيف إلى معجم العربية المئات بعد المئات. إن من هذه الألفاظ ما ثبتت فصاحة الكثير مما ينكره نقاد اللغة ومنها ما يعرف بالكثير من المولد الذى لاتأباه سنن العربية وأوضاعها فى التصريف ولاشتقاق.

وأشير هنا على استحياء إلى أن هناك من أعرفه معرفتى بنفسى اتجهت همته منذ عشرات الأعوام إلى تأليف ما سماه : (فائت المعجمات) وأنه جمع من ذلك جملة وافرة من الجزازات أعد لها صندوقها ومنذ فترة طويلة حالت الشواغل دون المواصلة ويعلم الله ماذا يكون مصيرها من بعده.

٧ - ليس ما أمله الآن بحثاً، ولكنه دعوة إلى عمل ، ولولا قصور الصحة وتعذر الرجوع إلى المصادر والأصول ، لالتصفت صفحات وصفحات من الدلائل والأمثلة على ضرورة سد هذه الثغرة من الثغرات فى معجمنا العربى العزيز علينا وعلى التاريخ. على أنى بهذه الدعوة إلى استكمال المعجم العربى لست أدعى ما ادعاه الديك الفصيح حين زعم لمن حوله أنه بصياحه فى ساعة السحر

يوقظ الفجر ويطلع الشمس فإن الفجر طالع ونور الشمس ساطع ، فما ينبغى أن يمتد السبات .

الجمع اللغوى الذى صحبته ما زاد على نصف قرن كان أفضن أهل عصره إلى هذا الموضوع فقد اعتنى به فى جوانب ثلاثة :

الأول : جانب تشريعى والثانى : جانب تقريرى والثالث الأخير : جانب تطبيعى .

أما الجانب التشريعى فهو أن مرسوم إنشاء الجمع - أول أمره - جعل من الأغراض الجمعية تأليف معجم لغوى تاريخى ومنه يوم ذلك أن يشرع الجمع فى وضع معجم يجمع ألفاظ العربية ويدل على تطورها صياغة ومعنى بحسب ترادف العصور وطوعا لاختلاف العلوم. وقد كان الظن بادئا أن معجم «فيشر» يسد ذلك المسد ولكن معجم فيشر توقف وإن كان على فرض اتصاله لايسجل إلا تطور المأثور فى عصور الاستشهاد فلا شأن له بما نشأ بعد القرن الرابع على الأكثر. وعلى ذلك يعتبر الغرض الجمعى هو إنشاء معجم لغوى تاريخى ما زال ينتظر على الأبواب .

والجانب الثانى أن الجمع أصدر قرارا باستخراج المصطلحات من الكتب العربية القديمة وتلاه قرار آخر يؤكد ، وكلا القرارين واضح الاتجاه إلى ما أدعو إليه .

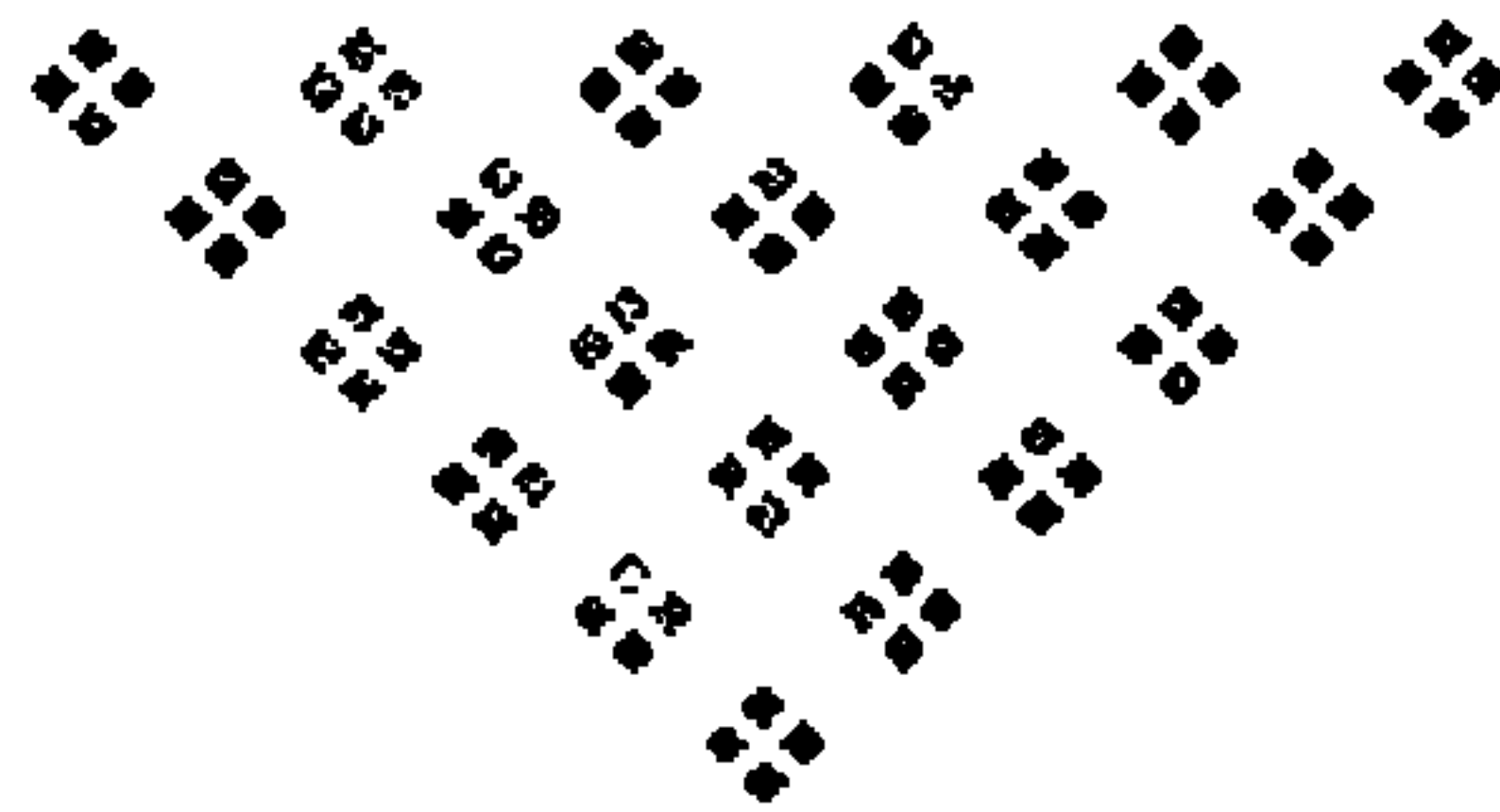
الموضوع . مع هذه الجوانب الثلاثة هناك مناقشات ومحاورات ورغبات كلها تنصب على مس الحاجة إلى الوقوف على ألفاظ الحضارة العربية في عصورها التوالى . ولكنها لم تختصر لكنى تتركز إلى مرحلة عملية اللابخار .

٨ - هذه الكلمات الخاطفة أختتم دعوتى إلى أن يكون للمجمع عمل فى هذا الموضوع الجليل الشأن : فإن نصف قرن يمضيه المجمع وفى خلاله تنواصل القرارات والدعوات والبحوث وإن كانت فردية فرعية ، جديرة بأن يحفز إلى اتخاذ خطة إيجابية للشروع فى استكمال المعجم العربى جوابا عن السؤال : متى يتاح للمعجم العربى الاستكمال ؟

محمد شوقى أمين
عضو المجمع

فهو فى القرار الأول يطالب بالنظر فى اختيار مختصين بشئون العلوم العربية لإخراج المصطلحات العلمية القديمة من الكتب العربية . وهو فى القرار الآخر يطالب بدراسة كتب التراث القديمة المتصلة بالمصطلحات العلمية وعمل معجم لمصطلحات كل كتاب منها .

والجانب الثالث التطبيقي هو ما قدمه أعضاء المجمع على توالى السنين من بحوث تتصل بهذا الموضوع أوثق الاتصال ويكفى أن أذكر من أمثلة ذلك عرض مصطلحات الحسبة وعرض مصطلحات الحرف والألفاظ الأيوبية ومصطلحات الأدب والتربية ومصطلحات قانون ابن سينا . إلى غير ذلك مما يدخل فى هذا



اللغة العربية

في مؤسسات التعليم العام والتعليم العالي

ورسائل النهوض بها في مصر

للدكتور محمود حافظ

شهدت مصر في السنوات الأخيرة قلقاً بالغاً لدى المشتغلين بأمور الثقافة والتعليم في مصر عن مستوى اللغة العربية الذي بلغ درجة من الضعف والاستهانة تبدت في جميع مراحل التعليم العام والتعليم العالي وأشاعت الألم والحسرة بين سدنة اللغة العربية والقائمين عليها ولا يكاد يمر يوم دون أن تتصدى أقلام لمأساة اللغة العربية فن قائل إن مجرد إلقاء نظرة عابرة على أوراق إجابة التلاميذ وكذلك الطلبة في الجامعات يجعلنا نقف على حال اللغة العربية في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا بل وفي كل مناحي حياتنا من هبوط مستواها ومعرفة متدنية بها .

إن اللغة العربية المعاصرة بجانب ما هي فيه من الضعف فإنها تعاني اليوم من أزمة حادة تتمثل في عزلة اللغة العربية بمفرداتها وكلماتها وأصالتها عما يجري اليوم على الألسنة في كل مكان فالكثير مما نأكل وما نلبس وما نتداوى به وما نستخدمه من أدوات الصناعة والزراعة ومختلف الفنون وما يقع عليه بصرنا وما تسمعه آذاننا وما تلمسه أيدينا مستورد أو مصنوع بلغة الأجنبي ويطلبه الناس بلفظه الدخيل على اللغة وأصبح كل ذلك جزءاً من حياتنا وتلك هي الخطورة الكامنة التي تحدق باللغة العربية والتي تدعو اليوم إلى وقفة صارمة قبل أن تصبح اللغة العربية غريبة بيننا .

وفي ربيع القرن الأخير وما قبله كانت اللغة العربية هي اللغة الفصحى وكان معني بها تدريساً وتلقيناً وكتابة وإذاعة وأصبح الآن بين اللغة ودارسها والناطقين بها جفوة صارمة وحلت محلها اللغة الدارجة أو خليط بين الفصحى والعامية — حال يجعلنا نأمنى حقاً ونحن نرى المستوى اللغوي والثقافي يتراجع على الألسنة صباح مساء — ومن قائل آخر

لساذا يجب الاهتمام باللغة العربية :

لست في حاجة إلى القول إن اهتمامنا باللغة العربية ينبع من عقيدة دينية ثم من عاطفة وطنية وقيم حضارية وضرورات اجتماعية — هي وعاء الفكر ووسيلة الاتصال والتفاهم ورابطة القومية — هي اللسان المبين الذي حفظه الله مع الذكر الحكيم وهو الوعاء الذي يحوى خبرات أهلها وتجاربهم ومعارفهم وفنونهم

ومثلهم العليا وسائر ضروب ما تنتجهم قرائحهم والذي يحفظ كل ذلك من جيل إلى جيل عبر العصور — واللغة العربية إلى هذا كله الأداة الأساسية التي نستخدمها في نقل مختلف العلوم والفنون والمعارف إلى الناشئة في مراحل تعليمهم العام والعالي والجامعي وهي كذلك أداة نشر الثقافة بأوسع معانيها وتراثنا وحضارتنا عن طريق مختلف وسائل الاعلام كما هي الأداة التي نستخدمها الإنسان في تثقيف نفسه بنفسه وفي تعلمه الذاتي مدى حياته — ومن هنا تبدو أهمية اللغة العربية وأهمية تعلمها وتعليمها لا باعتبارها مادة دراسية مقررة فحسب ولكن باعتبارها محورا أساسيا في بناء الإنسان بكل جوانبه ومحورا للعملية التعليمية في كل مراحل التعليم ومحورا للنشاط الإنساني في المجتمع وفوق كل ذلك الاعتبار الديني فكل شعائر الإسلام وأركانه تدعو إلى تعلم اللغة العربية ثم كان القرآن الكريم الباعث إلى أكثر العلوم العربية الخاصة سواء العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وتشريع أو العلوم الدنيوية من نحو ولغة وبلاغة وغيرها وقد حمل الأزهر الشريف في مصر هذه الرسالة السامية أكثر من ألف عام .

وعن عظمة اللغة العربية وعبقريتها ما شهد به المستشرقون المنصفون فقد قال المستشرق جرونيباوم في مقدمته لكتاب تراث الإسلام إن اللغة العربية هي محور التراث العربي

الزاهر — وهي لغة عبقرية لا تدانيها لغة في مرونتها واشتقاقها وهذه العبقرية في المرونة والاشتقاق اللذين ينبعان من ذات اللغة جعلتها تتسع لجميع مصطلحات الحضارة القديمة بما فيها من علوم وفنون وآداب وأتاحت لها القدرة على وضع المصطلحات الحديثة لجميع فروع المعرفة — كما يقول المستشرق الألماني بروكلهان الذي أرخ للفكر والتأليف العربيين في العصر الجاهلي حتى الآن في سلسلة كتبته الشهيرة « تاريخ الأدب العربي » يقول إنه بفضل القرآن بلغت اللغة العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى .

لمحة تاريخية عن اللغة العربية في مصر :

عرفت مصر اللغة العربية بعد الفتح العربي إبان القرن السابع الميلادي (عام ٦٤٠ م) وعندما دخلها العرب كانت اللغتان القبطية واليونانية سائدتين في البلاد وقد استقدم الفاتحون معهم مترجمين للتفاهم مع أهل البلاد . ذلك الوقت وقد استمر الحال على هذا المنوال قرابة قرن من الزمان إلى أن صدر أمر بإحلال اللغة العربية في الهيئات الحكومية وابتدأت اللغة العربية تتغلغل في البلاد مع انتشار أهلها — ووجد على مصر بعض العلماء العرب الذين كتبوا وألفوا بالعربية مثل ابن يونس (ولد في مصر) في القرن العاشر والبغدادى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وغيرهما — وقد عاشت اللغة العربية مع اللغة القبطية عدة قرون في مصر إلا أن هذه الأخيرة

أخذت تنحسر رويدا رويدا بحلول أواخر القرن الثامن عشر وكانت العربية قد استقرت وعم استعمالها في مصر كلها ؛

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأ الحكم التركي لمصر وتعمصت العناصر التركية التي تولت الحكم للغتهم وتخلت تعليم اللغة العربية وشاعت العامية حتى في المكاتبات الرسمية ثم جاء الاحتلال البريطاني (١٨٨٢) وقصر اهتمامه على المرحلة الابتدائية من التعليم فتراجعت اللغة العربية إلى معقلها بالأزهر ودار العلوم وأخذ المحتلون يحاربون اللغة ويفرضون لغتهم على مواد التعليم كله لتجذب المتعلمين بها إلى حضيرة ذوى الثقافة الإنجليزية ورأوا أن إحلال العامية المصرية محل اللغة العربية قد يحقق ماآربهم فنادوا بذلك صراحة وقد أثار ذلك الشعور الوطنى الذى ظل يعمل فى صدور الوطنيين المخلصين من

قادة الشعب إلى أن قامت ثورة عام ١٩١٩ وصدر فى أعقابها دستور ١٩٢٣ فأعاد سعد زغلول بحجة قلم اللغة العربية لغة للتعليم فى جميع المدارس الحكومية ثم لخضاع التعلم الأجنبى للإشراف المصرى ومحاربة الدعوة إلى استخدام العامية - وتقلص بذلك نفوذ دناب وغیره من المستشارين البريطانيين الذين كانوا نكبة على التعليم بصفة عامة وعلى اللغة العربية بصفة خاصة .

وبدأت بعد ذلك نهضة علمية وتعليمية تمثلت فى إنشاء الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ والتوسع فى إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا ثم أنشئ مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٢ فكان نصرا كبيرا للغة العربية والحفاظ على سلامتها والعمل على أن تكون وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقديمها ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر .



اللغة العربية في التعليم العام في مصر

الوضع الحالي بالنسبة لتعليم اللغة العربية :

اهتمت مصر في ربيع القرن الأخير وقبل ذلك بسنوات بالتعليم العام فزاد عدد المدارس وانتشرت في كل رجا من الأرجاء في الحضر والريف على حد سواء - وفي العام الدراسي ١٩٨٦ / ١٩٨٥ بلغ عدد المدارس الحكومية في المراحل المختلفة من التعليم العام : ابتدائية وإعدادية وثانوية وفنية ١٧٥٨٦ مدرسة وبلغ عدد الطلاب في هذه المراحل أيضاً ٩,١٧٨,٧٩٢ طالباً وطالبة وقد تضخم عدد الطلاب في المدرسة الواحدة إلى نحو ألفين (٢٠٠٠) وبخاصة في المرحلة الثانوية الأمر الذي يعوق عملية الإشراف والإدارة السليمة كما ارتفعت كثافة الفصول المدرسية حيث يصل العدد فيها إلى ستين (٦٠) تلميذا الأمر الذي يؤثر سلبياً على العملية التعليمية ومستوى الأداء .

وتتصدر اللغة العربية مناهج الدراسة في هذه المراحل من التعليم العام ويقوم بالتدريس عدة آلاف من المدرسين من ذوى المؤهلات والمستويات المختلفة مما سنعرض له في حينه ولكن الحقيقة الملفتة للنظر في هذا المقام أن العجز في مدرسى اللغة العربية في مراحل التعليم العام عما المرحلة الابتدائية (الإعدادى والثانوى العام والثانوى الفنى ودور المعلمين

والمعلميات) طبقاً لإحصائية ١٩٨٦/٨٥ يبلغ ١٢,٧٤٢ مدرساً ومدرسة وذلك أيضاً له أثره وانعكاساته على العملية التعليمية .

المشكلات الأساسية في تعليم اللغة العربية :

يجابه تعليم اللغة العربية في مراحل التعليم العام في مصر في الوقت الحاضر ومنذ سنوات عدة مشكلات أو صعوبات نتناولها فيما يلي :

أولاً : معلم اللغة العربية وضعف مستواه واعداده :

على الرغم من تقدم الوسائل التكنولوجية الحديثة واستخدام المواد التعليمية المبرمجة في تعليم اللغة إلا أن المعلم كان وما زال وسيظل أساساً مكيناً من أسس العملية التعليمية والتربوية ولا شك أنه يحتل قلب المشكلة أو حجر الزاوية فيها - ومن الملاحظ في مصر أن معلمى اللغة العربية يتم إعدادهم في الوقت الحاضر في عدد من الكليات هى كلية دار العلوم وكليات اللغة العربية بجامعة الأزهر وأقسام اللغة العربية بكليات الآداب وأقسام اللغة العربية بكليات التربية - وكانت دار العلوم منذ إنشائها من أهم المينابيع التى تزود التعليم العام في كل مراحله بمدرسى اللغة العربية وكانوا مؤهلين تأهيلاً كاملاً لتدريس هذه اللغة إذ كانوا مزودين في مراحل تعليمهم السابقة بأسس قوية تتمثل في حفظ

(•) ألفت هذه المحاضرة في السبت ١٩ / ٤ / ١٩٨٨ في افتتاح الموسم الثقافى لجمع اللغة العربية الأردنى بعان .

القرآن الكريم والدراسات الدينية والعربية العميقة - ولكن بعد انضمام كلية دار العلوم إلى جامعة القاهرة أصبحت تستقبل طلابها من حملة الثانوية العامة من ذوى المجاميع المنخفضة فأدى ذلك إلى ضعف مستواهم في اللغة العربية وكذلك أصبح الحال بالنسبة لطلاب أقسام اللغة العربية وخريجيات الكليات الأخرى ومما يزيد الحال سوءاً أن الغالبية العظمى من هؤلاء الخريجين يوجهون إلى تدريس اللغة العربية دون تأهيل تربوى ودون تدريب على طرق التدريس .

ومن المشاهد أيضاً ضعف إقبال الطلبة على كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات المصرية وقبول أقل الطلبة مجموعاً سداً للحاجة كما لا كفاً - الأمر الذى أدى إلى عجز ظاهر في مدرسى اللغة العربية الملزمين لمراحل التعليم العام وضعف مستواهم وقد زاد المشكلة حدة الأعداد الكبيرة التى تعار للتدريس في الأقطار الأخرى وهؤلاء يتم اختيارهم من أكفأ العناصر وأكثرها خبرة - وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن تعدد الكليات التى يتخرج فيها معلمو اللغة العربية أدى إلى عدم التناسق بين المناهج والمقررات الدراسية بهذه الكليات واهتمام أغلب هذه الكليات باللغة كلغة وعدم اهتمامها باللغة ومكوناتها كجزء لا يتجزأ من حياة الإنسان في مراحل نموه المختلفة وفي مستوياته الحضارية المتباينة

وغنى عن البيان أن اللغة كالكائن الحي تتأثر بالبيئة والمناخ الذى تحيا فيه وهى تنمو وتتطور في مضمون صورها فتخشن في ظل البداوة وترق وتلين في ظل الترف والمدنية وتتأثر برقى الثقافة وتقدم العارم والمعارف .

ثانياً : ازدواج اللغة :

وهذه أيضاً تمثل مشكلة في تعليم اللغة العربية فهناك لغة التخاطب أو العامية التى يتعامل بها الناس في حياتهم اليومية العامة والخاصة وهناك لغة الكتابة في معاهد التعليم وفي الكتب والصحف وغيرها من المجالات - ولا شك أن اللغة للتخاطب تأثيرها القوى بما تتمتع به من نفاذ وأداء وسعة انتشار وتلقائية ومراحة للغة الفصحى في وسائل الإعلام وهذه تغزو الصغير والكبير وتختصر المتكلم في كل بيت بل في كل فصل من فصول الدراسة في المدارس والمعاهد وغيرها من مجالات الحياة المختلفة .

ثالثاً : مشكلات وصعوبات أخرى :

وهى تتمثل في :

(١) افتقار كتب القراءة إلى التدرج اللغوى والتخطيط العلمى السليم لها حتى ينتقل فيها التعليم انتقالاً طبيعياً من خطوة إلى الخطوة التى تليها .

(٢) عدم توافر معجم لغوى حديث لأى مرحلة من مراحل التعليم العام

اعتبارات هامة في تدريس اللغة العربية :

هناك أمور أو اعتبارات هامة في تدريس اللغة العربية وتعليمها لا تلقى العناية الكافية ويجب الأخذ بها للنهوض باللغة العربية ومن هذه الاعتبارات :

١ - أن يستقر في أذهان القارئ على تدريس اللغة العربية والمخططين^١ لمنهجها الدراسية وأهدافها أن اللغة العربية عنصر أساسي من مقومات الأمة والشخصية العربية وأنها لغة القرآن الكريم والتراث الحضاري الإسلامي وأنها وعاء للمعرفة بكل جوانبها^٢ ووسيلة للتفكير والتعبير ولا تكون مجرد مادة مستقلة بذاتها للدراسة وأن ترتبط بالمجتمع وتتفاعل معه لتكون أداة سهلة وطبعة للتعبير^٣ عن مشكلاته وقضاياها القومية .

٢ - أن يكون البدء بتعليم اللغة عن طريق نقل الطفل أو التلميذ في المرحلة الأولى من مراحل التعليم العام نقلاً رقيقاً متدرجاً من لغته المختلطة إلى اللغة السامية بعناصرها الأساسية الأربعة وهي الحديث والاستماع والقراءة والكتابة ويكون ذلك عن طريق المراسم والتدريب والاستخدام مع الإفادة من القدر المشترك بين العامية والفصحى ومع ترقية العامية إلى الفصحى في تدرج وفي رفق (مثل : حنسأل تصبح سنسأل^٤، كذا تصبح كذا ، ده تصبح ذا أو هذا) ومعنى

(٣) عدم توافر مواد القراءة الحرة للتلميذ في مختلف المراحل وبخاصة في مرحلة الطفولة ويتصل بذلك قلة العناية بالمكتبات المدرسية واختيار الكتب الصالحة والمشوقة .

(٤) ازدحام مناهج النحو بكثير من القواعد مع صعوبتها .

(٥) اضطراب المستوى اللغوي بين كتب المواد بل بين كتب اللغة العربية في الصفوف المختلفة .

(٦) قلة الاهتمام بين مدرسي اللغة العربية وغيرهم من مدرسي المواد الأخرى باستخدام اللغة العربية الصحيحة في تدريسهم .

(٧) قلة استخدام الوسائل والمعينات التعليمية الحديثة في تعليم اللغة .

منه هي أهم المشكلات أو الصعوبات التي تواجه اللغة العربية وتعليمها في مصر في الوقت الحاضر وتحتاج إلى تضافر الجهود وإلى إجراء الدراسات العلمية الجادة في جميع الهيئات والمؤسسات والجامعات التي تعمل في مجال تعليم اللغة العربية وذلك للنهوض بها وارتقاها - وتجدر الإشارة هنا إلى الدور البناء الذي يقوم به مجمع اللغة العربية بالقاهرة والجامع العربية الأخرى في هذا المجال ويرى البعض ضرورة إنشاء مركز لتطوير تدريس اللغة العربية أسوة بمراكز تطوير اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

هذا أن هناك هدفين يجب العمل على تحقيقهما أحدهما تشجيع استخدام القدر المشترك بين العامية والفصحى وثانيهما ترقية العامية بردها في ذهن التلميذ إلى أصولها العربية ما أمكن ذلك وعن طريق المراتب أيضا ننقل التلميذ رويدا رويدا إلى التشكيلات السليمة في اللغة الفصحى .

٣ - تنمية الميل للقراءة والاطلاع كهدف أساسي من أهداف التعليم بل وسيلة تعليم الإنسان نفسه بنفسه .

٤ - ضرورة التخطيط لكتب القراءة فلها كل مرحلة من مراحل التعليم العام وظيفتها في المرحلة الأولى على سبيل المثال يكتسب التلميذ عن طريقها المهارات الأولية ثم تزداد التراكم في علاقاتها ومستوياتها مسايرة نضج التلميذ وخبرته ويزداد تبعاً لذلك الحصول اللغوي عند التلميذ .

٥ - لا بد من التنسيق بين مناهج اللغة العربية في مراحل التعليم العام الثلاث لإيجاد تكامل دقيق يوحد غايتها ويراعي تدرجها ويوجه طريقة التدريس فيها ويحميها من التكرار كما ينبغي أن تعكس هذه المناهج مفهوم الحياة في البيئة وأن تترك للمدرس مجالاً لتجديد الابتكار .

٦ - مراعاة التنسيق أيضا في تأليف كتب اللغة العربية للمراحل الثلاث بحيث

تؤلف الكتب وحدة متصلة تحقق أهداف لكل مرحلة بطريقة متوازنة من ناحية التركيز أو الإسهاب أو البساطة أو التعمق وغزارة المادة أو قلتها وتعدد الأمثلة أو ندرتها إلى غير ذلك من عناصر تأليف الكتب المدرسية ويكون الكتاب في كل مرحلة قادرا على جذب انتباه الطالب مثيرة للمكاثرة حتى يحبه ويألفه ويأنس إليه .

٧ - ضرورة إيجاد تكامل بين تدريس اللغة العربية وتدريس المواد الأخرى من حيث الحرص على استخدام اللغة الفصحى في جميع مواد الدراسة .

٨ - العمل على تيسير قواعد النحو للمراحل الثلاث وكذلك الرسم الإملائي لكل مرحلة من هذه المراحل .

٩ - الارتقاء بمستوى مدرّس اللغة العربية وتأهيله علميا وثقافيا ولغويا وتربويا .

اللغة العربية في التعليم العالي والجامعي في مصر :

لماذا كانت اللغة العربية في التعليم العام قد أفلقت بال القائمين عليها وشغلهم إلى حد كبير لما بلغته من الضعف والاستهانة فإن حالها في التعليم العالي والجامعي هو يمثل السوء لأن لم يزد عليه ويتردى يوما بعد يوم ؛ لذلك كان الاهتمام باللغة العربية والنهوض بها واتخاذها سليمة فصحى لغة للعلم والتعليم في هذه المرحلة العالية من التعليم مضاعفا .

وقد كانت مصر بين الدول العربية التي تخطت «رائق اللغة منذ أمد طويل واستمسكت بلغتها العربية القومية في تعليمها العان الحديث منذ بداية إنشائه فقد نصت لأئحة الجامعة المصرية الأولى (الأهلية) الصادرة في عام ١٩٠٨ على أن تكون لغة التعليم فيها «هى اللغة العربية دون سواها لتكون واسطة لنشر المعارف وترقية العلوم بين الناطقين بالضاد ولكي ترتقى اللغة العربية نفسها بهذه الوسيلة» وقد حافظت القوانين المتتابعة لتنظيم الجامعات فيما بعد على روح هذا المفهوم حيث نصت المادة ١٦٨ من القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢ المعمول به حاليا على أن «اللغة العربية هى لغة التعليم في الجامعات الخاضعة لهذا القانون وذلك ما لم يقرر مجلس الجامعة في أحوال خاصة استعمال لغة أخرى» .

ومما تجدر الإشارة إليه ومن قبيل الخلفية فإن جهود مصر في سبيل نقل العلوم الحديثة إلى العربية في التعليم العالي بغية استعمالها في التدريس قد بدأت منذ النصف الأول من القرن الماضي حيث عربت كلية الطب والصيدلة في عهد رئيسها الدكتور كلاًوت بك عام ١٨٣٣ ستة وثمانين (٨٦) كتاباً أجنبية في عدة تخصصات لتعليم الطب والصيدلة وبعد نجاح هذه الكتب في مصر نجحاً يناسب عصرها وجدت سبيلها كذلك إلى تركيا والجزائر وتونس ومراكش

كما قام عدد من المبعوثين الأوائل بعد عودتهم من بعثاتهم بالخارج من فرنسا بالتدريس في المعاهد العليا باللغة العربية وقدموا إلى مكتبةنا العلمية رصيدا ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم منهم على سبيل المثال :

الجراح محمد على البقلى الذى ألف كتباً عربية في الجراحة : محمد الشافعى في الأمراض الباطنية ، محمد ندى في النبات والحيوان والحيولوجيا والفيزياء ، على رياض في الصيدلة والسموم ، محمد الدرى في الأمراض الباثية ، محمد بيومى في الحساب والجبر والهندسة الوصفية ، محمود الفلكى الذى عاد من بعثته في فرنسا عام ١٨٥٩ وتقدم بعد ذلك بمنصب الاستاذية في العلوم الرياضية والفلكية بمدرسة المهندسخانه . . وقد شارك علماء اللغة في هذه النهضة العلمية فكان منهم خـبراء وعلماء ، متخصصون مثل محمد عمر التونسى مؤلف معجم الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية ، ابراهيم الدسوقي الخبير في مصطلحات العلوم الرياضية ، رائد الترجمة إلى اللغة العربية وشيخ المترجمين في عصره رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) في ألفاظ الحضارة والفنون والعلوم الحديثة وغيرهم .

بعد ذلك توقفت المسيرة ونكبت مصر بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ وجثم على صدرها لسنوات عدة وعزلت اللغة العربية عزلاً تاماً عن تدريس العلوم الحديثة التي

إنشاء الجامعة المصرية :

.. كان إنشاء الجامعة المصرية في تكوينها الأهل عام ١٩٠٨ وفي تكوينها الحكومي عام ١٩٢٥ فاتحة لنهضة علمية وثقافية حديثة في مصر وكان التدريس فيها أساساً باللغة العربية التي استعادت مكانتها مرة ثانية وقد استدعت الضرورة في ذلك الوقت استقدام عدد قليل من العلماء الأجانب والمستشرقين للتدريس بالجامعة في بعض العلوم وفي الإنسانيات ، ولكن كان الخريجون الأوائل من النابهين ومن العائدين المؤهلين من البعثات الدراسية الخارجية يقومون بنقل محاضرات الأساتذة الأجانب إلى اللغة العربية وتلخيصها للطلاب وبخاصة هؤلاء الذين يتابعون دراساتهم في العلوم الإنسانية - وفي السنوات التالية أخذ عدد المصريين العائدين من بعثاتهم بالخارج يزداد ازدياداً مطرداً ولم يلبث هؤلاء أن تولوا مهام التدريس بالجامعة في معظم الكليات والمعاهد العليا باللغة العربية .

ومع تطور النهضة العلمية والتعليمية ، واتساعها في مصر في الثلاثين سنة الأخيرة أصبح لدينا في مصر في الوقت الحاضر اثنتا عشرة (١٢) جامعة ولبعض هذه الجامعات فروع إقليمية تضم عدداً من الكليات المتخصصة وإلى أن تكتمل كلياتها ستصبح في وقت قريب جامعات إقليمية جديدة قائمة بذاتها - ويبلغ عدد الكليات والمعاهد الجامعية في مصر مئة وواحداً وسبعين (١٧١) معهداً

فرض المستعمر دراستها بلغته ومهاد لهذا الانقلاب وسأيره ترسيخاً لمكرة عجز العربية عن تدريس أي علم حديث وملاحقة التقدم العلمي - وقد روج لهذه الدعوة عدد من المثقفين قبيل الثورة العربية (١٨٨٢) واحتدم الصراع بين حماة الشخصية القومية الذين يرون في أن إضاعة اللغة تسليماً للذات واستعباداً فكرياً وثقافياً ووجدانياً للمستعمر وبين الدعاة إلى لغة أجنبية - وبقدر ما رفض الضمير الوطني التخلي عن لغة الأمة والتفريط في أسانها عجز عن التصدي للفرض اللغة العربية على المجال العلمي - ولكن لم يقف علماءنا مكتئبين الأيدي أمام هذا الوضع المثير فقامت دعوة حمل لواءها عبد الله نديم في مجلة « الأستاذ » عام ١٨٩٢ للمضي في تعريب المصطلحات العلمية لاستخدامها في تعليم العلوم الحديثة ووجدت هذه الدعوة استجابة عملية في اجتماع رأسه محمد توفيق البكري في أوائل عام ١٨٩٣ وحضره عدد من أئمة الكتاب والعلماء منهم الشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطي وحمزة فتح الله وحفني ناصف ووضعوا لائحة لجميع لغوى علمي وتدارسوا في سبع جلسات عدداً من المصطلحات العلمية - وفي العام نفسه ظهرت مجلة « المهندس » وقدمت تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة العربية الفصحى دحضاً للقائلين بعجزها في مجال البحث والتدريس - ثم تابعت الجهود بعد ذلك في هذا السبيل إلى أن أنشئت الجامعة المصرية الأولى عام ١٩٠٨ .

وكلية بالإضافة إلى واحد وثلاثين (٣١) معهما عالياً تابعاً لوزارة التربية والتعليم وتحت إشرافها ، كما أن في مصر الآن نحو مئتين (٢٠٠) من مراكز ومعاهد البحث العلمي - ويبلغ عدد الطلاب في هذه الكليات والمعاهد نحو ستمائة وخمسين ألف طالب - وبين هؤلاء الطلاب نحو نصف المليون (٥٠٠ ألف طالب) يتلقون محاضراتهم ودروسهم باللغة العربية ، ومن بين هؤلاء أيضاً عدة آلاف يتخصصون في اللغة العربية وآدابها في خمسة عشر (١٥) قسمًا بكليات الآداب وعشرين (٢٠) قسمًا بكليات التربية بالإضافة إلى أقسام أخرى في كليات البنات بجامعة عين شمس والأزهر وكلية دار العلوم وكلية اللغة العربية بالأزهر ومعاهد المعلمين والمعلمات - وباستثناء طلاب التخصص في اللغة العربية فإن باقي طلاب الجامعات والمعاهد العليا الذين يدرسون مقرراتهم باللغة العربية يدرسونها في علوم التاريخ والجغرافيا والآثار والفلسفة والاجتماع والنفس والتربية والاقتصاد والتجارة والقانون والسياسة والفنون والإنسانيات بصفة عامة وعلوم الزراعة وغيرها وذلك في كلياتها ، ومعاهدها المعنية ، ويقوم بالتدريس لهؤلاء قرابة عشرين ألفاً من أعضاء هيئة التدريس والمعيدين .

ويرى المهتمون بموضوع اللغة العربية والراصدون لحركاتها ومستواها في التعليم

العالي والجامعي في مصر في الوقت الحاضر أن واقع الحال يعكس صورة قاتمة تتمثل فيما يلي وقد تردد ذلك في مؤتمر الإسكندرية الذي عقد في عام ١٩٨١ عن اللغة العربية وفي غيره من المؤتمرات والندوات :

— شيوع استخدام اللغة العامية في المحاضرات والمناقشات ولا تستثنى من ذلك دروس اللغة العربية وآدابها . . .

٢— قلة الاهتمام بدراسة التراث العربي دراسة أصيلة في فروع اللغة والأدب والنقد والبلاغة ، وكذلك بالدراسات الحديثة في هذه الميادين .

— تلقين القواعد الجامدة في دراسة النحو ، وعدم الاهتمام بالجانب التطبيقي في تدريسه .

٣— قلة العناية باختيار النصوص الأدبية ، وبتدريس العلوم اللغوية الحديثة بفروعها المختلفة .

— الاعتماد كلية على الكتاب الجامعي المقرر في مواد اللغة العربية وآدابها وعزوف الطلاب عن الاطلاع عن المصادر والمراجع الأصلية .

— عدم الاهتمام باستخدام الوسائل السمعية في تحسين الأداء عند الطلاب .

— عدم الاهتمام بالندوات العلمية في داخل الكليات والأقسام المتخصصة وعدم رعاية

المواهب الأدبية واللغوية بين الطلاب ،
والعمل على تشجيعها .

- قلة الاهتمام برعاية المدرس الجامعي أو العالي
المتخصص في اللغة العربية وآدابها رعاية
علمية لرفع كفاءته من حيث ثقافته العامة
ووصله بالتراث والتطور الحديث في فرع
تخصصه :

كليات ومعاهد يجرى فيها التدريس باللغة الأجنبية :

من بين مجموع الطلاب الذين يتعلمون في
الكليات الجامعية والمعاهد العليا في مصر في
الوقت الحاضر توجد نسبة تصل إلى نحو ٢٣٪
ثلاثة وعشرين من المئة من هؤلاء أى ما يقرب
من مئة وخمسين ألف طالب يتلقون دروسهم
حتى اليوم في معظم المقررات الدراسية بلغة
أجنبية هي الإنجليزية في كلية الطب البشرى
والبيطرى وطب الأسنان والصيدلة وكليات
العلوم والهندسة والمعاهد العليا للتدريس ،
والعلاج الطبيعى - وهذه مسألة تشغل بال
الكثيرين من علمائنا والمهتمين بأمور العلم ،
والتعليم في الجامعة والمعاهد وطال فيها الحوار
والجدل بين فريقين طوال نصف قرن ،
أو يزيد منذ إنشاء الجامعة .

فريق يدعو إلى استخدام اللغة العربية لغة
للتعليم في هذه الكليات من منطلق واسع مستنير
يستشرف الآفاق الرحبة لهذه اللغة الحزلة
المعطاءة ، ويرى في قوتها وحيويتها الدافقة

وثرائها وشمولها قدرة فائقة على استيعاب
التطور المتلاحق في قطاعات العلم والمعرفة
ويراها أداة طيعة للتعامل مع عصر العلم
والتكنولوجيا الذى نعيشه اليوم الأمر الذى
ينهض بالتعليم الجامعى ومستواه والآخذ في
الهبوط والتردى - وفريق آخر وهو قل
لا كثير يناهض فكرة التدريس باللغة العربية
من ادعاء ظالم بأن اللغة العربية تقصر عن
الوفاء بمطالب العلم الحديث وتنأى بالدارس
عن مواكبة الإيقاع السريع الذى نشهده اليوم
في هذا العصر لحركة العلم والتقدم العلمى .
وقد فات هؤلاء المعارضين أن الدعوة إلى
استخدام اللغة العربية تستمد جذورها
من تلك النهضة الإسلامية التى تألفت في
سواء الأمة العربية منذ ألف عام ونيف
وبلغت أوجها في عصر المسامون (٧٨٦ -
٨٣٣ م) حين أخذ المسلمون ينهلون من
موارد العلم ويترجمون الكتب الإغريقية
والسريانية والفارسية وينقلون إلى اللغة
العربية مختلف الدخائر العلمية وقد حمل
لواء هذه الحركة العلمية العارمة التى امتدت
بعد ذلك بضعة قرون عدد من العلماء
العرب الأعلام الذين كتبوا أعظم المؤلفات
والموسوعات في علوم الكيمياء والفيزياء
والرياضيات والفلك والحيوان والنبات
والطب والصيدلة وغيرها .

ويطيب لى في هذا المقام أن أشيد بعمل
أئليج صدور المهتمين بأمور اللغة العربية
الذى صدر عن المؤتمر العشرين لاتحاد
الأطباء العرب في جلسته الختامية التى عقدت

بالقاهرة في الثاني والعشرين من يناير عام ١٩٨٨ خاصا « بتعريب مناهج كليات الطب وأن يكون عام ١٩٨٨ عام بدء تعريب الطب في كلياته المختلفة في الوطن العربي على أن يتم ذلك تدريجيا في السنوات الخمس القادمة كما أوصى المؤتمر بأن تكون البحوث في مؤتمر اتحاد الأطباء العرب باللغة العربية وبمناشدة منظمة الصحة العالمية عقد اجتماع لعمداء كليات الطب في العالم العربي لمناقشة موضوع البدء في عملية التعريب .

ولاشك أن هذه خطوة إيجابية على الطريق ودعوة صادقة نحو تصحيح المسار تضاف إلى ماسبق من دعوات انطلقت من العديد من المؤتمرات والندوات التي توالى عقدها في البلاد العربية طوال ربع قرن أو يزيد والتي كانت ولا تزال تستنهض الهمم بضرورة الإسراع بالجامعات العربية في استخدام اللغة العربية في تعليمها العالي والجامعي في القطاعات التي لا تزال عزوفة عن هذا المطلب القومي وذلك لاعتبارات قومية وعلمية واجتماعية إذ أن الفكر الأصيل لا يخلق في الأمة إلا إذا كانت تعلم بلغتها .

ومشكلة التعليم بلغة أجنبية في بعض كلياتنا الجامعية ومعاهدنا العالية ذات جوانب ثلاثة تتمثل في الأستاذ والكتاب والطالب :

فبالنسبة للأستاذ فقد درج منذ سنوات بعد عودته من البعثة من الخارج مؤهلا بالدرجة أو حصوله عليها من جامعاتنا المصرية - درج على تدريس مختلف العلوم باللغة الإنجليزية وتجذبه في ذلك المادة العلمية المتاحة في مراجعها الأجنبية ونحشى استخدام اللغة العربية فيحتاج لذن إلى بذل جهود مضاعفة في الترجمة والإعداد هو في غنى عنها حين يستخدم اللغة الأجنبية ويأيت هذه اللغة لغة سليمة حقا وقد زاد سوء الحال بتكدس الطلاب بالآلاف مما جعل مهمة الأستاذ باللغة الصعبة وعجز الطلاب عن استيعاب المادة العلمية وفهمها وفهمها تماما بهذه اللغة الأجنبية ويكفي أن نطلع على أوراق إجاباتهم في كليات الطب والعلوم والهندسة وغيرها لنرى ضعف المستوى اللغوي والعلمي في هذه الأيام - ومع ذلك نرى عزوفا عن التدريس باللغة العربية - ومما تجدر الإشارة إليه أن الستينيات وأوائل السبعينيات في مصر قد شهدت محاولات جادة للتدريس باللغة العربية للسنوات الأولى والإعدادية في بعض هذه الكليات وكانت النتائج عظيمة من حيث استيعاب الطلاب للمادة العلمية وفهمها في سهولة ويسر - ولكن عدل هذا الاتجاه بعد سنوات قليلة وعادت الأمور سيرتها الأولى وكان عدم توافر المراجع العلمية الحديثة باللغة العربية ترجمة

وتأليفا وتعرييا للمصطلحات العلمية أحد الأسباب في هذه النكسة - أضف إلى ذلك افتقار المدرس الجامعي والعالي إلى التأهيل الأمثل للتدريس بالعربية السليمة بدلا من ذلك الخليط من لغة أجنبية ضعيفة متردية وعربية عامية دارجة - ويجدر بي أن أشير هنا إلى أن بين الدراسات الرائعة التي كتبها العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع الأردني الموقر دراسة قيمة حقا في موضوع تأهيل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة للتدريس باللغة العربية وهي دراسة جديرة بالعناية والاهتمام من القائمين على تعليمنا العالي والجامعي .

وبالنسبة للكتاب فلا تزال المكتبة العربية في مصر فقيرة حتى اليوم في الكتب والمراجع العلمية الحديثة المؤلفة باللغة العربية أو المترجمة لآلها بكتابات العلوم والطب والهندسة وبعض المعاهد العليا باستثناء بعض المقررات الدراسية في بعض هذه الكليات إذ لها كتبها بالعربية لأنها تدرس بهذه اللغة - وسبب ذلك الذي نشهده من قلة المستحدث من المراجع العلمية العربية هو العزوف عن التأليف أو الترجمة في غيبة الحافز الذي يدفع إلى ذلك - ومرد ذلك أيضا إلى الأزمة التي تمر بها حركة الترجمة بوجه عام وغنى عن البيان أن الترجمة ضرورية لتحقيق التواصل الفكري

الدائم بيننا وبين العالم الغربي الذي تتقافز خطواته في معارج الرقي والتقدم - كما أن اللغة العربية تزداد غنى وثراء بالترجمة وتنسج آفاقها بالحصيلة الحديدية التي تضاف إلى مذكور تراثها وتصبح أقدر على تأدية رسالتها في عصر العلم والتقدم العلمي والتكنولوجيا بفضل عملية التلاحم التي تضطلع بها الترجمة ولاشك أن لكل ذلك انعكاساته الإيجابية على التعليم باللغة العربية في جامعاتنا ومعاهدنا العالية .

والجدير بالذكر أن الترجمة قد ازدهرت في مصر في عصور سابقة - في عصر رفاعة الطهطاوي الذي سبقت الإشارة إليه وإلى أثره العميق في النهضة العلمية والثقافية الحديثة في مصر - أو في أيام «المقتطف» حين كان يحفل بمختلف التراجم العلمية والمصطلحات باللغة العربية - أو في أيام لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر والتي كانت تضم نخبة من أساطين العلم والفكر والأدب من بينهم شيخ المجاميع الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور رئيس مجمع القاهرة - وقد زودت هذه اللجنة على مدى ثلاثين عاما المكتبة العربية بطائفة من الكتب والمؤلفات والتراجم أو في أيام المجلس الأعلى للعلوم في أواخر الخمسينيات حين أشرف على برنامج لترجمة أمهات الكتب والمراجع في العلوم الأساسية الجامعية لمساهما في تدريسها باللغة

العربية - وهكذا فعلت مؤسسة فرانكلين ومشروع الألف كتاب الذى نهضت به الإدارة الثقافية بوزارة التربية والتعليم فى الستينيات - ولكن من المؤسف حقا أن الكثير من هذه الكتب والمراجع الجامعية التى نقلت إلى العربية قد أهملت وطواها النسيان إذ أن عدم التدريس باللغة العربية قد وأد معظمها وأجهض الجهود المضنية التى بذلت فى سبيل إتجازها - ومع ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة بادرة طيبة بالنسبة للكتاب العلمى العربى وبالنسبة لاتخاذ اللغة العربية لغة للتدريس لبعض المقررات فى بعض كليات العلوم والهندسة والطب البيطرى فى بعض الجامعات والمعاهد العليا وهى حركة مباركة نرجو لها النماء والازدهار :

وبالنسبة للطلاب فقد شهدت العشرين سنة الماضية ازديادا هائلا فى إعداد الطلاب المتحقين بالتعليم العالى والجامعى ومن بينهم الذين يتلقون تعليمهم بلغة أجنبية وامتلات قاعات الدرس بحشود منهم الأمر الذى أدى إلى ضعف بالغ فى التحصيل واستيعاب المادة العلمية وفهمها وانعدام الصلة بين الطالب والأستاذ وكان لكل ذلك أثره العميق فى ضعف مستوى الطلاب وتكوينهم العلمى - ولو كان التدريس باللغة العربية لاختلقت الصورة وارتقى

تحصيل الطلاب وارتفع مستواهم العلمى مع العمل على رفع مستواهم أيضا فى اللغة العربية عن طريق وضع مناهج متطورة وبرامج تعليمية لتدريس اللغة العربية وقواعدها الأساسية .

هيئات علمية ولغوية فى مصر تعمل على النهوض باللغة العربية :

تشهد مصر منذ سنين نشاطا ملحوظا من هيئات علمية ولغوية تعمل جاهدة فى صبر وأناة على اتخاذ اللغة العربية لغة للعلم وتطبيقاته وفى مقدمة هذه الهيئات مجمع اللغة العربية الذى يقوم من بين مهامه اللغوية والعلمية الكبرى بمهمة وضع المصطلحات العلمية ويؤدى بذلك خدمة جليلة ومؤثرة للمستغلين بالتعليم العالى والجامعى - وقد أنجز المجمع من هذه المصطلحات أكثر من ثلاثين ألف مصطلح علمى فى مجالات الكيمياء والطب والصيدلة والفيزيكا والأحياء والزراعة والجيولوجيا والهندسة والرياضيات والحاسبات الالكترونية وغيرها وذلك بالإضافة إلى علوم الأدب والفنون والعلوم الاجتماعية واللغويات وغيرها ، وقد أخرج للمكتبة العربية عددا من المعاجم المتخصصة فى هذه العلوم جميعا والعلوم الحديثة بوجه خاص - وهذه المصطلحات والإنجازات تأخذ طريقها رويدا رويدا إلى الجامعات والمعاهد العليا وإلى كتب المترجمين والمؤلفين الذين يدرسون باللغة العربية فى بعض الكليات

الجامعية كما أنها تكون رصيدا ذابال حين يعدل عن التدريس بلغة أجنبية لتحل محلها اللغة العربية .

ولاشك أن الذخيرة اللغوية والعلمية التي تحفل بها الجامعات الأخرى للغة العربية في الأردن ودمشق وبغداد وهيئة التعريب بالرباط وكذلك المعاجم العربية الأخرى مثل معجم شرف في العلوم الطبية والطبيعية ومعجم المعلوف في الحيوان ومعجم أحمد عيسى والأمير الشهابي في النبات والمعاجم الحديثة الأخرى كلها تقوم بدور بارز في تعريب المصطلحات العلمية على اتساع العالم العربي كله .

ومن الهيئات التي تعنى كذلك بهذا الموضوع الاتحاد العلمي المصري والجمعيات العلمية في مصر وكذلك مركز الأهرام للترجمة العلمية .

اللغة الأجنبية في برامج التدريس باللغة العربية :

إذا كنا نعمل على إحلال اللغة العربية محل اللغة الأجنبية في التدريس لطلبة بعض الكليات الجامعية والمعاهد العليا فليس معنى ذلك أننا نريد الانغلاق على أنفسنا بل العكس هو الصحيح - هو الانفتاح على العالم الخارجى على علمه ومنجزاته الحديثة في العلم وتطبيقاته ولايتسنى ذلك إلا بإتقان لغة أجنبية كالإنجليزية أو الفرنسية نطل بها

إطلاالات نيرة على انجازات العلم الحديث وآفاقه الرحبة - ولذلك وجب الاهتمام بتعلم لغة أجنبية وليكن ذلك ضمن برامج التدريس بالجامعة - وإذا كان ذلك ضروريا لطلاب المرحلة الجامعية الأولى فهو أساسى وحتى لطلاب الدراسات العليا وجدير بالذكر أن الجامعات المصرية تولى اهتماما في الوقت الحاضر بتدريس اللغة الأجنبية جنبا إلى جنب مع برامج الدراسة الأخرى .

وسائل النهوض باللغة العربية في التعليم العام والتعليم العالى والجامعى في مصر مقترحات وتوصيات

بعد أن تبين بوضوح أن لغتنا تعاني أزمة حقيقية أقلقت بال المشتغلين بأمور الثقافة والتعليم والقائمين عليها في مصر ، وبدأت آثارها جليلة بين جمهوره الطلاب في تعليمنا العام والعالى بعد أن تبين ذلك أولت الجامعات وهيئات العلمية والثقافية واللغوية اهتماما بالغاً بموضوع اللغة العربية ووسائل النهوض بها تمثل في نداءات وتحذيرات تدق ناقوس الخطر جرت بها أقلام العلماء والكتاب ووضعت في العديد من الدراسات التي حفلت بها الندوات والمؤتمرات على مدى سنوات طوال كانت أقربها ندوة تعريب لغة العلم في التعليم الجامعى التي عقدها الاتحاد العلمى المصرى عام ١٩٨٢ ورأسها وتحدث فيها

أستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم مذكور
رئيس مجمع القاهرة ورئيس اتحاد المجمع
اللغوية ، ومؤتمر جامعة الإسكندرية عام
١٩٨١ عن اللغة العربية في الجامعات -
أضف إلى ذلك دراسات أخرى تبناها
المجلس القومى للتعليم والمجلس القومى للثقافة
في مصر وكذلك دراسات على الصعيد
العربى جاءت في أعمال المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم. وجدير بالذكر أن
أنوه بذلك المعين الفياض من الدراسات
الرائدة التى زخرت بها كتب مجمع
اللغة العربية الأرملى وبخاصة مما سطره
في حنكة واقتدار عن موضوع اللغة
العربية وتعريب التعليم العالم الأجل الأستاذ
الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع
والذى جاء قمة في الأداء والاستقصاء .

وقد حفلت كل هذه الدراسات والندوات
والمؤتمرات بالكثير من الآراء والاقتراحات
استعنت فيما أنا بصددده من إعداد توصيات
أنهى بها محاضرتى المتواضعة أملا في أن تجد
هذه التوصيات طريقها نحو التنفيذ لنهض
باللغة العربية ونرتفع بمستواها من منطلق
قوى وعلمى واجتماعى .

**وبالنسبة للغة العربية في التعليم العام نوصي
بما يلي :**

- ضرورة إعادة تقويم مناهج اللغة
العربية ومحتواها وطرق تدريسها واختباراتها

في مراحل التعليم العام تقويما موضوعيا
شاملا بما يقضى على القصور فيما أصبح
عليه المستوى اللغوى والتعبيرى العربى الذى
يخرج به الطلاب ويلتحقون بعده بالتعليم
العالى والجامعى ؟

- أن يكون البدء بتعليم اللغة العربية
عن طريق الطفل أو التلميذ في المرحلة
الأولى من مراحل التعليم العام نقلا رقيقا
متدرجا من لغته المختلطة إلى اللغة السليمة
بمناصرها الأساسية الأربعة وهى الحديث
والاستماع والقراءة والكتابة والعمل الدائب
على نقل التلميذ من لغة التخاطب إلى اللغة
العربية الصحيحة .

- الحرص على استخدام اللغة العربية
الفصحى في تدريس جميع المواد حتى
لا يقتصر استخدامها على دروس اللغة
العربية فتبدو للطلاب غريبة عنهم .

- ضرورة التنسيق بين مناهج اللغة
العربية في مراحل التعليم العام الثلاث
بحيث يراعى تكاملها وتدرجها كما يراعى
التنسيق في كتب اللغة العربية بحيث تؤلف
هذه الكتب وحدة متصلة .

- العمل على تنمية الميل للقراءة والاطلاع
في التلميذ كهدف أساسى من أهداف التعليم
بل هو وسيلة تعليم الإنسان نفسه بنفسه
ولإتاحة فرص الاستماع إلى مختارات من

القراءة شعرا ونثرا وحوارا ونصوصا
وقصصا مع توافر مواد للقراءة الحرة
للتلميذ في مختلف المراحل وبخاصة في مرحلة
الطفولة .

العربية في مراحل التعليم العام ليرتفع بذلك
مستوى تأهيلهم للتدريس ويشمل هذا أيضا
مدرسى المواد الأخرى .

- ضرورة العمل على إنشاء مركز
قوى لتطوير تعليم اللغة العربية يدرس واقعها
ويطور مناهجها وطرق تدريسها ويعنى
بتأهيل مدرسيها ، كما يضع سياسة تأليف
الكتب والمراجع ويعمق الاستفادة من بحوث
مجمع اللغة العربية واتحاد الجامعات اللغوية
العربية كما يضع السياسة اللازمة لترقية
المستوى اللغوى لجمهور المواطنين .

- الدعوة بأن تكون لغة الصحافة
وأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية ودور
النشر هي اللغة العربية الصحيحة وذلك
للقضاء على ظواهر الانحراف في الأداء
اللغوى وعلى الخروج على القواعد وتحريف
الألفاظ والعبارات وكذلك الدعوة إلى
أن يهتم المتحدثون والخطباء بالحديث باللغة
العربية بصفاتها ونقاها .

**وبالنسبة للغة العربية في التعليم العالى
والجامعى نوصى بما يلى :**

- وضع الخطة المناسبة لتعميم استخدام
اللغة العربية في مرحلة التعليم العالى والجامعى
في كافة العلوم والتخصصات ومنع استخدام
اللغة العامية في المحاضرات الجامعية وهذا
أشد لزوما في دروس اللغة العربية وآدابها

- العناية بتحفيظ التلاميذ في مراحل
التعليم العام قدرا مناسباً من القرآن الكريم
ليستقيم لسانهم وترسخ اللغة العربية السامية
في وجدانهم مع الاهتمام بالثقافة الدينية
الإسلامية وحفز الشباب إلى دراستها .

- توجيه الجهود إلى إعداد معاجم
لغوية حديثة وعصرية ومصورة ملائمة
لمختلف مراحل التعليم العام وكذلك العناية
بالمكتبات المدرسية واختيار الكتب المشوقة
للتلميذ .

- استخدام الوسائل والمعينات التعليمية
والتقنيات الحديثة في تعليم اللغة العربية .

- توجيه الاهتمام بالخط العربى وتيسير
الحروف والتقليل من صوردها بما يحفظ
لها جمالها وبما لا يبعدها عن الاتصال بالتراث
وذلك للأهمية البالغة في اقتصاديات الطباعة
واقتصاديات مبادئ القراءة والكتابة .

- ضرورة تيسير قواعد النحو والصرف
والرسم الإملائى وكتبتها ونشرها بين المدارس
لتجنب أخطاء التحدث والكتابة .

- الاهتمام الدائب والمستمر برفع المستوى
اللغوى والثقافى والتربوى لمدرسى اللغة

— ضرورة الاهتمام بدراسة التراث العربى
دراسة أصيلة فى فروع اللغة والأدب والنقد
والبلاغة وكذلك الاهتمام بالدراسات الحديثة
المتطورة فى هذه المجالات .

— العناية فى اختيار النصوص الأدبية
اختيارا دقيقا والاهتمام فى تدريسها بالتدقيق
ولإبراز القيمة الفنية والجمالية بحيث لا يطفى
المحتوى التاريخى أو الاجتماعى على النص .

— الحد من الاعتماد كلية على الكتاب
الجامعى المقرر فى مواد اللغة العربية وآدابها
وتوجيه الطلاب إلى المصادر والمراجع
الأصيلة فى كل مادة .

— العناية بتدريس العلوم اللغوية الحديثة
بفروعها المختلفة وإيفاد مبعوثين للتخصص
فيها لسداد النقص الكبير فى القائمين على
تدريسها .

— الاهتمام برعاية المدرس الجامعى والعالى
المتخصص فى اللغة العربية رعاية علمية
لرفع كفاءته من حيث ثقافته العامة ووصله
بالتراث وبالتطور الحديث فى فرع تخصصه .

— العناية بتأهيل أعضاء هيئة التدريس
بالكليات الجامعية والمعاهد العليا (من
غير المتخصصين فى اللغة العربية) للتدريس
باللغة العربية السليمة ووضع برامج متطورة
عن طرق تدريسها .

— دعم المكتبات الرئيسية بالجامعات
ومكتبات الكليات والأقسام المتخصصة
اتوفير المصادر الرئيسية فى اللغة العربية
وآدابها .

**بالنسبة للكليات الجامعية والمعاهد العليا التى
يجرى فيها التدريس بلغة أجنبية نوصى
بما يلى :**

— دعوة الهيئات الأكاديمية المختصة وفى
مقدمتها المجلس الأعلى للجامعات إلى تعريب
التعليم فى هذه الكليات والمعاهد وأن يخطط
لذلك ويعد العدة للمضى فى هذا العمل القومى
مع التدرج فى تنفيذه وذلك تحقيقا وإعمالا
للنص الذى ورد فى هذا الشأن فى قانون
الجامعات .

— التوسع فى تعريب المصطلحات العلمية
 ووضع المقابلات العربية المناسبة لها وبخاصة
فى المستحدث من فروع العلم والتكنولوجيا
ومتابعة الجهود الكبيرة التى يقوم بها مجمع
اللغة العربية والجامع العربية الشقيقة الأخرى
فى هذا المجال مع حفز العلماء والباحثين على
استخدام هذه المصطلحات وإشاعتها فى
محاضراتهم وكتبهم ومؤلفاتهم ودراساتهم
الجامعية وضرورة العمل على توحيد المصطلحات
العلمية فى الوطن العربى .

— ضرورة التوسع فى وضع المعاجم
العلمية المتخصصة باللغات العربية والإنجليزية
والفرنسية وقد أسهم مجمع اللغة العربية والجامع

العربية الأخرى بقسط كبير في هذا السبيل
وكان أقربها معجم الحاسوب أو الحاسبات
الإلكترونية الذى صدر حديثا عن مجمع
القاهرة .

— توجيه عناية خاصة إلى ترجمة مجموعات
متكاملة من أمهات الكتب والمراجع العلمية
الأجنبية مع ضرورة التفكير فى إنشاء
مركز قومى للترجمة يتولى جمع المعلومات
وتبادلها وتنشيط حركة الترجمة والتأليف
والنشر ورعايتها ويلاحق التزايد الكبير فى
العلوم المستحدثة .

— مضاعفة جهود إحياء عيون التراث
العربى العلمى وتحقيقه ونشره وتحديث
معالجته فى دراسات مقارنة تجمع بين التأصيل
والمعاصرة . وتوصية الجامعات بتضمين
العلوم بمختارات منتقاة من مصادر التراث
العلمى المتميز التى زاوجت بين الثراء
اللغوى وبين الإبداع العلمى .

— زيادة المواد العلمية والفنية والثقافية
التي تقدم باللغة الفصحى فى مختلف أجهزة

الإعلام مع العناية بحسن انتقاها ومسايرتها
لروح العصر .

— مع الدعوة إلى التعريب فإنه يلزم
توجيه عناية خاصة إلى تعليم اللغات الأجنبية
فى المرحلة الجامعية بل فى مرحلة التعليم
العام أيضا وبعد ذلك فى مرحلة الدراسات
العلية وفى هذه المرحلة الأخيرة يتحتم
لنقان لغة أجنبية (الإنجليزية) ولما جادتها
حديثا وكتابة وفكرا لطلاب هذه المرحلة
ووضع البرامج الكفيلة بذلك لفتح الانفتاح
على العالم الخارجى والاتصال بالتطور العلمى
ومنجزات العصر .

هذا عرض متواضع عن قضية اللغة
العربية — فى التعليم العام والتعليم العالى
والجامعى فى مصر فى الوقت الحاضر — ألحت
فيه إلى تاريخها وواقعها والمشكلات التى
تحيط بها وتحاصرهما ، وأتيحت ذلك بتوصيات
واقترحات تهدف إلى حل هذه المشكلات
وإلى النهوض باللغة العربية والارتفاع بمستواها
باعتبارها قضية قومية وثيقة الصلة بكياننا
العربى وائتماننا الوطنى .



المراجع

- ١ - اللغة العربية والتعريب - للدكتور عبد الكريم خايفه .
منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٨٧
- ٢ - تأهيل أعضاء هيئة التدريس بالعربية - للدكتور عبد الكريم خايفه :
مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٨٠
- ٣ - المجامع العربية والمصطلح العلمي - للدكتور إبراهيم بيومي مذكور .
مطبوعات إتحاد الجامعات العربية مؤتمر تعريب التعليم الجامعي والعالي ١٩٨٠
- ٤ - اللغة العربية في الجامعات : واقعها ووسائل الارتقاء بها .
مؤتمر جامعة الإسكندرية - كلية الآداب ديسمبر ١٩٨١
- ٥ - وسائل تطوير وإعداد معلمى اللغة العربية في الوطن العربي .
كتاب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الرياض ١٩٧٧
- ٦ - تحديث التعليم قبل الجامعي .
مطبوعات المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى - الدورة الرابعة عشرة ١٩٨٦ / ١٩٨٧
- ٧ - مناهج اللغة العربية ووسائل النهوض بها في التعليم العام .
مطبوعات المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى - الدورة السابعة ١٩٧٩ / ١٩٨٠
- ٨ - إعداد معلم اللغة العربية .
مطبوعات المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى - الدورة الثامنة ١٩٨٠ / ١٩٨١
- ٩ - قضية تعريب التعليم العالى والجامعى فى مصر - للدكتور محمود حافظ .
مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٦
- ١٠ - العربية لغة العلم - للدكتور محمد دوى .
كتاب المجمع المصرى للثقافة العلمية عدد ٤ - ١٩٣٤

- ١١ - العربية لغة علمية - للدكتور إسماعيل مظهر .
كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية - عدد ١٠ - ١٩٤٠
- ١٢ - تعريب العلم - للدكتور عبد الحلیم منتصر .
كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية عدد ٣١ - ١٩٦٠ .
- ١٣ - نشر الكتب العلمية باللغة العربية - للدكتور كامل منصور .
كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية عدد ٣١ - ١٩٦١
- ١٤ - مشكلات التعليم الجامعي في البلاد العربية :
الحلقة الأولى بنغازي ١٩٦٤ ، الحلقة الثانية بيروت ١٩٦٤
- ١٥ - تعريب التعليم العالي في الوطن العربي - مؤتمر بغداد مارس ١٩٧٨
مطبوعات اتحاد الجامعات العربية
- ١٦ - اللغة العربية ودراسة العلوم بالجامعة - للدكتورة عائشة عبد الرحمن :
المجالس القومية المتخصصة (شعبة الثقافة) ١٩٨١
- ١٧ - مستقبل التعليم الجامعي والبحث العلمي في مصر - للدكتور كامل منصور •
والدكتور عبد الحافظ حلمي وآخرين .
مطبوعات المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي ١٩٧٩
- ١٨ - اللغة العربية في خدمة علوم الإحياء - للدكتور محمود حافظ :
كتاب مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٩
- ١٩ - اللغة العربية والتعليم الجامعي - للدكتور حسين نصار .
المجالس القومية المتخصصة (شعبة الثقافة) ١٩٨١
- ٢٠ - تعريب التعليم الجامعي في مجالات المصطلح العلمي والترجمة والتأليف
للدكتور عبد الحلیم منتصر - مطبوعات اتحاد الجامعات العربية :
مؤتمر تعريب التعليم الجامعي والعالي - ١٩٨٠

٢١ - اللغة العربية في التعليم والثقافة - للدكتور محمود الشنيطى :

المجالس القومية المتخصصة (شعبة الثقافة) ١٩٨١

٢٢ - لغة تدريس العلوم في الجامعات - للدكتور عبد الحافظ حلمى محمد .

مطبوعات إتحاد الجامعات العربية - مؤتمر تعريب التعليم الجامعى والعالى - القاهرة

١٩٨٠

٢٣ - تعريب لغة العلم في التعليم الجامعى - ندوة رأسها وتحدث فيها الدكتور إبراهيم بيومى

مذكور وآخرون .

كتاب الدورة الثامنة للاتحاد العلمى المصرى (تحت الطبع)

٢٤ - العربية لغة العلوم والتقنية - للدكتور عبد الصبور شاهين :

دار الإصلاح والنشر - المملكة العربية السعودية ١ - ٤٧٠ الطبعة الأولى ١٩٨٣

محمود حافظ

عضو المجمع



الإفادة والعلاقات البيانية للدكتور تيمام حسان

الأمر » ، لمطابقة ذلك لأحد أوضاع الكلام (وضع الجملة الخبرية) .

وليس من الكلام أيضا أن يقال
ب (الحمد لله الذي أبلغ محمد عقيدة
الإسلام للناس) وذلك لعدم
وجود الرابط من ضمير ونحوه .
ولكن من الكلام أن يقال : « الحمد
لله الذي أبلغ محمد عقيدة الإسلام
له إلى الناس » . ومنه على رغم
اللبس أن يقال : « الحمد لله الذي
أبلغ محمد شريعته إلى الناس »
إذ تفتقر إعادة الضمير إلى قرينة ،
فإذا قامت القرينة صح الكلام وأفاد .

(ب) أن يكون المقصود يفيد « الوضع »
اشتمال الجملة على كلمات عربية
بأصل الوضع ، فينصرف القيد
إلى المفردات التي في الجملة لا إلى
نمط التركيب . فإذا كان الأمر
كذلك فليس من الكلام (على رغم
صحة النمط) أن يقال :

« حنكف الجعبور بقعاصة الكلابيص
الفيفانة » .

عرف ابن مالك الكلام بأنه « لفظ مفيد » ،
وعرفه صاحب الأجرومية ونقل عنه الخزولي
في القانون بقوله : « الكلام هو اللفظ المركب
المفيد بالوضع » ، فأضاف قيد التركيب إلى
« اللفظ » وقيد الوضع إلى « المفيد » . ولكل
من هذين القيدين ما يجعله ضروريا للتعريف .
فأما التقييد بلفظ « المركب » فتأتى ضرورته
من أن اللفظ إذا لم يكن مركبا فهو مفرد
 والمعروف أن اللفظ المفرد معناه مفرد
لاستفاد منه نسبة ، وفلك شأن كل الألفاظ
المفردة في معجم اللغة ، فكل من هذه
الألفاظ « كلمة » لا « كلام » . وهذا
ما سنعود إليه عند تناولنا للعلاقات البيانية .
وأما قيد « الوضع » فقد يفهم منه أحد أمرين :

(١) أن يكون المقصود بالوضع نمط
تركيب الجملة (أيا كان هذا النمط
خبرا أو شرطا أو إنشاء) فصورة
كل تركيب من هذه التراكيب
« وضع » من أوضاع الكلام وشرط
من شروط تركيبه . ومن ثم لا يعد
من الكلام أن يقال : (عَمَلِيَّ وَقَمَفَ
الأمري زيد جلية) ولكن من الكلام
أن يقال : « وقف زيد على جلية »

لأن « مفردات الجملة » ليست كلمات عربية الوضع ، أما نمط التركيب فطابق لشروط الصناعة إلى درجة يمكن معها إعرابه .

ویدخل تحت هذا القيد أيضا أن تتسم العلاقة بين ألفاظ الجملة ، بالمناسبة المعجمية ، ولذلك لا يعد من الكلام أن يقال .

« غضب الهواء على ضمير القمر »

لأن الهواء لا وجدان له ، ولأن القمر لا ضمير له ، ولانقطاع الصلة بين الهواء والقمر . فكل ذلك يجعل العلاقة بين ألفاظ الجملة علاقة « المفارقة المعجمية » ولا يجعلها « مناسبة معجمية » وذلك يعود بنا إلى مخالفة أصل الوضع الاستعمالي للمفردات .

وقد يتحقق الوضع بالمعنيين السابقين في كلام لا وجود فيه للعلامات الإعرابية كما في المثال التالي (الذي نعتذر عنه للآية القرآنية الكريمة) :

أرأيتك هذا الذي كرمت على اثنين
أخرتن إلى أقصى المدى لأحتنكنه .

وقد يختلف النمط التركيبي للجملة من حيث الالتزام ، أو عدم الالتزام بشروط الافتقار والاختصاص والرتبة الخ فيسمى

ذلك اختلافا في « السبك » مع وصف السبك بالقوة حيناً وبالضعف حيناً آخر فيرتبط ذلك بالإفادة طرداً وعكساً . بهذا نفهم لماذا كان قول الشاعر يتسم بضعف السبك حين قال :

وما مثله في الناس إلا مملك

أبو أمه حي أبوه يقاربه

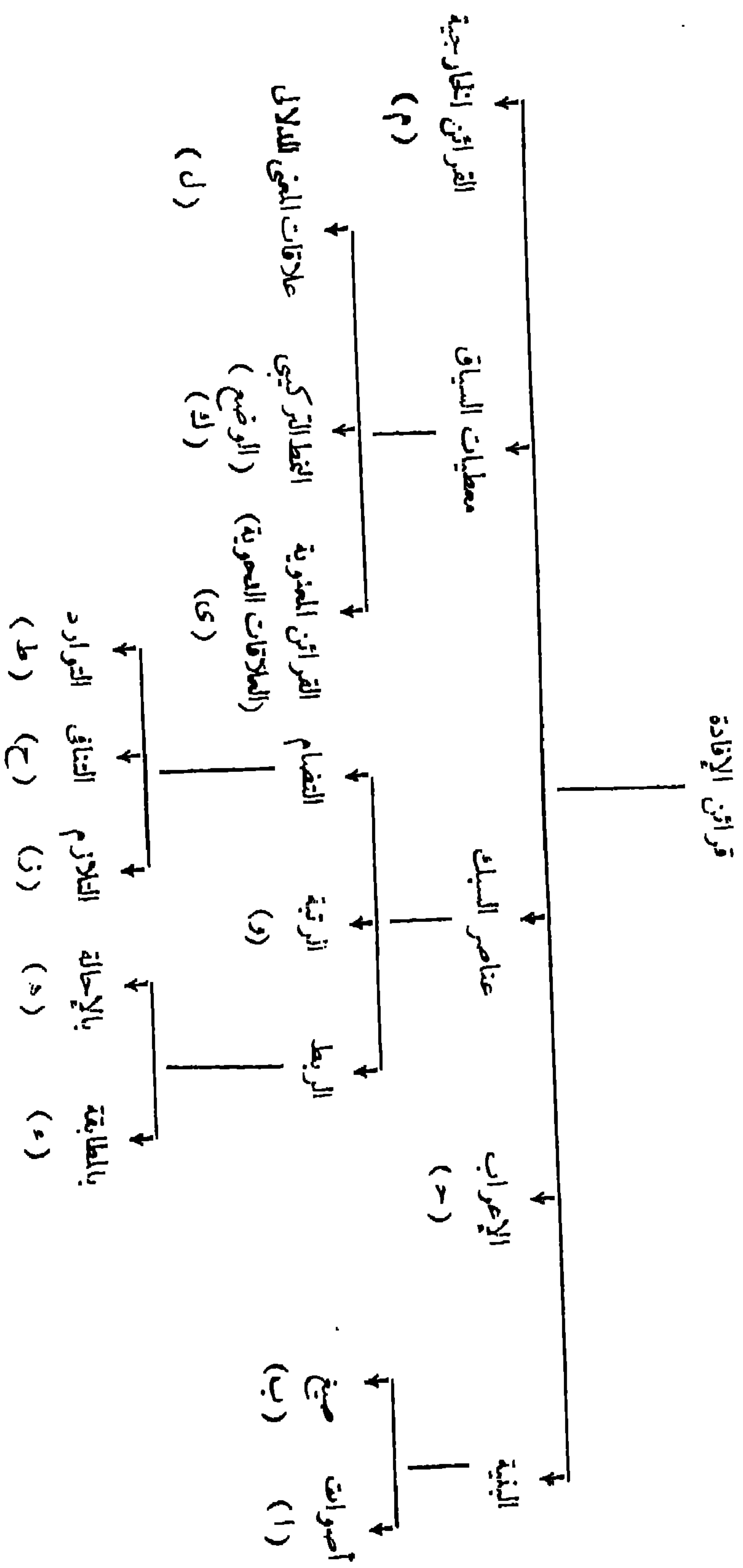
وقد جاء ضعف السبك هنا للأسباب التالية :

١ - الفصل بأجنبي بين المبتدأ (أبو أمه) والخبر (أبوه) على عكس مطالب التضام (بالوصل) .

٢ - الفصل بين الموصوف (حي) وصفته الجملة (يقاربه) على عكس مطالب التضام أيضا .

٣ - تأخير المستثنى منه (حي) على المستثنى (مملك) على عكس مطالب الرتبة . لكل هذا ضعف السبك وتعثرت الإفادة فاحتاج فهم البيت إلى إيمان التأمل .

بعد هذه المقدمة التي أرجو أن يكون مفهوم الإفادة قد اتضح بها أود أن أعرض تخطيطاً يكشف عن ارتباط الإفادة بالقرائن ويمكننا من نقد التعريفين السابقين للكلام المفيد .



والتضام أخطر عناصر السبك : وهو يتفرع إلى ثلاثة أفرع هي التلازم والتنافي والتوارد . فالمقصود بالتلازم افتقار أحد العنصرين في الكلام إلى الآخر أو اختصاصه به وإذا ذكر النحاة « المتلازمين » فالمقصود المفتقر وما افتقر إليه ، والمختص وما اختص به : وأما التنافي فيتمثل في قول النحاة : « لا يجتمع كذا وكذا » و « لا يدخل كذا على كذا » وقولهم : « إذا انتفى شرط من الشروط امتنع كذا » . وهكذا تدل أقوال النحاة على أن العنصرين المذكورين متنافيان .

أما التوارد وهو الثالث من فروع التضام فسنعود إليه بعد قليل .

يتضح مما سبق أن قيد التركيب في تعريف الأجرمية والحزولي يتناول البنية والإعراب وعناصر السبك وفروعها ، وأن قيد الوضع يرمى إما إلى أصل وضع الكلمة أو إلى نمط تركيب الجملة ولما إلى كليهما .

ولكنه يقصر دون شمول أمور أخرى مما يتعلق بالتوارد ومعطيات السياق ، كالعلاقات المعنوية من الإسناد إلى التعدية إلى الغائية إلى الظرفية والملابسة . الخ . ومعطيات السياق وعلاقاته المنطقية وإشارة بعض أجزائه إلى بعضه كما في قول الشاعر .

أنا ابن أباة الصنيم من آل مالك

وإن مالك كانت كرام المعادز

إذ يمتنع في (إن) أن تكون نافية لثلاث يقع البيت في التناقض ، ولا شرطية لثلاث يقع في تحصيل الحاصل إذ لا يقال : زيد كريم وإن كان جواداً ، فلم يبق إلا أن تكون (إن) مخففة من الثقلية ويستقيم المعنى .

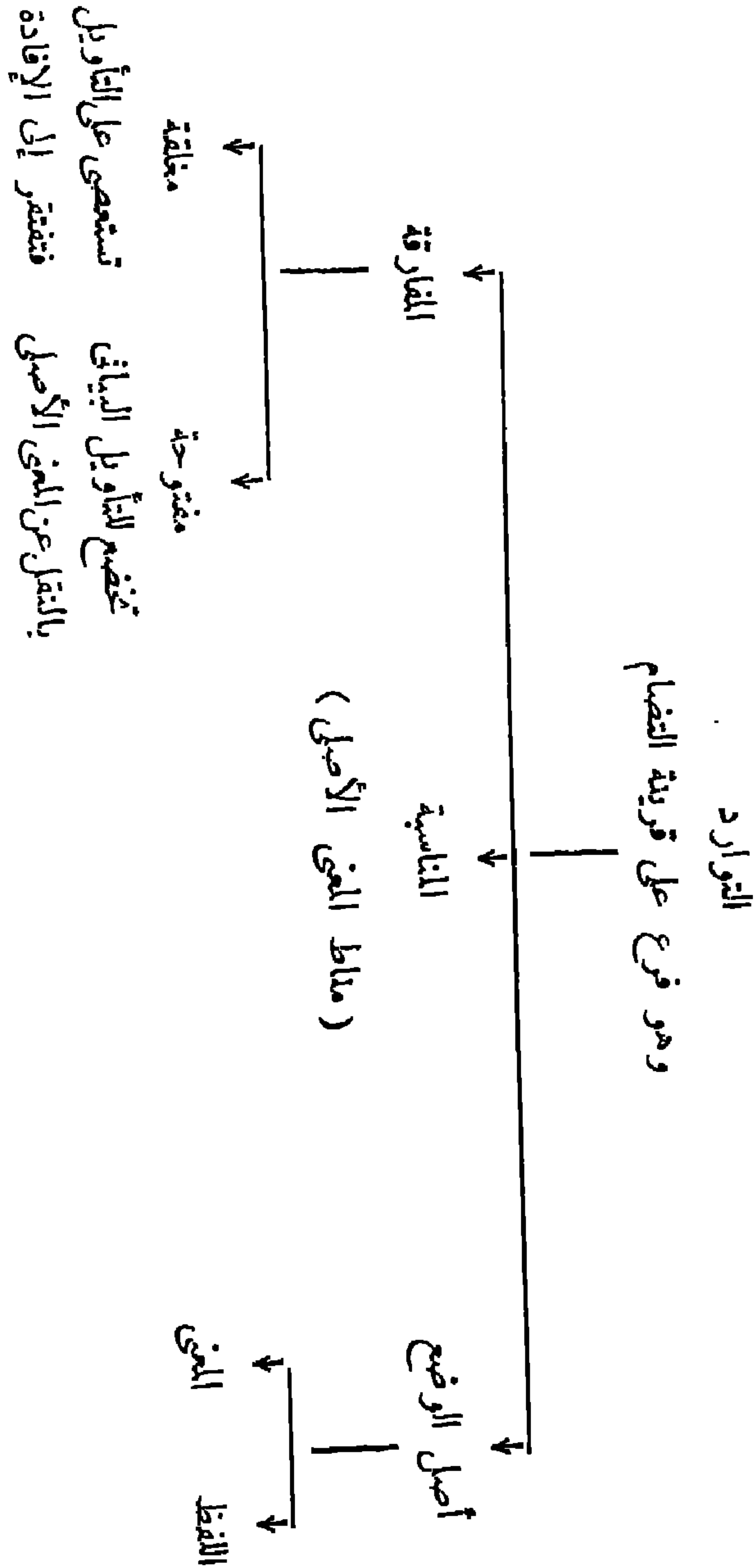
وهذه المعطيات نفسها تمنع أن يكون قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى » تعجباً وتؤكد أنه من قبيل الاستفهام لورود الجواب بعد ذلك ، وتمنع أيضاً عطف الملائكة على الضمير في قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة » ونحتم عطف الملائكة على لفظ الجلالة لقوله بعد ذلك مباشرة : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فعلى الرغم من ضرورة ذلك للإفادة لم تشتمل قيود الجزولي على ما يتصل بذلك .

أما القرائن الخارجية فليست من اللغة وإن أعانت على الإفادة أو توقفت الإفادة عليها أحياناً . وتأتى أهميتها من ارتباطها بالموقف الذي حدث فيه التكلم سواء أكان هذا الارتباط تاريخياً أم جغرافياً أم اجتماعياً الخ وقد يرد سى بن أبي طالب كرم الله وجهه قول الخوارج : « لاحكم إلا لله » بإرجاع العبارة إلى قرائنها الخارجية المتمثلة في الصراع العسكري والفكري ورغبة كل من المتصارعين في إحراز النصر على خصمه . ففصل على بن ما اشتملت عليه

هذه العبارة من معنى حرفي مطلق ومعنى
مقامي مقيد بظرف الصراع . فأما من حيث
معناها الحرفي فهي في رأيه ورأي خصومه
« كلمة حق » وأما معناها المقامي فقد « أريد
بها باطل » ولقد صاغ على عبارته هذه في
ضوء ما عن له من قرائن خارجية . وهكذا

أختلفت « إفادة » القول عن « إفادة » القرائن
الخارجية .

ندخل بعد ذلك إلى الرابطة بين الإفادة
والعلاقات البيانية ونمهد لذلك بالتخطيط
التالي :



نصل عند هذه النقطة إلى ما أوجأناه سابقاً من القول في التوارد الذي هو فرع على قرينة التضام . ولقد رأينا من قبل أن التركيب لا يمكن وصفه بأنه «عربي» إلا إذا تحقق في مفرداته أن تكون عربية بأصل الوضع وتحقق لنمطه التركيبي أن يكون ذا سبك مقبول موافق لشروط الصياغة النحوية . ومن الواضح أن النمط ينتمي إلى النحو ولكن أصل الوضع ينتمي إلى المعجم . والكلمات المعجمية طائفتان عظيمتان أولاهما طائفة الكلمات التركيبية التي لاتخضع لأصل اشتقاق ولا لصيغة صرفية وتدل على معان

وظيفية عامة (وهي الحروف والضمائر وتحوها) ولايتضح مدلولها إلا في السياق فهي غير صالحة للإفراد . والطائفة الثانية هي طائفة الكلمات المعجمية ذوات الأصل الاشتقاق والصيغة الصرفية وهي تصلح للإفراد فتدل عند الإفراد على معنى مفرد (وهي الأسماء والأوصاف والأفعال) . وهذه الطائفة الأخيرة هي التي تنسب في هذا المقال إلى «أصل الوضع» وإلى «المعنى الأصلي» أي الذي لها بأصل الوضع . ولكن هذه الكلمات قد يكون لها معاني أخرى ليست بأصل الوضع جاءت بطريق التوسع .
قارن:

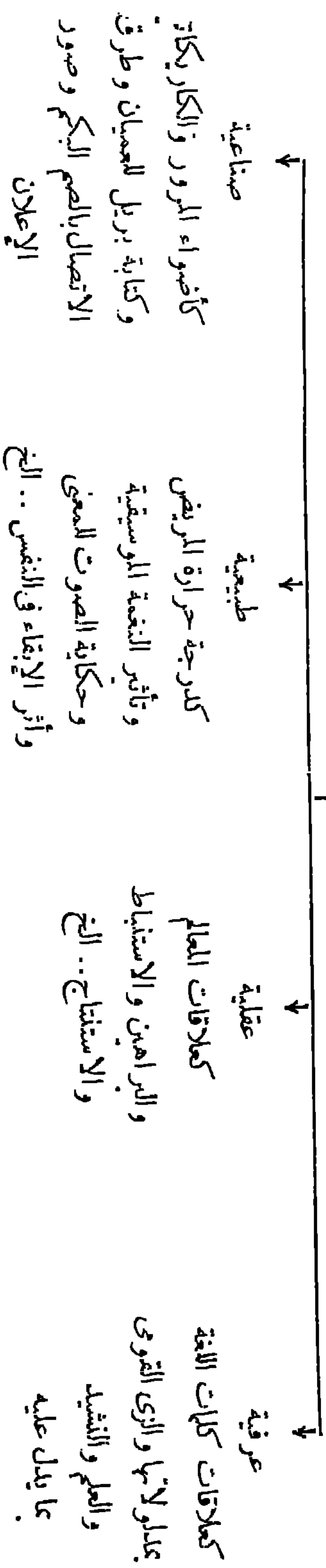
التركيب	الكلمة المقصودة	معناها
ضرب زيد عمرا	ضرب	صفع
ضرب الله مثلا	ضرب	ذكر
ضرب لضيفه خيمة	ضرب	أقام
ضرب له موعداً	ضرب	حدد
ضرب في الأرض	ضرب	سعى
ضرب ٦×٥	ضرب	حسب
ضرب أخماساً في أسداس	ضرب	ارتبك
ضرب النقود	ضرب	سك
ضرب عليهم ضريبة	ضرب	فرض
هذا ضرب من التخمين	ضرب	نوع

وليس معنى ذلك أن الضرب مشترك لفظي ، لأن هناك فارقا بين تعدد المعنى المعجمي كما وضحته الأمثلة السابقة وبين الاشتراك اللفظي . ويتضح هذا الفارق عند إفراد اللفظ . فإن نسبت إلى اللفظ المفرد معنى أصليا واحدا ونسبت غير هذا المعنى إلى تقلبات السياق فجملة المعاني في تلك الحال من قبيل تعدد المعنى المعجمي . أما إذا تبادر إلى ذهنك عند إفراد اللفظ معنيان أو أكثر في وقت معا فذلك مشترك لفظي نشأ الاشتراك فيه إما عن طول العهد بمجاز ما بحيث أصبح اللفظ لاصقا بهذا المعنى المجازي لصوقه بمعناه الأصلي ، وإما من اختلاف معاني اللفظ الواحد باختلاف القبائل ، فحين قيده علماء الرحلة إلى البادية أثبتوا له كل المعاني المختلفة دون تمييز أو تخصيص بقبيلة ما ، وهكذا عرف المتأخرون اللفظ وله أكثر من معنى وقدوه مشتركا تبعا لما رآه علماء الرحلة .

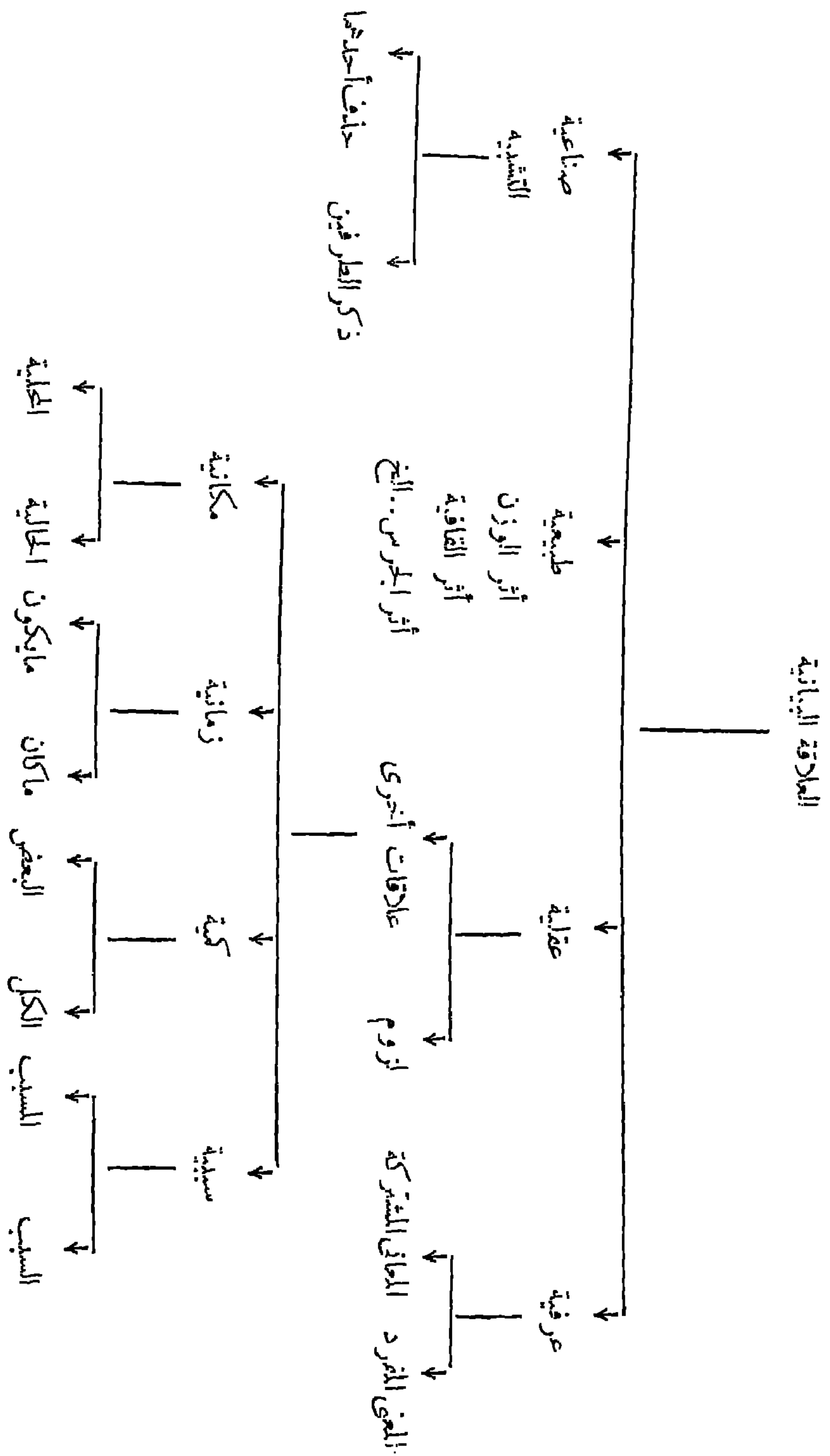
والنقطة الثانية التي تستدعي النظر هي نوع العلاقة بين الكلمة المفردة وما ينسب إليها

من معنى (وهذا هو المقصود بالعلاقات اليمانية التي في عنوان هذا المقال) . ولقد اشتغل علماء العلامات أو السمات أو كما يسمونها : « السيميولوجيا » بهذه العلاقة بين اللفظ وما ينسب إليه من معنى ، فكانت نظرتهم أوسع من النظرة اللغوية الخضة ، لأنهم نظروا في السمات أو العلاقات في جملة أيا كانت طبيعتها (عرفية أم عقلية أم طبيعية أم صناعية) وتناولوا العلاقة بين العلامة ومعناها . ويحسن أن نشير هنا إلى أن مصطلحي العلامة والسمة من المصطلحات المستعملة في التراث العربي . فكلنا يتكلم عن « العلامات » الإعرابية وابن مالك يستعمل « السمة » في قوله عن نون الرفع : « وحذفها للنصب والجزم سمة » ولعل قرب الحروف أو اتحادها في لفظي « السمة » و « السيميولوجيا » يبرر تعريب اسم هذا العلم إلى « علم السمات » و « علم الوسم » . ولقد يكون من المجدى أن نعرض تخطيطا لجمل أنواع العلاقات هكذا :

العلاقة بين السمة والموسم



وهذه الأنواع جميعا توجد بين الكلمات ومعانيها في حدود تطبيقات علم البيان كما



والنقطة الثالثة التي تستوجب النظر في هذا الصدد هي ما يسمى باسم « الحقول المعجمية » ، وقد أشرنا عند التعليق على عبارة « غضب الهواء على ضمير القمر » إلى أن كل لفظ من ألفاظ هذا التركيب قد تعلق بغير ما هو له من الألفاظ ؛ فكان ذلك إرهابا بفكرة الحقول المعجمية .

ولقد توحى عبارة البيانين في وصفهم لـ « جاز العقل بأنه » إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير من هو له « بأن المسند إليه إما أن يكون ذا علاقة من نوع معين بالفعل أو ما في معناه ، أو لا تكون له بها علاقة . ومعنى ذلك أن ألفاظ المعجم تقع في طوائف ينسجم بعضها مع بعض في نطاق التركيب أو لا ينسجم أو بعبارة أخرى هناك ما يعرف باسم « الحقول المعجمية » . ومعنى أن يكون اللفظ في حقل معجمي معين أن يتطلب مع الألفاظ المشاركة له في الحقل نفسه شروطا خاصة فيما يرد معه في التركيب من الألفاظ . فقد يتطلب الفعل في فاعله أو مفعوله شروطا خاصة من حيث المعنى كما يتطلب ذلك كل مبتدأ فيما يخبر به عنه . فإذا تحققت هذه الشروط كان الإسناد إلى من هو له أما إذا لم تتحقق فالإسناد عندئذ إلى غير من هو له . فالفعل « فهم » مثلا يتطلب فاعلا يصح منه الفهم ومفعولا صالحا لأن يستوعبه الفهم كما في (فهم التلميذ الدرس) . فإذا قلنا (فهم الحجر) أو (فهمت الريح)

أو (فهم السحاب) فقد أسندنا الفعل إلى غير من هو له . والعلاقة بين ألفاظ التركيب الأول (فهم التلميذ الدرس) علاقة « مناسبة معجمية » ، أما في الأمثلة الأخرى فالعلاقة « مفارقة معجمية » .

إذا رجعنا إلى ما سبق من تخطيط فكرة التوارد والتفريع عليها ألفينا المفارقة المعجمية تتفرع إلى فرعين سميناهما أحدهما « المفارقة المفتوحة » وسمينا الآخر « المفارقة المغلقة » . ويلزمنا الآن أن نفرق بين نوعي المفارقة انكشف عن صلة كل منهما بموضوع هذا المقال (الإفادة والعلاقات البيانية) .

لقد سبق أن أشرنا عند الكلام عن العلاقات البيانية إلى أن العلاقة بين اللفظ ومعناه الأصلي (المعجمي) علاقة عرفية . فإذا سمع المرء لفظ « كتاب » أدرك فور سماعه ما اتفق الناس على قصده بهذا اللفظ . وكذلك الأمر بالنسبة لألفاظ أخرى مثل : بيت - رجل - امرأة - أب - أم - أخ - أخت الخ ، فلا خلاف بين الناس على فهم المقصود بكل من هذه الألفاظ . ولكن هذا المعنى المعجمي صالح أن يتعدد بسبب التوسع في استعماله . فلا يمكن تحديد معناه عند تعدده إلا بواسطة التركيب الذي هو فيه ، أي بواسطة معطيات السياق ، أو كما أحب أن أسميها : « قرينة السياق » .

ولقد بدا هذا واضحاً عندما عددنا معاني الفعل «ضرب» في تراكيب مختلفة : واستنبطنا معناه في كل حالة من قرينة سياق الكلام . وهكذا يصبح السياق عوناً على الإفادة :

وهذه العلاقة العرفية تنعدم عند المفارقة المعجمية مغلقة كانت هذه المفارقة أم مفتوحة . فأما المفارقة المغلقة فتدخل فيما أطلق عليه سيوييه مصطلح «الإحالة» : وكذلك فيما يسميه تشومسكى في أيامنا هذه : non-grammaticality . وذلك لعدم انسجام بعض ألفاظ التركيب مع البعض الآخر ، كالذى نراه في عبارة : (سأزورك بالأمس) أو (فخر عليهم السقف من تحتهم) .

وبهذا النوع من المفارقة تنتفى الإفادة تماماً : من حيث لا نستطيع إجراء أى مصالحة بين ألفاظ التركيب بأى نوع من أنواع التأويل .

نصل عند هذه النقطة إلى ما أطلقنا عليه : المفارقة المعجمية المفتوحة ، لنرى كيف تتحقق الإفادة على رغم المفارقة بين ألفاظ التركيب : وإذا كانت المناسبة المعجمية تفرض التقاء المعنى الأصلي ذى العلاقة العرفية بمعنى لفظ آخر ، فإن هذا الالتقاء يمكن التعبير عنه بأن أحد اللفظين قد أسند إلى من هوله . فإذا قلنا : قرأ زيد الصحيفة ، فلا أعترض على وقوع القراءة من زيد ولا على وقوعها على ما اشتهت عليه الصحيفة ؛ لأن من شأن زيد أن يتعلم القراءة فيحلقها .

ومن شأن الصحيفة أن تشتمل على نص يقرأ . وهكذا تتحقق المناسبة المعجمية بين الألفاظ الثلاثة التى تكونت منها الجملة . فما الذى يحدث لو أردنا أن نحول هذه الجملة إلى صورة أخرى مثل : قرأ زيد أفكار عمرو ، ثم قصدنا بالأفكار ما يدور في خلد عمرو من تأمل وتدبير ؟ من الواضح عندئذ أن أفكار عمرو ليست مكتوبة فتقرأ : وإذا كان الأمر كذلك فإن بين لفظي «القراءة» و «الأفكار» مفارقة معجمية مفتوحة تستدعى التأويل . وإنما استدعت التأويل لأننا لم نجد فيها ما يدعو إلى المسارعة بالرفض بتهمة الإحالة كما فعلنا بتركيب : غضب اخواء على ضمير القمر . أما كيف يتم التأويل في هذه الحالة بالذات فذلك بأن نستبدل بالعلاقة العرفية بين «قرأ» ومعناها الذى يفهم منها على مستوى المعجم علاقة أخرى صناعية فردية غير عرفية ينشئها المتكلم ولا يفهمها السامع إلا بقرينة ترصد للدلالة على إرادتها دون غيرها . تلك هى مانعرفه باسم علاقة المشابهة . ويمكن إيضاح ذلك على النحو التالى :

شبه المتكلم مطلق التبيين بالقراءة التى هى تبيين من نوع خاص : ثم حذف المشبه (مطلق التبيين) وأقام المشبه به مقامه . ثم اشتق من القراءة «قرأ» بمعنى «تبيين» على طريقة الاستعارة التبعية وقرينة إرادة الحجاز ما يترتب على إرادة الحقيقة من مفارقة بين لفظي «قرأ» و «الأفكار» .

ولكن العلاقة البديلة ليست صناعية دائما . بل إنها تكون عقلية في بعض الأحوال كما في الكناية والحجاز المرسل . هذه العلاقة العقلية يدركها العقل بحكم تكوينه ، لأنها من قبيل البديهيات . فإذا قلنا : « فلان كثير الرماد » كان على الذهن أن يجيب على سؤال **ضمنى** وارد هو : لم كثر الرماد ؟ عندئذ يكون الجواب : لكثرة الإحراق . فيرد على الذهن سؤال آخر : ولم كثر الإحراق ؟ والجواب أنه كثر ضرورة كثرة الطبخ . فينتقل الذهن إلى سؤال غيره : ولم كثر الطبخ ؟ والجواب : لكثرة الآكلين . وأخيرا يرد سؤال يقول : ولم كثر الآكلون ؟ والجواب : لأن فلانا وسعهم بكرمه ، فهو كريم . فإذا عبرنا عن علاقة اللزوم برموز السهام هكذا (←) حصلنا على الصورة الآتية :

كثرة الرماد ← كثرة الإحراق ←
كثرة الطبخ ← كثرة الآكلين ← الكرم
ولكن المرء يفضل دائما أن يضع المسألة في صورة معادلة طرفها الأول كل حالات اللزوم بالتفصيل السابق وطرفها الثانى **(أى بعد علامة =)** هو : كثير الرماد ← كريم . وهكذا تختصر معادلة اللزوم فيقال : « كثير الرماد أى كريم » . على أن ذلك إنما هو أقوى الاحتمالين في الكناية . أما الاحتمال الآخر فهو إرادة المعنى الأصلي (القريب) فيتحول المعنى إلى نطاق الحقيقة ويخرج من مجال الكناية ، وإدراك علاقة

اللزوم لا يفتقر إلى قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي وسبب ذلك أن علاقة اللزوم عقلية والعلاقات العقلية مستغنية بنفسها عن القرائن . وإذا كان تحقق الإفادة هنا بالعقل (لا بالوضع) فقد حق لنا أن نعترض على إطلاق قول الجزولى : « المفيد بالوضع » .

وكذلك الحال بالنسبة إلى علاقات الحجاز المرسل . فهى إما غائية (سببية أو مسببية) وإما كمية (كاية أو بعضية) وإما زمانية (ماكان أو ما يكون) وإما مكانية (حالية أو محلية) . ومعنى أن هذه العلاقات عقلية أنها يمكن ردها إلى المقولات العشر المنطقية التى هى جزء من تركيب العقل . فالغائية يمكن ردها إلى مقولة « الإضافة » والكمية إلى مقولة (الكم) والزمانية إلى مقولة (الزمان) والمكانية إلى مقولة (المكان) . وهنا أيضا نعترض على عبارة : « المفيد بالوضع » .

ومع أن العلاقات العقلية تدرك دون حاجة إلى قرينة صارفة عن إرادة العلاقة العرفية (وقد مضت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عن علاقة اللزوم ، نجد العلاقات في الحجاز المرسل مدعومة على نحو ما بواسطة « المفارقة المعجمية المفتوحة » كما لو كانت هذه العلاقة صناعية . فإذا قلنا مثلا : « بنى الأمير المدينة » فليس من المقبول أن يشمر الأمير عن ساعديه في بناء المدينة (وهذه هى المفارقة بين « بنى » و « الأمير ») ولكن المتبادر إلى الذهن أن

يأمر الأمير عماله ببنائها (وهذه هي العلاقة العقلية أو علاقة السببية) . وإذا قلنا للسفن التي تعتمد على تحلية ماء البحر : « إن الناس شربوا ماء البحر » فلا يتصور من الناس أنهم استنفدوا ماء البحر (وتلك هي نقطة المفارقة) ولكنهم شربوا بعضه (وتلك هي العلاقة) . وإذا قلنا اطاب الطيب : « يادكتور » فنحن نعلم أنه غير حامل لهذا اللقب (وتلك هي المفارقة) ولكننا نأمل أن يحصل على اللقب في المستقبل (وتلك هي العلاقة) . وإذا قلناه إن القصر العيني يقدم العلاج بالخجان « فالقصر بناء من أحجار لا يقدم علاجاً (وهذه هي المفارقة) وإنما يقدمه الأطباء الذين يتخذون من القصر مقراً لعملهم (وتلك هي العلاقة) . كل هذه المفارقات المعجمية واضحة في ذهن ترفد العلاقات العقلية وتجعلها أسرع إلى الفهم ، وإن كانت العلاقات العقلية كما سبقت الإشارة ليست بحاجة إلى قرينة .

والملاحظ الاعتراف للفظ بمعنيين أحدهما قريب والآخر بعيد إنما يكون في موضعين أحدهما الكناية والآخر التورية . فإذا قلنا : فلان مبسوط الكف فذلك كناية عن كرم فلان ، أما إذا أردنا بالكف « المنع » فإن العبارة تتحول إلى تورية عن البخل . والفرق بين الحالتين :

١ - أن لفظ الكف في الكناية قصد به راحة اليد لا غير . أما مع التورية فقد تحول إلى مشترك لفظي يمكن أن يراد به راحة اليد أو المنع .

٢ - أن الكناية تقوم على نسبة البسط إلى الكف (بواسطة التركيب الإضافي) وأن التورية تقوم على لفظ « الكف » فقط مع إمكان استبدال لفظ آخر بلفظ مبسوط مثل « طويل » مثلاً .

٣ - أن الكناية يحكمها اللزوم العقلي فلا تحتاج إلى قرينة ولكن التورية يحكمها الاشتراك اللفظي ومن ثم تفتقر إلى القرينة .

نخرج مما تقدم بالحقائق الآتية :

أولاً : أن تعريف الإفادة عند النحاة ليس جامعاً ولا مانعاً لأنه يربط الإفادة بعناصر غير عناصرها الحقيقية .

ثانياً : أن الإفادة لا تعتمد على « الوضع » فقط (أي كان معنى الوضع) وإنما ترتبط بظواهر معجمية كالمناسبة والمفارقة لم ينتبه لها المتقدمون .

ثالثاً : أن الإفادة ذات درجات منها :

(أ) امتناعها بامتناع اللفظ نحو :

(على وقف الأمر زيد حلية) .

(ب) امتناعها بامتناع أصل الوضع نحو :

(حنكف الجعبور بقعاصة الكلابيص النقيفانة) .

(ج) امتناعها بسبب المفارقة المغلقة نحو :

(غضب الهواء علي ضحير القسر) .

(د) نقصها دون امتناع بسبب رداءة السبك
نحو:

وما مثله في الناس إلا مملك
أبو أمه حتى أبوه يقاربه
ويقول الشاعر :

لن ما رأيت أبا يزيد مقاتلا
أدع القتال وأترك الهيجاء
للفصل بين (لن) و (أدع) بتركيب
مصدرى ظرفي ولأن (لن ما) تسمع على
صورة (لمتا) :
رابعاً : أن الإفادة يمكن أن تتم بغير المعنى
الأصلي (الذي بأصل الوضع) للكلمات :

تمام حسان
عضو المجمع

والله ولي التوفيق .



الأثر الإسلامى فى شعر الهوسا

(الأثر القرآنى)

للككتور مصطفى حجازى

يا الأزهريّة فى مصر . وتنتشر الكتاتيب والمدارس
الإسلامية فى بلاد الهوسا انتشارا كبيرا ،
وأكثر كتّاب الهوسا وشعرائهم من خريجي
هذه المدارس ، لذلك حفظوا القرآن
وظهر أثره فى أسلوبهم وكتاباتهم .

ونلاحظ أن صور تأثير القرآن على شعر
الهوسا يتنوع تنوعا كبيرا فهو أحيانا تأثير
بالمعنى ، وفى أحيان أخرى تأثير ببعض
المفردات القرآنية الباهرة ، وفى أحيان
كثيرة يحتذى النسق القرآنى ، ويتفنن فى
هذا الإحتذاء ، وقد يكون التأثير مجرد
استلهاهم لبعض الآيات أو سور القرآن
وأفكاره .

وفى كل الأحيان يبدو التأثير العميق
بالروح الدينى العام الذى يتوهج فى شعرهم
جمالا وروعة : ويظهر تأثير النسق البلاغى
للقرآن الكريم .

ومن صور التأثير بالمفردات استعمال
بعض الكلمات العربية التى يكاد استعمالها
يكون مقصورا على القرآن مثل كلمة
« تبارك » و « الكوثر » و « الثقلان » و
« وقرن » .

القرآن كتاب الله الكريم : أنزله على
سيدنا محمد ﷺ ليكون نورا وهدى للعالمين .
به تقام الصلوات : ويتعبد بقراءته : لذلك
كان على كل مسلم ومسلمة أن يحفظ شيئا
منه .

كما ينتشر حفظ القرآن فى غرب إفريقيا
عامة ، وفى بلاد الهوسا بصفة خاصة ،
فكثير منهم يحفظونه ، ويستوى فى ذلك
من يعرف اللغة العربية ومن لا يعرفها ،
ويقوم العلماء بشرح معانى القرآن الكريم
لمن لا يعرف اللغة العربية : وقد قام الحاج أبوبكر
جومى بشرحها بلغة الهوسا وقامت رابطة
العالم الإسلامى بطبع الشرح وتوزيعه .

وينتشر حفظ القرآن بين من يتلقون
العلم فى الكتّاب . أو فيما يعرف بلغة الهوسا
« مدرسة المنزل . Makarantar Gida .
حيث يتلقى الطفل فيها القرآن الكريم ،
وما تيسر من علوم الدين ، ينتقل بعدها إلى
المدارس الإسلامية التى تعادل المعاهد

كثيرة في كل مكان
Tabaraka Sarkin sarakuna
 تبارك ملك الملوك
Ya sa ni'imomi ga damina
 جعل النعم في الفصل المطير
 ويقول في نفس القصيدة (٢)
Na gode Allah ubangiji
 أشكر الله الرب
Wanda ya ba ni gani da ji
 الذي وهبني البصر والسمع
Ya ba ni tunani aji-aji
 وهبني التفكير السليم
Tabaraka na roki agaji
 تبارك أسأله العون
ka ba ni hazzi da damina
 هبني الحظ في الفصل المطير
 ويقول صالح كونتاجورا في قصيدة له
 بعنوان «شعر شؤون الحياة» (٣)
Wakar Sha'anonin Duniya
Ji na' a ka' aho mu yi godiya
 أيها الناس هيا نشكر
Gun wanda ya mallaki duniya
 لدى من يملك الدنيا
Da kasa da ruwa da saman bakwai

Wakokin Hausa p. 4

Wakokin Hausa p. 9

Şalihi Kwantagora Kimiyya Da Fasaha p. 29,

تترد كلمة «تبارك» كثيرا في القرآن
 الكريم بمعنى تعالى وتعاظم . صفة لله سبحانه
 وتعالى .

يقول تعالى في سورة الملك «تبارك
 الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير»
 آية - ١ :

ويقول تعالى «تبارك الذي نزل الفرقان»
 على عبده ليكون للعالمين نذيرا «الفرقان - ١

ويقول «تبارك الذي جعل في السماء
 بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا»
 الفرقان - ٦١

ويقول «تبارك الذي له ملك السموات
 والأرض وما بينهما» الزخرف - ٨٥

ويستعمل شعراء الهوسا كلمة «تبارك»
 في نفس المعنى الوارد في القرآن الكريم ،
 فيقول الشاعر نائب سليمان والي في قصيدة
 له بعنوان *Wakar Damina* (١) أي
 شعر الفصل المطير ، يصف الله سبحانه
 وتعالى بهذه الصفة فيقول :

Kome yana yi mai ma'ana

كل مايفعل ذو معنى

Don hikimominsa Rabbana

لأنه ربنا ، حكمه

Masu yawa ko a koina

(١)

()

(٣)

٦٠

والأرض والماء والسموات السبع

Kome ka gani duk duniya

كل ما ترى في كل الدنيا

Ba wanda ya yo shi ka tabbata

تأكد أنه لم يخلقه

Sai Tabaraka Sarkin Gaskiya

إلا ملك الحق تبارك

وقد وردت كلمة «الكوثر» في القرآن

الكريم مرة واحدة ، وقد سميت السورة

باسمها ، وهي سورة الكوثر ، يقول

تعالى «إنا أعطيناك الكوثر : فصلى لربك

وانحر إن شئت هو الأبر» .

والكوثر نهر في الجنة آمن الله على سيدنا

محمد بتخصيصه به وبأتمه يوم القيامة .

وقد ورد اسم هذا النهر على السنة كثير

من شعراء الهوسا ، فيقول الشاعر على لسان

«مادبو» - وهو من علماء الدين - في معرض (١)

ذكر المحرومين من ورود هذا النهر يوم

القيامة :

Shi ne ya ce da maa je sha tara

هو الذي قال عن الرجال التسعة عشر

An hana musu shan Alkausara

الذين منعوهم من شرب ماء الكوثر

Maki zumunta ya je za shi sha

ناكر الأخوة ذهب ليشرب

An ce tsaya can kada ka iso nan

فقبل له قف هناك لا تقرب هنا

Maki zakkan Fidiri an ce tsaya

ناكر زكاة الفطر قبل له قف

Ba naka ne ba wurin yau dangana

لامكان لك اليوم انتظر

Da mai zagin suruki nasa kun jiya

وتسمعون لآعن حماه

Sai shi zage nesa da kausara

ودنو يطرد بعيداً عن الكوثر

وقال الله تعالى مخاطباً نساء النبي في سورة

الأحزاب يأمرهن بالإقامة في البيت وعدم

التبرج «وقرن في بيوتكن ولا تبرزن تبرج

الجاهلية الأولى» آية ٣٣

ويخاطب الشاعر الهوساوى أهل البدعة :

وهم في نظره الذين يقرأون قوله تعالى

مخاطباً النساء قائلاً «وقرن» ولا يقرضون

الحجاب على زوجاتهم بحجة عدم وجود

الحوارى الاثنى عشرين الماء له من البر

أو يحتطب له من الغابة يقول (٢) :

Sun ga aya sun ki fadi nata

يرون الآية ويرفضون قولها

Sun yi mata sun ki tsari nata

Gangar wa'azu p. 13.

Gangar wa'azu P. 6

(٢)

اللهم هبني الفصاحة كثيرة الحكمة

Kai ne Hakimo Gwani Hannanu Man-
nanu

فأنت الحكيم المبدع الخنان المنان

Baiwarka inda Kake so nan kake yinta

هبتك حيث تريد تضعها

A gare ka nan na fuke ban roki sakalanu

إليك ألقأ ولا أسأل الثقلين

Sakalanu su ma gare ka suke bida Ra-
bbu

الثقلان أيضا يطلبان الرزق لديك : رب

Duk ajizi wata rana zai yi Kaulanu

الكل عاجز ويوما ما يسألانك

In na bida a wurin Sokalanu don wata
rana

إذا طلبت من الثقلين يوما ما

Suka ce da ni babu yaya zan yi Day-
yanu ?

سيقولان لي - لا يوجد فكيف أفعل
ياديان

Tilas in roke ka don kai ba ka kasawa

لا بد أن أسألك لأنك لا تعجز

Kuma ba ka tabar da mai rokonka
Rahamanu

ولا ترد أبدا سائلك يا رحمن .

* * *

Wakokin Mu'azu Hadeja P. 35

يتزوجون المرأة ويرفضون حجابها

Wanda ya ki tsarin mata tasa

من يرفض حجاب زوجته

Da shi da sarki suke gardama

يكون هو والملك في خلاف

Ya ce wakarna ya kada kai nasa

قال وقرن ، فهز رأسه

Ba ni bawa ba na yin tsari

لا أملك العبد ، فلا أطبق الحجاب

Ba kuyanga da zata dauko ruwa

لا توجد الحارية التي تجلب الماء

Ta je ta dajita dauko minice

وتروح الغابة تجلب الحطب

ووردت كلمة «الثقلان» في القرآن

الكريم حيث يقول تعالى في سورة الرحمن

«سنفرغ لكم أيها الثقلان» آية ٣١

والمقصود بالثقلين هما الإنس والجن ،

وهي لم ترد في القرآن إلا في هذه الآية

فقط ، ويندر استعمالها في اللغة العربية ،

ومع ذلك وردت في شعر الهوسا ، حيث

يقول معاذ هطيغا في قصيدة (١) له يتحدث

فيها عن النعمة واللواط والشر :

Allah ka ba ni fasaha mai yawan hikima

(١)

وتسيطر عليهم فكرة تضحين أشعارهم
بمجموعة من التراكيب القرآنية ، ويؤكد
هذا تأثرهم العنيق بالقرآن الكريم : لا من
حيث معانيه فحسب ، ولا من حيث صورته
البلاغية ، ولكن بكل هذه الأشياء ، فهو
النسق الأسمي أمامهم الذي يضمن لشعرهم
الرفعة والانتشار والتأثير .

والتأثير والتأثر في الشعر الهوساوي بالقرآن
الكريم لا يقتصر على مجرد المعاني ، ولكن
يصل الأمر إلى احتذاء الصياغة القرآنية
وتراكيب الحمل ونسيج العبارات :

ومن صور هذا التأثير استعمال العبارات
التقصيرة التي ترد في القرآن مثل « إن شاء
الله » إذ على المسلم أن يقدم مشيئة الله قبل
كل شيء ، يقول في سورة الكهف «
ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا
إلا أن يشاء الله » آية - ٢٣ .

ويقول تعالى على لسان سيدنا إسماعيل في
سورة الصافات « قال يا أبت افعل ما تؤمر
ستجدني إن شاء الله من الصابرين » آية - ١٠٢

ونقول في سورة الفتح « لتدخلن المسجد
الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم
وهمقصرين لا تخافون » آية - ٢٧

ويقول سعد زنجور في قصيدة له بعنوان (١)
« الشمال جمهورية أم ملكية »

« Arewa Jumhuriya Ko Mulukiya » داعيا الله
أن يبق الشمال على النظام الملكي في ظل أعلام
رجال الشيخ عثمان بن فوديو :

Zaku rera fadar da na - sani

ستنطقون كلمة الندم

Da na bi jawabin Gaskiya

وباليتنا اتبعنا كلام الحق

Allah ya tsare ku fadar haka

وقاكم الله من هذا القول

Ya kiyaye Arewa gaba daya

وأن يحفظ الشمال جميعا

Tutocin shaihu Mujaddadi

أعلام الشيخ المجدد - عثمان

Dada ba su Zama jumhuriya

أبدا لن تكون جمهورية

In sha Allahu Mu tsarkake

إن شاء الله نتطهر

Bisa fatan zamu bi gaskiya

على أمل أن نتبع الحق

وترد عبارة « سبحان الله » في القرآن
الكريم كثيرا يقول تعالى في سورة يوسف
« وسبحان الله وما أنا من المشركين » آية ١٠٨

ويقول في سورة الأنبياء «فسبحان الله»
رب العرش عما يصفون « آية ٢٢ :

يقول : *Subu* .

Mun tashi mun jihar gabas ba karkace

قمنا وتوجهنا شرقا مباشرة

Subuhanahu Allahu ba shi da Kishiya

سبحانه الله لا شريك له

Bayan magarba mun iso Birnin Masar

بعد المغرب وصلنا مصر

وردت عبارة «الحمد لله» في القرآن
الكريم كثيرا ، منها قوله سبحانه وتعالى
في سورة الأعراف «وقالوا الحمد لله
الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن
هدانا الله» آية ٤٣ .

وقوله تعالى في سورة إبراهيم «الحمد لله
الذي وهب لي علي الكبير اسماعيل واسحاق
إن ربي لسميع الدعاء» آية ٣٩ .

وقوله تعالى في سورة الكهف «الحمد
لله الذي نزل على عبده الكتاب ولم يجعل
له عوجا» آية ١ :

ويقول في سورة الروم «فسبحان الله
حين تمسون وحين تصبحون» آية ١٧ :

وعلى المسلم أن يسبح الله عقب كل صلاة ،
ولذلك نجد هذه العبارات الدينية ترد كثيرا
في شعر الهوسا .

يقول نائب ^(١) سليمان والي في مطلع
قصيدة له بعنوان «تحذير للعامة»

Gargadi Don Falkawa
Subuhanalahi me za na ce

سبحان الله ماذا أقول

Zamanin nan namu ya rikici

زماننا هذا تغير

Mahankalta sun haukace

العقلاء تجننوا

Ma biya sunna sun dau fice

متبعوا السنة أتبعوا البدعة

Likitan cuta mai magani

طبيب المرض مالك الدواء

Cuta ta ka da shi zai mace

غلبه المرض وكاد يموت

ونجد هذه العبارة ترد كثيرا على لسان شعراء الهوسا يقول سعد زنجري في نهاية^(١) قصيدة له بعنوان W. kar 'yan baka

Ahamdulilahi mun i da sako

الحمد لله بلغنا الرسالة

Muna garga din dangari har da bako

أزدرنا ابن البلد والغريب

ويقول معاذ حطيجا في قصيدة^(٢) له يتحدث فيها عن بعض العادات الخلقية بالسياسة المنتشرة في بلاده :

Ahamdu lilahi waka ta yi tasiri

الحمد لله ترك الشعر تأثيرا

Faiko da karshe da sunan jalla Raha-manu

أولا وأخيرا بسم الرحمن جتل

Na roki Allahu rizkan dini waddniya

سألت الله رزق الدين والدنيا

Hatams sa'adati den mu cika da imanu

نحم السعادة نموت على الإيمان

Allah kiyaye mu sharrin masu yin sh-arri

اللهم احفظنا من شر الأشرار

Mutum da aljan da tsuntsaye da haya-wanu

إنس وجن وحيوان

ويقول صالح كونتاجورا في نهاية قصيدة له يتحدث فيها عن قدرة الله وعظمته^(٣) بعنوان « الأرض خلق الله فاقت كل شيء غرابة .

Kasa aikin Jalla ta fi kome ba da maki

Alhamdu Lillah ya Allahu

الحمد لله يا الله

ka ba mu yalwarka ya Allah

هبنا ثراءك يا الله

Ka haskaka mana ya Allah

افتح علينا يا الله

ويقول الحاج مودي سفيكن في^(٤) قصيدة له يتحدث فيها عن رحلته إلى الأماكن المقدسة ووصوله إلى مدينة كانو بعد هذه الرحلة .

Alhamdulillahi na gode Allah

الحمد لله أشكر الله

Na kuma na gode Azza wa Jalla

وأشكره عز وجل

Ya sa na yiwo Hajji ba wahala

جعلني أحج بلا تعب

Wakokin Sa'adu Zungur p. 13.

Wakokin Mu'azu Hadeja p. 39

Salihu Kwantagora p. 49

Mudi Sipikin p. 58

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

صلاة وسلام من الله
wa husnul auni lillahi

وحسن العون لله
Su tabbata gun Rasulullahi
ثبتت لرسول الله

Da Alu da sahabu don falala
والأهل والصحاب بفضل (الله)

ومن أهم أركان الإسلام « شهادة ألا
إله إلا الله » وقد وردت في القرآن الكريم
كثيراً ، يقول تعالى في سورة محمد « فأعلم
أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك » آية ١٩

ويقول تعالى في سورة الصافات في
معرض حديثه سبحانه وتعالى عن الكافرين
« إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله
يستكبرون » آية ٣٥

وتتردد هذه الشهادة في شعر الهوسا
فيقول مودى سفيكين في قصيدة له يتحدث
فيها عن رحلته (٢) لأداء فريضة الحج :

Suna ce ku tashi ku ba da farilla
يقولون قوموا أدوا الفريضة

Ku tayar da himma ku daina kasala

ايقظوا لهمة ودعوا الكسل

Suna ta tsayaw a ku jeku yi salla

يستعدون للصلاة . اذهبوا وصلوا

Ba rigima Kuma ba wata illa

بلا مشاكل ولا خطأ

Alhamdulillah sai godiya

الحمد لله لا يجب إلا الشكر

وقد ترد عبارة « الحمد لله » مسبوقة
بالباء يقول علي بن سيدى أمير « كَزَوِ »
في مطلع قصيدة (١) له بعنوان

Mu sha Falala

أي نال الفضل .

Bismil lahi na fara

بسم الله بدأت

Ga farko har zuwa kara

من البداية حتى النهاية

Bihamdillahi nai shukura

بالحمد لله اشكر

Shi yai mu rahimum ya tara

رحيم خلقنا وجمعنا

وقد ترد عبارة « الحمد لله » مسبوقة

بـ « الواو ، والباء »

يقول الشاعر في نهاية القصيدة (٢) السابقة

Tamat wabihamdillahi

ات بحمد الله

Salatu salam minallahi

Wakokin Hausa p. 10

Wakokin Hausa p. 10

Mudi Sipikin p. 45

(١)

(٢)

(٣)

Ya 'yan'awa La'ilaha illalla

يا أخوتي لا إله إلا الله

Ai Makka nan ne garin gaskiya

ها هنا مكة مدينة الحق

ويقول في قصيدة يرفئ فيها الحاج عبدالله
بايرو أمير « كانوا »: (١)

Haske ya zo aka kori jahala

جاء نور العلم — وطرد الجهل

Cikin Zamani nasa ba wata illa

في عصره انعدمت الجرائم

Mu wo zikiri La ilaha illala

نذكر لا إله إلا الله

Mu munji dadi cikin zuciya

وشعرنا بالسعادة في القلب

ويصف الله سبحانه وتعالى القرآن في
سورة الواقعة فيقول « إنه لقرآن كريم
في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » آية ٧٩

ويقول الشاعر الهوساوي (٢) أن كتاب الله

إذا أخذه الحنوب كان سببا في حدوث المجاعة
ونقص الأمطار لأنه لا يمسه إلا المطهرون

Daukan kitabi lahi da janaba

أخذ كتاب الله مع الحنابة

Shi ma yana sa ai tsananin fari

يسبب شدة القحط كذلك

Layamasu hu illa mudaharuna

لا يمسه إلا المطهرون

Ayan dalilin hanin dauka nasa

آية تدل على منع أخذه

ويحث الله المسلمين على ذكره كثيرا
فيقول تعالى في سورة الأنفال

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا
واذكروا الله لعلكم تفلحون » آية ٤٥

ويقول تعالى في سورة الأحزاب « يا أيها
الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » آية ٤١

ويقول تعالى في سورة الجمعة « فإذا
قضيت الصلاة فانكثروا في الأرض وابتغوا
من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم
تفلحون » آية ١٠

ويقول معاذ هطيغا في قصيدة له
بعنوان « بر الوالدين » (٣) Birrul walidaini

Arziki ba shi baka'u

ليس للرزق بقاء

Sai da Kauna da raja'u

إلا بالحنبة والرجاء

Don mu raya su'ada'u

لكي نحيا سعداء

Mudi Sipikin P.20

Gangar Wa'azu P. 9

Mu'azu Hadeja P. 21

(١)

(٢)

(٣)

Wala hawla wala Kunwat

ولا حول ولا قوة

Illā billāhi ba wani ba

إلا بالله لا غير

ويقول تعالى في سورة النور « الزاني
لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا
ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على
المؤمنين » آية ٣

« وفي هذا المعنى يقول الشاعر (٢) متحدثا
عن جريمة الزنا :

Aibun zina da na tsafi daidai

جريمة الزنا والسحر متساويتان

Fada wa kowa ni na gaya maka

قل للجميع ، فاني قلت لك

Mai zina an yi masa mata

لن الزاني زوج امرأة

Matsafiy ita ce mata tasa

كانت الساحرة زوجته

In an ga mace mazinaciya

إذا رويت امرأة زانية

A can a nuna matsafi ne miji nata

هناك الساحر زوجها .

Azzaniyatu lu yankihu her illa zani

الزانية لا ينكحها إلا زان

Au mushriki aya ta Alkur'ani ta fadi

أو مشرك تقول آية القرآن

* * *

Najidul haira jaza'u

نجد الخير جزاء

Na ga birrul walidzini

في بر الوالدين

Wazkurullahi Kasira

واذكروا الله كثيرا

Mai irada duk da kudura

ذا الإرادة والقدر

Batu waye da basira

لاذكاء ولا بصيرة

Batu Kaifi da dabara

لا قوة ولا حيلة

Sai da ikon Rahmani

إلا بقدره الرحمن

ويقول سبحانه وتعالى في سورة الكهف

« وإذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله

لا قوة إلا بالله » آية ٣٩

ويقول معاذ مطيع في نهاية (١) قصيدة له

يعنوان « Kuruwa » أي المومي

Tamut na kure wakata

تمت ، انهيته شعري

Na gurgadi ja'ifar mata

في تحذير النساء الحائرات

Tammam bi hamdillahi

تمت بحمد الله

summa bi fathillahi

ثم بفتح الله

summa bi aunillahi

ثم بعون الله

Litga Kunisilihi

ليس كمثل

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان (٢) مدح الله

Yabon Ubangiji

Huwa Halikud dayyanu *laisa Kamisilihi*

هو الخالق الديان ليس كمثل

Shike da iko batu mai iko da shi

هو القادر ولا يوجد من يقدر عليه

Shike da girma babu wanda ya kai shi

هو العظيم الذي لا يصل لعظمته أحد

Dukkan mutum mutakbbiri karya
shi ke

كل إنسان متكبر كاذب

Ya san da wanda ya fi shi wanda ya
yi shi

لأنه يعرف أن من خلق يفوقه

Alkibriya'u li Rabbana sifatun bihi

الكبرياء لربنا صفة به

Duba cikin Ta'alimu a same shi

ابحث في تعاليمه تجد هذا

Mu'azu Hadeja P. 10

Mu'azu Hadeja P. 23

وكان هذا التأثير يأخذ صوراً متعددة

فلم يكن مقصوراً على تضمين شعرهم آيات
كاملة من القرآن الكريم . بل كانوا
يأخذون بعض العبارات والتراكيب ويتفننون
في صياغتها في شعرهم . ومن أمثله ذلك
قوله تعالى يصف نفسه في سورة الشورى
« فاطر السموات والأرض جعل لكم من
أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً
يلدركم فيه : ليس كمثل شيء وهو السميع
البصير » . آية ١١

أخذ الشاعر الهوساوي من هذه الآية
الكريمة عبارة « ليس كمثل شيء » وأوردها
في شعره (١) يقول معاذ هطيچا في نهاية
قصيدة له بعنوان

Tutecin shaihu da waninsu

Ya haliku Dayyanu

ياخالق ياديان

Ubangiji Rahamanu

رب رحمن

Mun bidar iman

نطلب الإيمان

Fid duniya waddini

في الدنيا والدين

Bijahil abin biya

بجاه المتبع — الرسول

(١)

(٢)

Wa bihurmatit Tijani don kakanshi
وبحرمة التيجاني وجده
ونفس الشاعر^(٢) يستعمل كلمة « يمين »
مسيبقة بالفاء فيقول :

Rabbana ran auna aiki
ربنا يوم وزن العمل
Ban takardata ta kirki

اعطني كتابي الحسن
Fi yamini don Ma'aiki
في يميني لأجل الرسول
'Yan 'uwana da aboki
واجعل — أخوتي والصديق
Mu yi barci a Janani

ننام في الجنان
ويقول تعالى في سورة « الزلزلة » في
معرض حديثه عما يفعل الإنسان « فمن يعمل
مثقال ذرة خيرا يره : ومن يعمل مثقال
ذرة شرا يره » آية ٨٠٧

أخذ الشاعر من هذه السورة قوله تعالى
« فمن يعمل مثقال ذرة » وجعلها مكملة
للمعنى حيث يقول معاذ هطييجا في قصيدة
له^(٣) بعنوان « Imin Zamani » أي العلم
الحديث . . .

ويقول تعالى في سورة الحاقة في معرض
الحديث عن يوم القيامة « فأما من أوتى
كتابيه يمينه فيقول هاؤم اقرعوا كتابي » آية ١٩
ويقول تعالى في سورة الإنشقاق « فأما
من أوتى كتابه يمينه . فسوف يحاسب
حسابا يسيرا » آية ٨٠٧

أخذ الشاعر قوله « كتابه يمينه »
وصاغها في شعره وجعلها مكملة للمعنى
يقول معاذ هطييجا^(١) في قصيدة له بعنوان
مدح الله "Yabon Ubangiji"
Kowa abin da ya aikata ran lahira

كل ما فعل الإنسان يوم الآخرة
Rannan ake jimla a ba shi abin shi

في هذا اليوم يحصى ويعطى جزاءه
Wani za'a ba shi Kitabihi biyaminih

شخص سيعطى كتابه يمينه
Wannan rabon Alijanna ne a gare shi

هذا نصيبه الجنة :

Allahu ka Kaddara namu ma biyami-
inina

اللهم قدر كتابنا بيميننا

Mu'zn Hadoja P. 3
Mu'azu Hadeja P. 21
Mu'azu Hadeja P. 12

(١)

(٢)

(٣)

To am muku gargadi ko ku dauka

حسنا ، انذركم لعلكم تلتفتون

Ko ku ki Kan fadin gaskiya

أو ترفضون قول الحق

Lakin alhaku tazharu yauman

لكن الحق يظهر يوما

La malun wala duniya

لا مال ولا دنيا.

Ga mnsulmi hasatan wanda addi

للمسلم خاصة الذين الد

ni ya hana su karbar giya

ين منعهم شرب الخمر

Kome suka aikata duniya

كل ما عملوا في الدنيا

Faman ya'amal tana nan cikin

فمن يعمل وردت هنا في

Kur'ani mai fadin gaskiya

القرآن قائل الحق

Ka bata kudi ka bata mutunci

تفسد المال وتفسد الإنسانية

ويقول تعالى في سورة المائدة في معرض

وصفه للمؤمنين « يجاهدون في سبيل الله ولا

يخافون لومة لائم » آية ٤٤

يأخذ الشاعر قوله تعالى « لومة لائم »

ويجعلها مكملة لحديثه عن الخمر ومن يئمون

عنها فيقول معاذ هطيحا في القصيدة السابقة^(٢)

Mu'azu Hadeja P. 48

Mu'azu Hadeja P. 44

Ka sani duk abin da mutum ya yi

اعلم أن كل ما يفعل الإنسان

Kansa zai hau babu ruwan wani

عليه سيقع ولا شأن لأحد

In hairi' hairi zai gani

إن خيرا ، خيرا سيري

In ko sharri, sharri zai gani

وإن شرا ، شرا سيري

Fanon ya'amal miskala zar

فمن يعمل مثقال ذرّة

rati can a Izazul kun sani

ة ، تعرفون - وردت - في الزلزلة

Allah shi ne masanin abin

الله هو عالم بما

Da yake fili da na badini

يكون في الظاهر والباطن

Kullu shai'in la yahufa alai

كل شيء لا يخفى عليه

hi Alimun ko da kankani

، عالم بالأمر مهما صغر

ويأخذ نفس الشاعر من نفس السورة

قوله تعالى « فمن يعمل » فقط ويصيغها في

قصيدة له يتحدث فيها عن الخمر « شعر

الخمر^(١) wakar Giya

(١)

(٢)

Kuma sai ka bi wanda ya haife ka
ويجب أن تتبع من أنجيلك

Ka kiyaye *hududullahi* suna

واحفظ حدود الله فهي

Nan amu da nahayu suna kanka

أمر ونهى واجب عليك

* * *

ومن صور التفنن في استخدام كلمات
القرآن الكريم ، أنهم يأخذون بعض الكلمات
ويضعونها في أوائل أبياتهم أو في سياقها ،
فتبدوا متناسقة مع سياق القصيدة ، ولكن
لو قرأت الكلمات الأولى من القصيدة
لأعطتلك آية كاملة وهكذا .

وعلى الرغم من أن هذا التأثير لا يعطى للقصيدة
قيمة فنية أو جمالية . إلا أنه يدل على مدى
التفنن والتأثر بالنسق البلاغي للقرآن الكريم .
فمثلا قوله تعالى في سورة الأعراف « وإذا
قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم
ترحمون » آية ٢٠٤

يذكر الشاعر كلمة « فاستمعوا » في
صدر البيت ويشرح معناها ثم يذكر قوله
تعالى « وأنصتوا » في صدر البيت الثاني
ويشرح معناها يقول الشاعر في
"Gangar waazu" "يحث المسلمين على الاستماع
والإنصات حين الجلوس في المسجد والسير
خلف الجنازة ، وقراءة (٢) القرآن .

Allah ka tsaro musulmi ga anna

اللهم احفظ المسلم من نشره

shuwar banza ta karbar giya

شرب الخمر الكاذبة

Ba shanta ba ko mu tara wurin

لا نشرها ولا نجتمع في مكان

Hira da mutum mashayin giya

شمر مع شارب الخمر

Mu ba mu kula da laumata la

ولانهم بلومة لا

imu , mai zargi mashayin giya

ثم ، ملعون شارب الخمر

وردت عبارة « حدود الله » في القرآن
الكريم كثيرا . منها قوله تعالى في سورة
البقرة « تلك حدود الله فلا تقربوها » آية ١٨٧
ويقول تعالى في نفس السورة « تلك حدود
الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك
هم الظالمون » آية ٢٢٩

يأخذ معاذ هطيچا عبارة « حدود الله »
ويستعملها في معناها الوارد في القرآن
فيقول في قصيدة له بعنوان « الحقيقة لا تغير
شعرها » (١)

"Gaskiya Ba ta Saka Gashi"

Bin Allah shine babban bi

اتباع الله هو أعظم اتباع

In hairi, hairi zaka gani

إن خيرا : خيرا سترى

in sharri, sharri zai bi ka

إن شرّا . شرّ سيبتبعك

Wa adi 'ullaha fadar Allah

وأطيعوا الله قول الله

Kuma girmama wanda ya girme ka

واحترم من يحترمك

Ka girmama Allah da Ma'aiki

وعظم الله والرسول

Da iyaye duk da sarakinka

والوالدين جميعا والروءساء

Wa'udul amri minkum duba

وأولى الأمر منكم . انظر

Ka kiyaye fadar Mahaliccinka

واحفظ قول خالقك

ويقول تعالى في سورة آل عمران « الذين

قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم

فاخشوهم . فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا

الله ونعم الوكيل » آية ١٧٣

ويقول تعالى في سورة الأنفال « وإن

تولوا فاعلموا أن الله مولاكم : نعم المولى

ونعم النصير » آية ٤٠

ويقول في فاتحة الكتاب « إياك نعبد وإياك

Fitinu da za'a yi malam ya ce mana

قال لنا العالم عن الفتن التي ستحدث

Sai malamen sunna ba su saura ba

حيث يخفى علماء السنة

Allah ta'ala mun roke ka

اللهم تعالى نسألك

Kada ka kai mu wadannan kwanuka

ألا ترينا هذه الأيام

Fastami'u kun ji Aya ta fadi

فاستمعوا سمعتم الآية تقول

Wansutu ka kawaita wuri uku

وانصتوا في ثلاث أماكن

Cikin masallaci da juna'izai

في المسجد وخلف الجنائز

Wurin Karatu ba a zantuka

وحيث قراءة — القرآن — لا يتكلم

ويقول تعالى في سورة « النساء » أطيعوا

الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » آية ٥٩

وفي هذا المعنى يقول معاذ هطيحنا في

قصيدة له بعنوان الحقيقة لا تغير شعرها

Gaskiya Ba ta sake Gashi (١)

Abin da ka shuka don ka sani

لتعلم أنه ما تزرع

Shi ne ka tsirowa gonarka

هو ما تزرعه في مزرعتك

Ni'imam nasiru ، bisa kan taimakon jama'a

نعم النصير : على مساعدة الناس

Iyaka na'abudu ، bauta wadda ba shirku

إياك نعبد ، عبودية بلا شرك

Iyaka kuma nasta'imu ، a kan gudun bidi'a

وإياك نستعين : على هجر البدعة

* * *

ويتحول التأثير القرآني إلى مجرد استلزام :

فالشاعر سعد زنجور تسبح قصيدته في جو

آية من سورة آل عمران ، فيتناول قوله

تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من

تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ،

وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل

شيء قدير ، تولج الليل في النهار

وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من

الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من

تشاء يغير حساب » آية ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧

يتناول سعد زنجور معاني هذه الآيات

وينظمها شعراً في قصيدة له بعنوان

«Arewa jumburiya ko Mulukiya» (٢)

أي الشمال جمهورية أم ملكية :

Ya malaki dukan talikai

يامالكا كل الخلائق

Na kwari da tudu da samaniya

في الوادي والجبل والسموات

نستعين » ويقول سعد زنجور في قصيدة (١) له

يتحدث فيها عن البدعة : ويحث الناس

على تركها .

To dan'wa sai ka jure kuma ka dau
hakuri

حسنا ، يا أخي يجب أن تتحمل وتصبر

Bisa gargadin jama'ammu su daina yin
bidi'a

على إنذار الناس ليتركوا البدعة

Dukan masibar da ta auka wa addini

كل مصيبة تحدث للمدين

Tushenta ko yi da kakannin mutun bidi'a

أصلها عمل الأجداد . أهل البدعة

Duba ga nassi ka zam koyi da manzanni

انظر للنص تتعلم من الرسل

A kan jidali da al'adu na 'yan bidi'a

المجادلة والرد على عادات أهل البدعة

Fa'in tawallau idan suka soma baudiwa

فإن تولوا : إذا بدأوا الإنحراف

Suka juya baya ga ma'anar kamilar da'a

وأعطوا ظهورهم لمعاني كامل الطاعة

Su je da niyyarsu mu dai hasbunal lahu

فليذهبوا بنيتهم ونحن حسبنا الله

Wani'ima ، madalla mai tanyon dukan
jama'a

ونعيم ، الحمد لله معين كل الناس

Ni'imal wakilu ، mu dogara gunsa ba
csoro

نعم الوكيل ، نعتمد عليه بلا خوف

Shi ka rayawar mamaci duka

يحيى الأموات جميعا

Shi ke kashe mai rai dāya

وهو وحده يميت الحي

وهكذا يتناول الشاعر قوله تعالى «مالك الملك» ويشرح ملك الله وما فيه من واد وجبل وسموات وإنس وجن وحيران في البر والبحر ، ويذكر أن الله وحده صاحب هذا الملك ، وهو وحده يبسط سلطانه على الجميع ، ثم يذكر قدرة الله الواردة في الآيات فهدى الذي يهب من يشاء كل ما يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ليندوق ، مرارة الحياة الدنيا ، ويعز من يشاء وينزل من يشاء فيجعل له يذوق الصعاب ، ويخرج الليل من النهار ويخرج نور الصبح ، ويحيى الأموات جميعا ، وهو وحده يميت الحي .

ويقول تعالى في سورة الإخلاص

« قل هو الله أحد : الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »

وفي هذا المعنى يقول معاذ عطيجا في

قصيدة له بعنوان « مدح الله »^(١)

‘ yabon ubangiji’

Can suratul Ihilasi ga ayarsa nan

في سورة الإخلاص ، ها آياته

Da mutum aljan da mala'ika

من إنس وجن وملاك

Dabbar sarari da ta maliya

وحیوان البر وحيوان البحر

Mulki ike daula duka

الملك والقدرة والسلطة كلها (لك)

Na ga sarki Allah shi dāya

أرى الله الملك ، هو الواحد

Shi yake ba wanda ya sa duka

هو الذي يهب من يشاء جميعا

Ya sarauta a lardin duniya

فيولى الملك في الحياة الدنيا

Shi yake karba ta ga taliki

وهو الذي ينزعه من الخلق

Don ya dāndana wahalar duniya

ليندوق مرارة الحياة الدنيا

Shi yake girmama wanda ya so duka

هو الذي يعز من يشاء جميعا

Shi ka sanya wadānsu su sha wuya

ويجعل البعض يذوق الصعاب

Shi ka cusa dare a cikin wuni

يخرج الليل من النهار

Kuma ya zaro hasken safiya

ويخرج نور الصبح — من الليل

Shi ya yi kowamnu sarki daya

هو خالقنا جميعا ، ملك واحد

Shi Jalla ba shi da wa ko kane

هو جلّ : لا أخ كبير ولا صغير له

Shi bai da dangi batun gaskiya

هو ليس له قريب ، قول حق

shi shi kadai yake Allah Gwani

هو هو وحده : الله المبدع

* * *

وبعد فلعن القارئ قد تبين أن تأثير القرآن الكريم كان غالبا على هذا الشعر : وأنه أخذ هذه الصور التي أشرنا إليها في البداية ، فهو متأثر بالكلمات . والمعاني واحتذاء للتراكيب القرآنية والنسق البلاغي لكتاب الله .

ولا أريد أن أغفل أن الحافظ الأول لهذا التأثير هو عمق الروح الديني في نفوس هؤلاء الشعراء المسلمين .

مصطفى حجازى السيد حجازى

استاذ لغة الهوسا وآدابها
بمعهد البحوث والدراسات الاريقية

Shi wahidul kaharu ba na biyunshi

هو الواحد القهار ، لاثنان له

Sarkin da ba shi wakili ba shi Mukaddashi

الملك الذى لا وكيل له ولا مساعد

Ba ya bidar wani taimako a gare shi

لا يطلب أية مساعدة له

Ba ya tuwo balle ya nemi na cefane

لا يطلب الثريد - ولا مكوناته .

وفي مجال معاني سورة الإخلاص كذلك

يقول محمد العربي عمر في قصيدة له بعنوان^(١)

“Batun Gaskiya”

Ku san Jalla Allahu shi ne Gwani

تعرفون الله جلّ هو المبدع

Da babu kama tasa sarki daya

ولا شبيه له ، ملك واحد

Bai haifi kowa ba Allah Gwani

لم يلد ، الله المبدع

Mu duka bayinsa ne shi daya

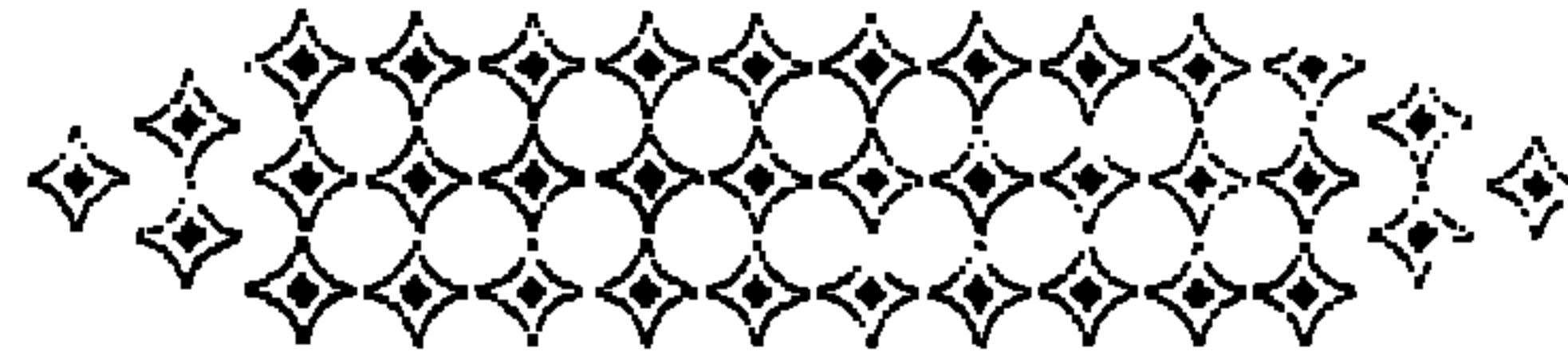
كلنا عبده ، هو واحد

Shi Rabbana ba a haife shi ba

هو ربنا لم يولد

مصادر البحث :

1. Gangar wa'azu N.N.P.C. 1970.
2. Kimiyya Da Fasaha na Salihu Kwantagora, N.N.P.C. 1972.
3. Tsofaffin wakoki Da Sababbin Wakoki, Na. Alhaji Mu'li Siyaka N.N.P.C., 1971.
4. Wakokin Hausa, N.N.P.C., 1972.
5. Wakokin Mu'azu Hadeja N.N.P.C, 1972.
6. Wakokin Sa'adu Zungur, N.N.P.C., 1971.
7. Wakoki Don yara, Na Muhammadu Balarabe Umar, Hudu F.C. Huduhudu Publishers, Kano, 1979.



استكمال عبد الرحمن الأوسط لأسس الحضارة الأندلسية للدكتور شوقي ضيف

- ١ -

وانخذوا فيها مستعمرات لهم في مالقة وقادش
واستقبلت بعدهم بنحو خمسة قرون الحضارة
اليونانية على أيدي اليونانيين الذين غزوها
وأسسوا فيها مدينة برشلونة وهم الذين سموها
إيبيريا، ونشبت بينهم وبين الفينيقيين حروب
استعان فيها الآخرون بأبناء عمومتهم القرطاجنيين
فمضروهم ، واستقبلت إيبيريا حضارتهم ،
وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط
باسم مدينتهم في إفريقية واشتعلت الحرب
بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان ، وانتصر
الآخرون في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد ،
وتنهب الرومان حينئذ إلى ما في إيبيريا من ثروة
عظيمة ، فنزلوها بجيوشهم وضموها إلى
ممتلكاتهم ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ،
ومن رحل إليها حين سمع بخيراتها من بلدهم
لغتهم اللاتينية ، وحين اعتنقوا المسيحية

تختلف الأمم القديمة في الدور الذي أدته :
للحضارة الإنسانية فيها أم لها دور ممتاز مثل
الأمم اليونانية والرومانية اللتين أثرتا أثراً
واسعاً في الحضارة الأوروبية الحديثة ، ومنها
أم تجدد لها هذا الدور مع ما اختلف عليها
أو صادفها من أحداث وخطوب مثل الأمة
المصرية أم الحضارات القديمة ، ومنها أم
كان دورها محدوداً مثل الأمم البسيطة ،
والآشورية اللتين إنتهى دورهما مع إنتهاء
تاريخهما القديم .

ولم يكن للأمة الإيبيرية دور حضارى في
الأزمنة القديمة إذ ظلت حقبة متصلة أمة عادية
تستقبل الحضارات المختلفة دون أن تصطنع
لنفسها حضارة متميزة ، وكانت أول حضارة
استقبلتها الحضارة الفينيقية على أيدي الفينيقيين
الذين غزوها في القرن العاشر قبل الميلاد .

(•) ألقى في الجلسة التاسعة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٧ من مارس (آذار)

سنة ١٩٨٩ م .

نشروها بها وهم الذين سموها باسم إسبانيا الذي لا يزال باقياً إلى اليوم . وشاركت إسبانيا بعض المشاركة في حياة روما السياسية والأدبية عن طريق من نشأوا فيها - أو ولدوا بها - لأسر إيطالية ثم رحلوا عنها إلى روما الأم كى ينالوا بها شيئاً من المجد أو الشهرة ، ومعروف ما بلغته الخطابة السياسية والقضائية في روما من ازدهار ، وتشاركها إسبانيا في هذا النشاط الخطابي باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذي نشأ في قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها الخطابة وسنيكا الابن الذي ولد بقرطبة في العام الرابع قبل الميلاد ، وجيء به إلى روما وتعلم بها الخطابة ، على أبيه والفلسفة على بعض من كان بها من معلميها ، وأصبح فليسوفاً رواقياً ومعلماً كبيراً للخطابة وعلمها التمييز نيرون . وقد أفنى الابن والأب جميعاً شخصيتيهما في الأدب اللاتيني الروماني بحيث لا نجد عندهما ولا عند من بارح إسبانيا إلى روما مثلهما مشاركاً في أدبها شيئاً يتميزون به كأدباء إسبانيين فما أنتجوه من الأدب لم ينتجوه في إسبانيا إنما أنتجوه في روما وهو بذلك أدب لاتيني روماني خالص ، وإسبانيا بذلك لا يزال شأنها في العصر الروماني مثل شأنها في العصور السابقة لا تضيف إلى الحضارة العالمية شيئاً إسبانياً لهميزات أو طوابع خاصة وبمجرد أن نصل إلى القرن الخامس الميلادي تغزوها القبائل الجرمانية المتبربرة التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ، ويحكمها منهم

القوط إلى أن استولى عليها منهم العرب ولم يكن للقوط حضارة ولا ثقافة وقد قضوا على ما كان بها من حضارة وثقافة رومانيتين ، وأخذت إسبانيا تعيش طوال حكمهم حياة شطط قاسية يرهقهم فيها ظلم لا حد له ، وضرائب فادحة .

- ٢ -

وواضح أنه حين فتح العرب إسبانيا لم يكن بها تراث حضاري لا مادي ولا معنوي وكان أول من التقوا بهم في إسبانيا قبائل الواندالين الجرمانية الذين كانوا ينزلون في قسمها الجنوبي وكان يسمى نسبة لهم « فاندالوسيا » فسماه العرب الأندلس ، وأطلقوا هذا الاسم على إيبيريا جميعها ومضوا يفتحون البقية من شمالها وهم يدعون بالقرآن الكريم دوى النحل ودخلت كثرة من أهل إسبانيا في الإسلام ، لما وجدوا فيه من التعاليم السمحة الإنسانية المثالية وسرعان ما تعالت في أركان إسبانيا وما أسس فيها من المساجد كلمة « الله أكبر » وكان ذلك أول أساس رسخ في تلك البلاد النائية للحضارة العربية الأندلسية بكل ما يحمل من قيم روحية واجتماعية وعقلية وإنسانية قيم تسمو بالمسلم روحياً وسلوكياً وعقلياً مسوية بين أفراد المسلمين في جميع الحقوق والواجبات دون أي نزعة عنصرية مع الاعتراف إلى أقصى حد بكرامة المسلم وحرية .

واقترن بهذا الأساس في الحضارة الأندلسية منذ أول الأمر أساس تعلم العربية لإقامة شعائر الدين واستيعاب تعاليمه وتمثلها كما جاءت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف : وأخذت كثرة من الفاتحين تقوم على تعليمها وتحفيظ القرآن في المساجد والكتاتيب بحيث لا تغلو إذا قلنا : إنه لم تبق بلد فتحها العرب في القرن الأول الهجري إلا فتحتها معهم لغتهم . إذ تحل في آلسنة البلاد المفتوحة محل لغاتها الأصلية سواء في ذلك من أسلموا من أهلها ومن ظفروا على دينهم . أما الأولون فلكي يفقهوا الدين الحنيف فقهاً حسناً . وأما الثانون فلما راعهم من بيانها وأدائها البارع للمعاني . مما جعلهم مثل من أسلموا منهم بشرضونها على أنفسهم ويحاولون إتقان النطق بها وتعلمها حتى يستطيعوا أن يؤدوا بها عواطفهم وأفكارهم أداء لا يخفى من بعض البروعة .

وأخذته ترسخ مع أساس العربية والإسلام لتقاليد العربية وخاصة مع حكم عبد الرحمن الداخل مؤسس لدولة الأموية في سنة ١٣٨ للهجرة إذ حاول أن يصوغ بقرطبة دولة كدولة أبائه الأمويين بدمشق . وبنى لنفسه قصرًا كقصر أبيه هشام المسمى بالرصافة في صحراء تدمر ويسميه بنفس اسمه بنساده خارج قرطبة ويعني بالفقهاء واللغويين والأدباء . ويسير سيرته ابنه هشام وحفيده الحكم ،

فيتمسكان بالتقاليد العربية ، وكما حقق عبد الرحمن الداخل للأندلس وحدتها السياسية حقق لها هشام والحكم وحدتها المذهبية في الفقه الإسلامي إذ عملاً على أن يكون المرجع فيه إلى مذهب مالك فقيه الخجاز المشهور وتوثقت هذه الوحدة المذهبية في عهد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم منذ تولى الإمارة سنة ٢٠٦ إلى نهاية حكمه سنة ٢٣٨ إذ كان لا يتولى القضاء في أيامه إلا فقهاء المذهب المالكي ممن يختارهم مستشاره يحيى الليثي إمام المذهب في قرطبة والناس سراع إلى ما يحقق مآربهم ويبلغون به أغراضهم فانتشر المذهب في جميع أرجاء الأندلس وبلدانها وظل مزدهراً بها طوال عصورها إلى عصر الموحدين في القرن السادس الهجري وبمجرد انتهائه عاد إلى المذهب هناك نشاطه وازدهاره ويجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن الأوسط الذي امتد حكمه إلى أكثر من ثلاثين عاماً أول من فخم السلطنة بالأندلس وكساها أبهة الجلالة بما شيد من القصور الباذخة وأكمل من أسس الحضارة الأندلسية المادية والمعنوية ، وقد استحوالت قصوره قصوراً بغدادية بما ملأها به من الطنافس والتحف وأدوات الزينة والرياش المشرقية ، وكان قد تسامع به التجار في أنحاء البلاد العربية وبالأخص في بغداد فجلبوا إليه ذخائر منها بديعة أو اتفق أن ولي عقب انتهاب النفائس التي كانت بقصور الرشيد عند خلع

ابنه الأمين فجاءه التجار منها بكثير من التحف والطرف ، من ذلك عقد شهير من الجواهر الكريمة للسيدة زبيدة زوج الرشيد وقد أهدها لزوجها المحبوبة طروب ، وجاراه وزراؤه ، وأعيان قرطبة في اتخاذ نفيس الرياش والأثاث والتحف البديعة مما دفعه إلى إقامة مصانع في عاصمته لإنتاج الأقمشة والمنسوجات الفاخرة المشبهة لما كان يصنع ببغداد مما جعلها أختاً غربية لها وطبعها بطوابعها العربية ، أو بعبارة أدق بطوابع حضارتها المادية ، وسرى هذه الطوابع تزداد اكتمالا عما قليل .

— ٣ —

وكان من حسن طالع عبد الرحمن الأوسط أن وفد عليه في أول حكمه مغن مبدع من تلاميذ إسحق الموصلي أشهر المغنيين ببغداد هو زرياب على بن نافع المولود سنة ١٧٢ للهجرة واحتفل به احتفالا عظيماً ، وأغدق عليه مالا كثيراً وأقطع ضيعة وافرة الغلة ومنحه داراً واسعة ، ووفر له كل ما يمكن من معيشة كريمة طوال حكمه وكان زرياب شخصاً حضارياً على شاكله عبد الرحمن الأوسط ، وتميز عنه بأنه جاء إلى قرطبة لا يحمل إليها تلاحين الغناء ببغداد فحسب ، بل أيضاً يحمل إليها حضارتها المادية وسرعان ما أخذ يفرض هذه الحضارة على المجتمع القرطبي في المسكن والملبس والمأكل ، أما في المسكن فأخذ القرطبيين بالتأنيق في ريش منازلهم

وأثاثها وأرائكها ووسائدھا وطنافسها وكل ما يزينها من الطرفة البديعة حتى غدا كثير من المنازل والقصور بقرطبة لا يقل عن - قصور بغداد ومنازلها فخامة وأناقة ، وأما من حيث اللبس فعلم القرطبيين أن فصل الشتاء فصل الثياب الصوفية والفراء ، وأن الصيف والربيع جميعاً موسم الثياب الحريرية والقطنية والكتانية ، ولا بأس من ارتداء الملابس المبطنة الملونة في الخريف ، وأخذهم بتقصير الثياب وتضييق الأكمام وتقصير الرجال لشعرهم في جانبي الرأس وكيفية إرساله وراء أذانهم وفرقهم له فرقتين بحيث لا تهطل نخصلاته فوق جباههم ، واستن للنساء بالمثل آداباً في زينهن وثيابهن وعلمنهن كيف يصففن شعرهن وكيف يرسلنه على جباههن وبجوار أذانهن ، وتفنن للنساء والرجال في العطور فننمهم من العطور الثمينة كالعنبر والمسك والطيب وحبهم جميعاً في عطور الأزهار الخفيفة ، وأما في الأكل فعلم القرطبيين أن يتناولوه على الموائد وأن يستخدموا فيه الملاعق والسكاكين ، وعلمنهم أن يبدأوا فيه بالحساء ، ثم تقدم اللحوم وألوان الطعام بشيء من الترتيب ، ويختمون بالحلوى ، وما قد يكون من الأشرية وحبب إليهم أن يستخدموا في الطعام كثوس الزجاج وأكوابه بدلا من الأكواب والكثوس الذهبية والفضية كما يحب إليهم أن تكون مفارش المائدة

من الحجاد الرفيق بدلا من المفارش الكتانية .
وقد حبيب إليهم أطعمة بغداد من الخضر
بأنواعها بدلا من الأطعمة البدائية مثل الثريد
كما علمهم الطهي البغدادي من كل نوع وكل
لون وما يضاف إلى الأطعمة من الأفاوية ومن
التوابل المختلفة .

وكل هذه الجوانب من حضارة بغداد
والمشرق المادية رسخت في قرطبة وحاکتها
فيه المدن والبلدان هناك بحيث أصبحت سذناً
أندلسية عامة . ولا ريب في أن عبد الرحمن
الأوسط كان له الفضل الأول في رسوخها
بتشجيعه لزرياب وخصه على أن يبلغ بها
الغاية . ودفع الناس من حوله — من حاشيته
وغيرهم — ليصدعوا لكل ما نصحهم به في
رياشهم وملايسهم وهياتهم ومطاعمهم ومشاربهم
وبذلك تغير المجتمع الأندلسي تغيراً حضارياً
مشرقياً واسعاً . وكان زرياب مغنياً موهوباً ،
وقد تمثل كل ما ارتقى إليه الغناء العربي في
بغداد على يد أستاذه إسحق الموصلي : كما
مر بنا من إيقاعات وتلاحين بديعة ، وأخذ
يضيف إليها تلاحين وإيقاعات جديدة .
واشتهر بإضافته إلى العود وترّاً خامساً ، وأنه
اخترع للود مضرّباً من قوادم النسر ، وليس
ذلك كل ما نفذ إليه . فقد جعل للغناء بالأندلس
تقاليد تميز بها إذ يبدأ المغنى بالنشيد بأى نقر
ويخرج منه إن البسيط ويختتم بالحركات ،
والأهازيج . وأخذ عبد الرحمن الأوسط
يشجعه بكل ما استطاع من صور التشجيع

وأثنائاً له ومهداً وموسيقياً لتعليم فتيان قرطبة
وفتياتها وجواربها الغناء والموسيقى : وعلم
زرياب فيه أولاده من البنين والبنات وبعض
جوارى الأمير والجوارى القرطبات ويقول
التيفاشي في كتاب له لا يزال مخطوطاً :
« أخبرني أبو الحسن علي بن سعيد (الغرناطي
صاحب كتاب المغرب المشهور) أن أهل
الأندلس في القديم كان غناؤهم إما بطريقة
النصارى وإما بطريقة حداة العرب ، ولم يكن
عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثلت
الدولة الأموية في مدة عبد الرحمن الأوسط
فوفد عليه الإمام المقدم في هذا الشأن على
ابن نافع الملقب بزرياب غلام إسحق الموصلي
فجاء بمالم تعهده الأسماع » وابن سعيد بقوله :
لأنه لم يكن معروفاً في الأندلس قبل زرياب
سوى الحداة العربي البسيط وغناء النصارى
يقصد ترانيمهم الكنسية ، ويقول : إنه لم يكن
لها قانون عندهم فقد كانت — مثل الحداة
العربي — ترانيم أولية : أما زرياب فقد كان
لغناؤه وموسيقاه قانون مضبوط بنسب زمنية
مقدرة ، وبعبارة أوضح برقم (نوت)
موسيقية ، على نحو ما نقرأ في مجلدات الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني من رقم الغناء العربي
وموسيقاه وهي رقم تعد بالآلاف في تلك
المجلدات الخمسة والعشرين إذ يذكر مع كل
أغنية رقمها الموسيقي وظلت الأندلس بعد
زرياب تحظى بنهضة غنائية واسعة كان لها

تأثير بعيد في إسبانيا وما وراء إسبانيا من الأمم الأوروبية إذ لم يكونوا يعرفون جميعاً سوى ترانيم الكنائس. إلى أن تلقنت إسبانيا المسيحية الموسيقى وألحانها ورقمها (نوتها) الموسيقية عن طريق الأندلس وموسيقاه فهو الذي أعدها لتنفيذ إلى موسيقاها الحديثة كما تنفذ من ورائها أوربا إلى نظرياتها الموسيقية ، ولا يزال كثير من الآلات الموسيقية عند الإسبان إلى اليوم يحمل أسماء العربية مثل العود ، والقيثارة والرباب . ولا يزال تأثير زرياب والموسيقى الأندلسية واضحاً في الموسيقى المغربية وما يتصل بها من الغناء إلى اليوم .

* * *

وكان الأمير عبد الرحمن أديباً شاعراً ، ورعى الأدباء والشعراء في زمنه وأصبح ذلك تقليداً لكل من ولي الأندلس من أسرته ، وأخذ الشعراء منذ زمنه يكثر في الأندلس ، ومن شعرائه الذين كانوا يكثر من مدحهم ويكثر هو من نواحم وعطائهم مؤمن بن سعيد وعبد الله بن الشمر وسعيد بن الفرّج المعروف بالرشاش ويحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، وأرسله في سفارتين إلى امبراطور بيزنطة ، وملك الدانمرك أداهما على خير وجه. ومدحته الشاعرة حسانة بنت عاصم بن زيد وأجزل لها في العطاء ، وصنّيعه معها يعد رمزاً لإعزازه للمرأة ، وكان واسع الأفق ، فرّغ من شأن المرأة في عصره ، وأتاح لزوجها طروب ،

وغيرها من زوجاته منزلة رفيعة في أوساط اجتماع القرطبي مما جعل الشعراء يتنافسون في وصف جمالهن وثقافتهن وتقواهن وصلاحيهن وكان يأخذ بناته — كما كان يأخذ أبناءه بالثقافة والتعليم ، وأخذ أهل قرطبة يحاكونه في تعليم بناته مما جعل الأندلس تمتاز على مر العصور بكثيرات من العالمات بالحديث النبوي والقراءات وبفنون العلوم من طب وغير طب ، وتكثر الشاعرات حتى ليترجم المعري في كتابه « نفح الطيب » لأكثر من عشرين شاعرة . وكان عبد الرحمن الأوسط قد وسع الجامع الكبير بمقدار سبعة صفوف من الأعمدة ، وما زال أبنائه يعنون به وبأعمدته وزخارفه حتى غدا إحدى عجائب المعار الأندلسية إلى اليوم وبني عبد الرحمن جامع أشبيلية الكبير واندفعت زوجاته يدين مساجد في أحياء قرطبة ، واشتهرت ابنته البهاء بتقواها وبنائها مسجداً بحى الرصافة ، وكانت تكتب المصاحف بيدها وتحبسها على مسجدها وغيره من المساجد القرطبية .

ومما يؤكد سعة أفق عبد الرحمن وعقليته ما حكاه ابن حيان في المقتبس عنه من أنه كان قد اعتاد الركوب مع كرىماته وبعض نسائه للنزهة ، واستمر هذا التقليد من خروج المرأة مع الأمراء في مواكب بعده ، إذ يروى ابن حزم في رسالة نشرتها تسمى نطق العروس أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)

وعلى نحو مارعا الأمير عبد الرحمن الأوسط
المرأة الأندلسية ورعا الشعراء كان يرعى
العلماء من كل صنف وعلى كل لون ، وكان
يفرد لهم أياماً للقائه ويدخل كل صاحب
علم في علمه ، ولم تقف رعايته للعلوم عند
العلوم الدينية واللغوية فقد أخذ يطمح لأن
تتقن قرطبة والأندلس علوم الأوائل ، وهي
علوم الكيمياء والفيزياء والرياضة والهندسة
والطب والمنطق والفلسفة وكانت بغداد قد
سبقت إلى ترجمتها عن اليونان والفرس
والهند فرأى أن يرسل عباس ابن ناصح أحد
قضاة إلى بغداد لالتباس كتب هذه العلوم
وأكبر الظن أنه أرسله على رأس بعثة لجلب
هذه الكتب أو بعبارة أدق لجلب ما يمكن
منها فأتاه بكتاب السند هند وغيره من كتب
تلك العلوم ومعروف أن كتاب السند هند
مترجم عن الهندية وأنه في علم الحساب والهيئة
وكان جلب هذه الكتب إلى قرطبة فاتحة عصر
علمي جديد ، عصر يعني كل العناية بعلوم
الأوائل من طب وغير طب وبمجرد أن
وصلت هذه الكتب إلى الأندلس أكتب عليها
الأندلسيون وأخذوا يمثّلونها ، وظهر بينهم
في عهد عبد الرحمن الأوسط نفسه من
استوعبوا هذا العلم أو ذاك من مثل عباس
ابن فرناس ، الذي حذق على التنجيم والكيمياء
سريعاً ، ووصف بأنه حكيم الأندلس ،

أركب في أحد مواكبه امرأة مهيبة تسمى
رئيس سافرة وعلى رأسها قلنسوة وقد تقلدت
سيناً جعلها على بغل خلفه بينه وبين أولاده
وشتى بموكبه قرطبة من باب العطارين والربض
الغربي كله إلى مدينته التي بناها في الشمال
الغربي من قرطبة عند أقدام جبل العروس
التي سماها باسم الزهراء . ولعل في هذا كله
ما يدل بوضوح على المكانة التي أنزل فيها
عبد الرحمن الأوسط المرأة الأندلسية مما جعلها
تتمتع في الأجيال التالية بغير قليل من الحرية
والكرامة ومحاولة التثقف ثقافة واسعة حتى
لتصبح منهن فيما بعد سيدات صواحب ندوات
أدبية يختلف إليها غير أديب نابه على نحو ما هو
معروف عن ولادة ابنة الخليفة المستكفي ،
وكانت شاعرة مطبوعة ، وكذلك عن السيدة
حواء زوجة سير بن أبي بكر حاكم إشبيلية
للمرابطين وكانت أديبة شاعرة سريعة البديهة
مع جلاله ووقار ، وكان يختلف إلى ندوتها
شعراء إشبيلية وكتّابها ومفكروها فتستمع إلى
أحاديثهم وتجاوزهم حواراً بديعاً والمرأة
الأندلسية تسبق في ذلك المرأة الباريسية
وصالوناتهما في القرنين السابع عشر والثامن
عشر بغير قليل من القرون وكل ذلك يعد
من بعض الوجوه من أفضال عبد الرحمن
الأوسط وما أتاح للمرأة الأندلسية في عصره
من منزلة كريمة .

* * *

واشتهر بكثرة ابتكاراته وكان موسيقياً يحسن الضرب على العود وصنع الألحان ، ويقول ابن سعيد إنه أول من اكتشف في معماره بالأندلس صناعة الزجاج والبلور من الحجارة ومن أهم مبتكراته العجيبة ما اشتهر عنه من محاولته الطيران في السماء واحتال لذلك حيلة غريبة إذ صنع لنفسه كساء من ريش اتخذ من شقق حرير أبيض ، وجعل له جناحين كبيرين وضع فيهما ذراعيه وقذف بنفسه في الهواء من قمة تل عال واستطاع الطيران والسباحة في الهواء ووقع على مسافة غير قليلة ومع أن المحاولة أخفقت فإنها تعد أول إرخاص مبشر للإنسان بتحقيق فكرة الطيران والتحليق في الهواء . وإنما ذكرت عباس بن فرناس لأخذ منه رمزاً لإكباب الأندلسيين على علوم الأوائل وما بثت في نفوسهم من رغبة قوية في الابتكار وقد اشتهر بأنه فيلسوف الأندلس لما حاز لنفسه من دراسة الفلسفة واشتهر بكثرة تجاربه في الكيمياء واستطاع النفوذ إلى طريقة صناعة الزجاج - كما ذكرت - من الحجارة ، وهي طريقة لم يسبقه إليها أحد . وأيضاً فإنه ابتكر آلة عرفت باسم المنقانة تعتمد على الظل في معرفة الوقت :

ومما يصور بوضوح ما كان لإدخال عبد الرحمن الأوسط علوم الأوائل في الأندلس من أثر بعيد حتى أصبح العلم بها مثل العلم بالعلوم الدينية واللغوية من الأسس الأساسية للحضارة الأندلسية إنه لا يمر على الأندلس نحو قرن حتى ينشأ فيها الصيدلي

ابن جليل ويؤلف كتاباً في « طبقات الأطباء والحكماء » ، من قديم الأزمنة حتى زمنه وقد عرض لليونان فيهم خمس طبقات والأطباء المشرق العربي طبقتين ترجم فيهما ستة عشر طبيباً ولأطباء المغرب طبقة ترجم فيها لثلاثة منهم . وجعل للأندلس الطبقة التاسعة وترجم فيها لاثنتين وعشرين طبيباً ويقول - « لم يكن الأندلسيين بصرياً صناعة الطب في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم » وكأنما حدثت سريعاً نهضة كبيرة للطب هيأت لظهور العدد الوافر من الأطباء ولم تلبث تلك النهضة أن توجب بالمرءى في القرن الرابع الهجري الذي يعد أبا للطب العالمي الحديث . وبالمثل الفلسفة لم يكن للأندلسيين - كما يقول جليجل بصرياً في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط وقد مضوا يعكفون على كتبها حتى ظهر منهم عالميون مثل ابن رشد الذي ظلت الجامعات الأوروبية تدرس كتبه وفكره طويلاً مع اعترافهم بتأثيره العميق في الفكر الأوروبي الحديث . ويكب الأندلسيون على كل علوم الأوائل منذ وصلهم بها الأمير عبد الرحمن الأوسط ونبغ هناك على مر الزمن - علماء عالميون أثروا العلم العالمي ثراء عظيماً مثل الزرقالي الرياضي والبطرودي الفلكي وابن البيطار الصيدلي وكل ذلك بفضل عبد الرحمن الأوسط وعمله على إدخاله علوم الأوائل في الأندلس إذ دفع الناس هناك لاستيعابها وقد مضوا لا يكتفون باستيعابها بل ظلوا يضيفون إليها إضافات باهرة .

ومن أروع ما أرساه عبد الرحمن الأوسط في الحضارة الأندلسية تنظيمه لأداة الحكم تنظيمًا حضاريًا مبتكرًا لا في الأندلس وحدها بل أيضًا في العالم العربي جميعه إذ أنشأ هناك مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء الحديثة في مصر وغيرها من الأمم العربية والغربية وسمى رئيس الوزراء باسم الحاجب ، واتخذ لهذا المجلس في قصره بيتًا ، رتب اختلاف الوزراء إليه في كل يوم كما رتب لكل وزير اختصاصات بشأن من شئون الحكم ، فهذا وزير للأمن أو كما نقول الآن وزير للداخلية ، وذاك وزير للحرب وسمى الوزير القائد ، أو للمال وسمى الخازن ، وهكذا ، ولكل وزير مسئولياته وديوانته وكتابه. والوزراء يجتمعون يوميًا في بيت الوزارة ، ويجلسون فيه على أرائك أو مقاعد وثيرة ويعرض عليهم الحاجب الشئون المهمة ، ويظنون يتشاورون في كل شأن أو مسألة من مسائل الحكم ، وحين يجتمع رأيهم في أمر يعرضه الحاجب على عبد الرحمن الأوسط وإن لم يقره أعاده الحاجب إلى مجلس الوزراء للنظر فيه مرة ثانية وكان عبد الرحمن الأوسط يستدعيهم أحيانًا جماعة للمشاورة في بعض المسائل فيرأس الجلسة أو المجلس ويتفاوضون فيه ويتخذ المجلس القرار ، وأحيانًا كان الأمير يستدعي

الوزراء فرادى — للمراجعة في بعض الأمور أو ليعرض على الوزير شكوى في اختصاصه من بعض أفراد الرعية ، وكان ما تتفق عليه الوزارة ويقره الأمير يرسل إلى ديوانه ليصاغ الصياغة الديوانية الملائمة ويختتم بخاتم الأمير أو خاتم الدولة ويصبح نافذًا من حين صدوره ويذكر ابن حيان في المقتبس أن عدد الوزراء في عهد عبد الرحمن الأوسط بلغ ستة عشر وزيرًا ، وهم حاشيته ورجاله الأقربون ، وكان رئيسهم وهو الحاجب يُعَدّ الشخص الثاني في الدولة بعد الأمير ، وبنوه ابن حيان بوزراء عبد الرحمن فيقول له : « اجتمع له من سراة الوزراء أولى الحلول والنهي والمعرفة والذكاء عصابة لم يجتمع مثلها عند أحد من حكام بني أمية في الأندلس قبله ولا بعده ، وفي ذلك ما يدل بوضوح على مقدرة عبد الرحمن الأوسط في اصطفاء الرجال الذين يعاونونه في شئون الدولة والحكم ، واستمر بعده هذا النظام الوزاري الذي أحكمه في الأندلس .

ولم يكتف عبد الرحمن الأوسط في ضبط الحكم وإدارته بهذا النظام الوزاري وحده فقد وزع المصالح العامة على هيآت سميت خططًا وأسند كل خطة لموظف كبير كانت تلى وظيفته وظيفته الوزير ، وأحيانًا كانت تسند الخطة إلى بعض الوزراء ومن أهم الخطط خطة الخيل ويعنى صاحبها بخيل الحرب وما يلزمها من تنمية لها وأعلامها ،

وبجانبها خطة الأعنة ويعني صاحبها بإعداد كل ما يلزم الجيش من أدوات الحرب ، ومن أنخطط المهمة أيضا خطة المظالم وينظر صاحبها في الشكاوى المقدمة ضد امراء البيت الأموي ورجال الدولة ، كما ينظر في تطبيق الأحكام على طبقات الأمة دون أى تفرقة بين طبقة وطبقة ، وبجانب ذلك خطة البحر وينظر صاحبها في كل ما يتصل بشئون الأسطول في البحر المتوسط ، وخطة القيادة ويشرف صاحبها على قيادة الجيوش وكثيراً ما يكون هو نفسه القائد ، وكانت قيادة الجيوش من أهم ما يناط بالحاجب إذ كانت تتوفر فيه غالباً خصال كثيرة منها أن يكون عسكرياً بارعاً وسياسياً محنكاً . وكانت للشرطة خطة مهمة إذ يقوم صاحبها على أمن قرطبة ، وكانت بجانبها خطة الحسبة إذ يشرف صاحبها على الأسواق فيراقب الأسعار ويفصل في الخصومات التي تنشأ بين التجار والناس من مشترين وغيرهم . ومن الخطط المهمة خطة الكتابة وهي تقابل ديوان الإنشاء في المشرق وقد يرقى صاحبها إلى مرتبة الوزراء .

ومن أهم الخطط الكبرى خطة القضاء ، وقد اختار لها عبد الرحمن الأوسط هيئة استشارية من كبار الشيوخ كان يرجع إليها قضاة قرطبة والعواصم بالأندلس كلما أنهمم

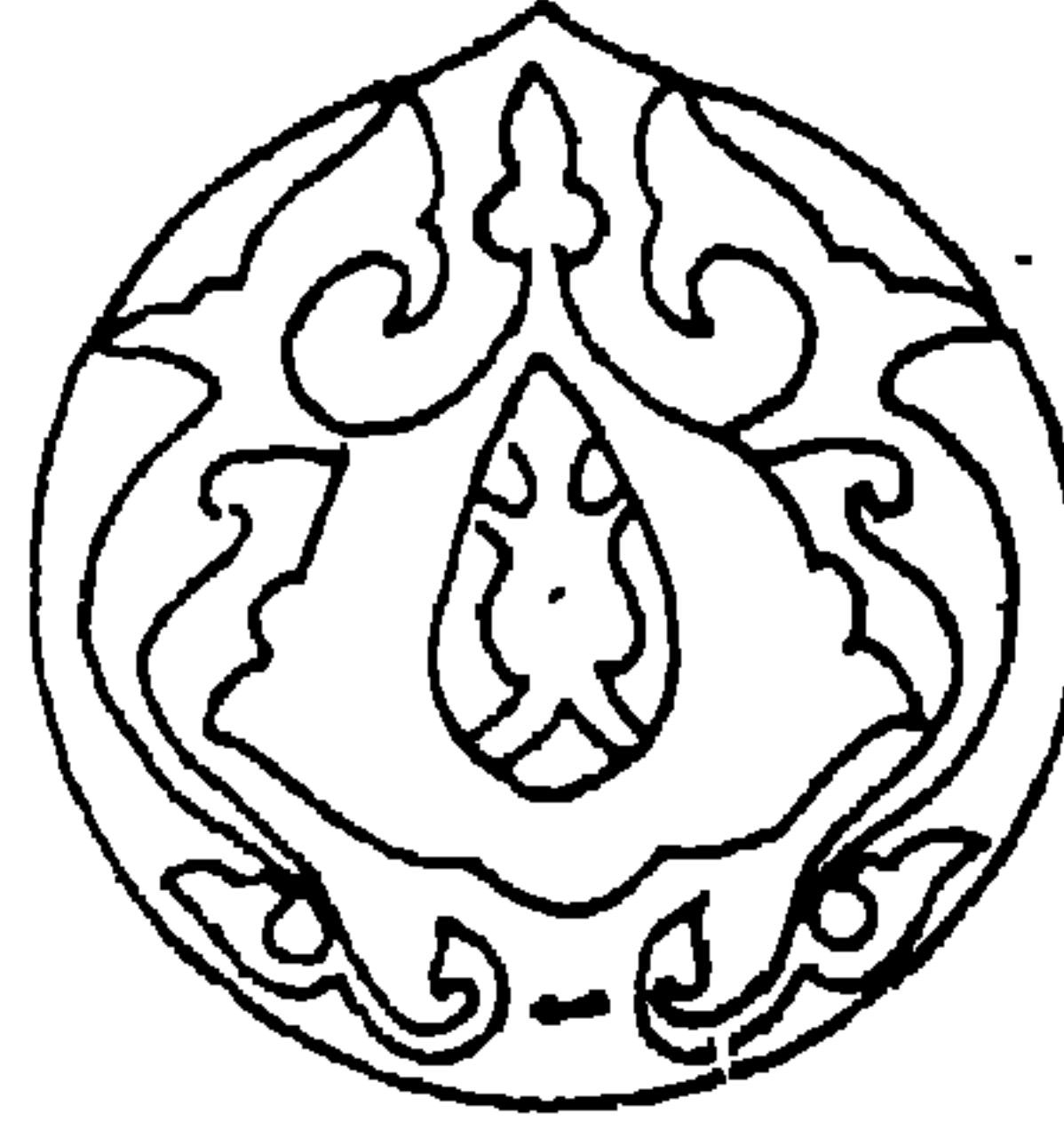
عليهم الحكم في قضية كما كان يرجع إليها الأمير عبد الرحمن في شئون الدولة وكان يرأسها في أوائل أيامه عيسى بن دينار الذي فقه المذهب المالكي على عبد الرحمن ابن القاسم بالفسطاط في مصر ، ويقول ابن حيان « كان لا يعد في الأندلس أفقه منه في نظرائه » ويقول ابن وضاح هو الذي علم أهل الأندلس الفقه وتوفي سنة ٢١٢ فخلفه على رئاسة الهيئة الاستشارية يحيى الليثي إلى أن توفي سنة ٢٣٤ وكان يقوم من القضاة والأمير عبد الرحمن الأوسط مقام وزير العدل الخالي وعلت منزلته عنده ، وصار يلتزم من إعظامه - كما يقول ابن حيان وتكرمه وتنفيذ ما يراه ما يلتزمه الولد لأبيه فلا يستقضى قاضياً ولا يعقد عقداً ولا يمضى أمراً في الحكم إلا عن رأيه وبعد مشورته ، وبه انتشر مذهب مالك في الأندلس . كما ذكرنا في صدر هذا الحديث .

وواضح من كل ما عرضت عن عهد عبد الرحمن الأوسط أنه كان عهد استكمال رائع لأسس الحضارة الأندلسية المادية والمعنوية بطوابعها العربية المشرقية مع إرسائه فيها أسس نهضة عظيمة في الغناء والموسيقى وعلوم الأوائل من فلسفة وغير فلسفة ، وهي نهضة

أمور حكمه إلى هيئة استشارية من علماء الدين
وشيوخه ، وبذلك كله جعل عبد الرحمن
الأوسط الحكم الأموي في الأندلس
— منذ عصره — حكماً شورياً إلى حد كبير .

شوقي ضيف
الأمين العام للمجمع

أفاد منها الغرب — فيما بعد — أئمة فائدة ،
وقد رأينا كيف نظم عبد الرحمن الأوسط
وأداة الحكم في الأندلس تنظيماً حضارياً مثل
المنظمات الحديثة ، فأتخذ مجلس وزراء
يصرف شؤون الدولة العامة ، كما اتخذ
خططاً تدبر مصالح الرعية وكان يرجع في



ازدواجية اللغة وضرورة رسم سياسة لغوية للدكتور البدر اوى زهران

ازدواجية اللغة مشكلة تؤرق بالمشغلين باللغة والقائمين على أمرها وفي الصفحات القادمة نشخص المشكلة ونقدم ما نراه من علاج ملائم لها ...

ونقصد بازدواجية اللغة ازدواجية العامية والفصحى في السنة الناطقين بالعربية .. فان ذلك على حد عبارة للجاحظ « يجعل كل واحدة منهما تدخل الضيم على آخرها » (١) ، والضم الذي يصيب الفصحى من جراء العاميات هو المشكلة التي تؤرق البال .. فلا يقف خطر العاميات على مجتمع عربي واحد .. وإنما يشمل الناطقين بالعربية في أنحاء الوطن العربي كله ... حيث تشبث كل جماعة بما لديها من لهجة وما عندها من لغة (٢).

أما مصطلح (Diaglossia) الذي يطلق على ازدواجية اللغة في الدرس اللغوي الحديث فقد عرفه فرجسون (C. A. Fargson) بأنه الحالة اللغوية الموجودة في جماعة المتكلمين

التي يستخدم فيها بعض المتحدثين نوعين أو أكثر من اللغة الواحدة في ظروف مختلفة » (٣) :

والمشكلة بالنسبة للدرس اللغوي الحديث أمرها هام ، فإن اتساع رقعة الناطقين باللغة الواحدة واختلاف طبقاتهم وثقافتهم ودخول أجانب على اللغة من غير أبنائها ينطقون بها فاقم الأمر وجعل المتخصصين يبحثون عن علاج ويرسمون السياسات ويضعون الخطط للوصول إلى لغة نموذجية مشتركة .. ترفع عن العاميات وتحافظ على سمات عامة في السنة جميع الناطقين .. هي سمات اللغة الأدبية أو سمات الفصحى عندنا .

والمقصود بالسياسة اللغوية لمجتمع ما [في الدرس اللغوي المحدث] : وضع خطط تقرها الجهات السياسية العليا إزاء مستوى لغوي معين بهدف الوصول إليه .. مع الاستفادة في ذلك من الطرق

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) يطلق في التراث مصطلح لغة ويراد به اللهجة ... واللغات معناها اللهجات .. وهكذا .. إلى آخره .

(٣) انظر بحث مس آن رويال . كتاب دراسات في اللهجات من ص ١٧١ إلى ص ١٨١

والإمكانيات العلمية الحديثة بناء على دراسات يقوم بها اللغويون المتخصصون في مجالات متعددة يكون عمادها في الدرجة الأولى التجارب الميدانية في المجالات اللغوية ما بين نظرية وتطبيقية يجريها الباحثون في العلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية من خلال الواقع اللغوي :

وذلك لأن المشكلة في واقعها عميقة تفرضها طبيعة اللغة وتحتها الملابسات القائمة بين اللغة والمستعملين لها .

وهي نتاج تفاعل اللغة داخل طبقات المجتمع : فاللغة مطلب ضروري للمجتمع يتحقق بها التعاون بين أبنائه ويتم عن طريقها الاتصال الروحي والترابط والوجداني ، وهي

أساس إحساس الناس بانتماء بعضهم إلى بعض واشتراكهم فيما يؤلف بينهم من روابط ثقافية ووجدانية وتاريخية وسياسية .

ومن خلال دورها في تنظيم التفاهم والتعبير عن الخواطر بين أفراد الجماعة الواحدة تتم وحدة الآمال والأمانى ، ويتحقق الانسجام وتتحدد الأعراف وتنهض الجماعة .

وعلى الرغم من أن أعراف الجماعة تنشأ باللغة وتنحدد بها إلا أنها بعد ذلك تحكم اللغة فطبيعة اللغة لها أثرها على المجتمع والمجتمع له أثره على اللغة .. والظواهر الاجتماعية تحكم حياة اللغة . وإن انشعاب لغة المحادثة في المجتمع الواحد إلى لهجات ضرورة اجتماعية تنشأ بسبب اختلاف طبقات المجتمع ، وبسبب

(١) انظر بحث مس آن رويال السابق . وعنوانه علم اللغة والسياسة اللغوية في مصر ١٧١ / ١٨٣ في كتاب دراسات في اللهجات العربية المؤتمر العلمي عن دور الجامعات في دراسة اللهجات والعمل على تقريبها من الفصحى .

واقراً دور الإذاعة كوسيلة إعلام في تقريب اللهجات إلى الفصحى بحث من إعداد الدكتور يوسف مرزوق من ص ١٣١ / ١٤٤

واقراً الأطلس اللغوي المصري وملاحظات حول لهجات مصر بقلم مانفرد فويدش وبيزبنشتيت من ص ١٤٩ / ١٧٠

واقراً بحث كلام الناس بقلم الأستاذ الكبير محمد شوقي أمين عضو مجمع اللغة العربية من ص ٩ / ١٦

واقراً ثلاث مصطلحات في علم اللهجات بقلم د . أحمد علم الدين الجندي من ص ٥٩ / ٧٥

تفاوت الثقافة ومناخى التفكير .. واختلاف حياة الناس داخل أسرهم وتنوع طبقتهم وما يترتب على ذلك من عادات وتقاليد تنشأ عنها أنماط من السلوك تستجيب لها اللغة .

وقد دلت بحوث اللغويين على أن هناك تيارين متعارضين يوجهان لغات البشر في اتجاهين متباينين :

اتجاه نحو التفتيت اللغوى .

وآخر نحو التوحيد (١) .

ومن المعلوم أن عوامل التفتيت قد تكون هي عوامل التوحيد .. فالتفتيت بالنسبة للغة الأم يتبعه توحيد تحت مظلة اللغة المستقلة .

وعلى سبيل التمثيل فإن بعض العوامل الاجتماعية التى قد يكون مبعثها نزعات سياسية تتعلق باستقلال بعض المناطق التى تحتلها لغة الجماعة الكبرى تجعل سكان هذه المناطق

ينزعون نحو استقلال لغوى يعضده ما بينهم من روابط وعلاقات ، فهو نزعة توحيد لمنطقة ما لكنه تفتيت للسلطان المركزى للغة الجماعة الكبرى . تنمو بسببه ظواهر لغوية تباعد بين اللغة المستقلة ولغة الجماعة الكبرى .

ومثلها عوامل الجنس أو العرق التى تتمثل فيما بين سكان بعض المناطق من وحدة فى الجنس أو اللون أو التكوين الطبعى ... مما يتردد صداه نزعة تفريق فى اللغة من جانب .. وتوحيد لبعض المناطق من جانب آخر تنمو فى ضوءه ظواهر لغوية تباعد بين اللغة المستقلة واللغة الكبرى .

وكذلك العوامل الجغرافية التى قد تتمثل فى الفواصل الطبيعية من بحار أو صحار واسعة أو جبال أو وديان أو سهول أو غيرها من حواجز طبيعية يعززها الموقع .. أو فروق

(١) اقرأ : كتاب : اللغة ج فنادريس : تعريب أ : عبد الحميد الدواخلى ؛ ود . محمد القصاص مكتبة الأنجلو المصرية من ص ٣٧٠
واقراء : مبحثنا اللغة النورذجية فى كتاب دراسات فى اللهجات العربية - كلية الآداب بسوهاج ١٩٨١ م من ص ١٠٩ .

واقراء : اللغة وعلوم المجتمع : د . عبد الرأجحي ١٩٧٧ م .
واللغة والمجتمع . د . على عبد الواحد وفى دار نهضة مصر للطبع والنشر .
واللغة بين الفرد والمجتمع أوتويسبرسن ترجمة د . عبد الرحمن أيوب مكتبة الأنجلو المصرية .
وكتاب قضايا لغوية : د . كمال بشر .
واللغة فى المجتمع تأليف م . م لويس . ترجمة د . تمام حسان مراجعة د . إبراهيم أنيس : عيسى البابي الحلبي ١٩٥٩ م .
واللغة والمجتمع رأى ومنهج . د . محمود السمران ط ٢ - ١٩٦٣ م دار المعارف .

البيئة أو الجو .. أو غيره مما يتنوى في ضوئه
عوامل التفتيت اللغوى فتتقوى لغة الجماعة
المستقلة .. وتضعف لغة الجماعة الكبرى .

والعوامل النفسية والأدبية على غرار ما سبق
فإنها قد تأخذ شكل ظاهرة تتمثل فيما بين
سكان بعض المناطق في النظم ومناحي التفكير
والوجدان والعادات والتقاليد ودرجة الثقافة ..
وغير ذلك مما قد تنشأ بسببه فروق تباعد بين
لغة الجماعة المستقلة ولغة الجماعة الكبرى .

وهكذا تتمكن عوامل متعددة من أن
تعمق مسارها في استقلال عن اللغة المشتركة
.. وتتعزز العزلة اللغوية للمهجرات المستقلة
وتعينها مظلة الاستقلال السياسى أو التمييز
الاقتصادى : أو غير ذلك .. ثم تأخذ كل لهجة

في العمل على تنمية كيائها والاحتفاظ
بشخصيتها .. ومقاومة ما يحاول أن ينال منها .

ثم تسلك منهجاً في التطور والاستقلال :
ومن ثم تتسع مسافة الخلاف بين اللهجات ..

وبين الناطقين بها .. وقد تصير كل واحدة
غير مفهومة لأبناء اللهجات الأخرى .

ونتيجة لطبيعة كل إقليم وعادات وصفات
الناطقين فيه .. تأخذ كل لهجة في التفرع
داخل نفسها إلى لهجات وينشأ عن الانقسام
انقسام .. وهكذا :

ومما أثبتته بحوث اللغويين أن الخلافات
المتفرعة بين اللهجات تأخذ اتجاهين أساسيين :
أحدهما : يتعلق بالجانب الصوتى .
والآخر : يتعلق بالجانب الدلالى .

ومعناه أن عناصر الخلاف تشمل الشكل
والمضمون معاً .

وهذا ما حدث للغة العربية في عصرنا
هذا الذى نعيشه :

وحدث للغة العربية من قبل فى عصور
التاريخ المختلفة .. غير أن عوامل مضاده
كانت تذبعت من وجدان هذه الأمة فتدكى
في تيار التوحيد اللغوى القوة وتعيد للفصحى
مكانتها .. ويتقبل أبناء كل جماعة لغوية ما
يصدر عن الفصحى من نماذج فى طواعية ..
ويتخلون عما يتصل باللهجاتهم عن اقتناع
مبعثه كتاب الله الكريم ولغته^(١) .

(١) سوف نحاول الاستناد من عوامل التوحيد اللغوى فى تاريخ اللغة العربية ونحن بصدد رسم
السياسة اللغوية .

اقرأ عوامل انتصار اللغة العربية فى عصر الحروب الصليبية فى كتابنا : فى علم اللغة التاريخى دراسة
تطبيقية على عربية العصور الوسطى ط دار المعارف ١٩٨١ والطبعة الثالثة ١٩٨٨

غير أن ما حدث في عصرنا هذا واكبته
ملايسات لم يحدث لها نظير من قبل : حيث
تعرضت العربية لغزوات الاستعمار الأوربي
التي تروج للغتها وثقافتها وفق تخطيط مدروس
مستفيدة مما خافته عصور الجحود . .

**ولذا فان تيار ازدواجية اللغة يقوى في
ظل اعتبارين :**

**اعتبار التيسار اللهجي وما يصاحبه من
تفرق لغوي .**

**واعتماد تيار الثقافة الوافدة وما يصاحبه
من ترسيخ قيم مخطط لها على الرغم مما
تحمله من مبادئ متناقضة لما ترسخه
الثقافة الاسلامية وتحمله اللغة العربية .**

فإن ما تحمله اللغات الوافدة وثقافتها
من تقدم علمي ومعارف حضارية تتلاشى
أمامه التقييم .

وانعكس ذلك كله واضحاً في ضعف

مستوى اللغة العربية حتى بين طبقات مثقفي
الأمة . . فإن المثقفين في أنحاء الوطن العربي
لا يملكون زمام التحدث بالفصحى دون
أخطاء ، بل هم لا يملكون زمام التحدث
بالعربية الميسرة دون أخطاء .

ذلك شأن المثقفين . . أما العامة فلا سبيل
لهم إلا لهجاتهم المحلية .

وتنضح هذه الحقيقة في الإذاعة المرئية
والمسموعة : . فأكثر المحادثات التي يبدأ
فيها اللقاء متميزاً بلغة مثقفة من حيث حسن
صياغة التعابير وجدية الأفكار والمحافظة على
سمات الفصحى ولكننا ما نلبث أن نجدهم
ينزلون إلى شكل ما من أشكال العامية أو صورة
من صورها : ثم نبحث فنجدهم يسرون
على أساس أو سنن نحو عامي (١) .

فسلطان اللهجات المحلية له السيطرة على
الناطقين بالفصحى حتى المتخصصين منهم :
وهذا من الناحية العلمية له مبرراته من
وجهة نظر الدرس اللغوي الحديث (٢) فان

(١) هناك دراسات لغة إذاعات القاهرة قام بها ر.س. هاريل وبين سماتها العامة وقد سجلت مس آن
روبال هذه الحقيقة. اقرأ بحث : علم اللغة والسياسة اللغوية في مصر كتاب دراسات في اللهجات العربية
السابق من ص ١٧٧ ومن المعلوم أن للعاميات نظمها المختلفة الخاصة بها وكذلك أنحاءها التي تسير على
أنظمة دقيقة مخالفة للفصحى .

(٢) اقرأ روبرت لادو في كتابه : اللغة عبر الثقافات .

R. Lado Linguistics Across Cultures

وانظر كتابنا في علم اللغة التتقالي . نشر دارالمعارف

واقرأ س - بيت كورد . في كتابه : تقديم لعلم اللغة التطبيقي .

S. Pit Corder introducing Applied Linguistics.

العادات اللغوية المخزونة تخرج بطريقة لا أهمية على غير إرادة من صاحبها .

يتضح ذلك فيما يتصل بالجانب الصوتي مما هو خاص بمخارج الحروف وخصائص نطقها من حيث الشدة والرخاوة .. والترقيق والتفخيم .. والجهر والهمس .. وغيره . وما يتصل بتشكيل الأصوات داخل الكلمات والحمل مما ينشأ عنه خلاف في الصيغ والأبذية تحت تأثير النظام المقطعي الذي تختطه كل لهجة لنفسها في ظل خصائص نطق تتصل بنظام التراكيب من حيث مواضع الارتكاز والنبر وطرق التنغيم داخل سلسلة الكلام مما ينتج عنه خصائص تباعد بين كل لهجة وأختها وبين الفصحى ولهجاتها .

ويتضح كذلك فيما يتعلق بالدلالة وجانب متن اللغة ومفرداتها حيث تختلف دلالة بعض المفردات أو دلالة بعض العبارات والحمل بسبب ما تتقبله بعض اللهجات من مفردات تضيفها إلى معجمها سواء عن طريق الاقتراض أو النحت أو القياس الإبداعي أو غيره .

أو عن طريق تطوير بعض الجوانب الدلالية لبعض المفردات أو غير ذلك من وسائل الإثراء اللغوي مما يؤثر على المعجم المستخدم لكن لهجة تأثيراً يباعد بين الفصحى وبينها . أضف إلى ذلك ما ينشأ عن التطور اللغوي بقوانينه وعلاء من امتداد ينزع نحو الحوشمة ويباعد بين الفصحى ولهجاتها .

لهذا وغيره يسرى الشعور القوي بين المهتمين إزاء ضعف مستوى اللغة العربية العام . فنحن أمام ظاهرة يجب أن تعالج في ضوء التقدم العلمي وفي ضوء إمكانيات العصر ولا يكون ذلك إلا بناء على :

تخطيط دقيق منبثق عن سياسة لغوية مدفها الوصول إلى لغة نموذجية تقرب اللهجات في الوطن العربي من الفصحى لغة القرآن الكريم .

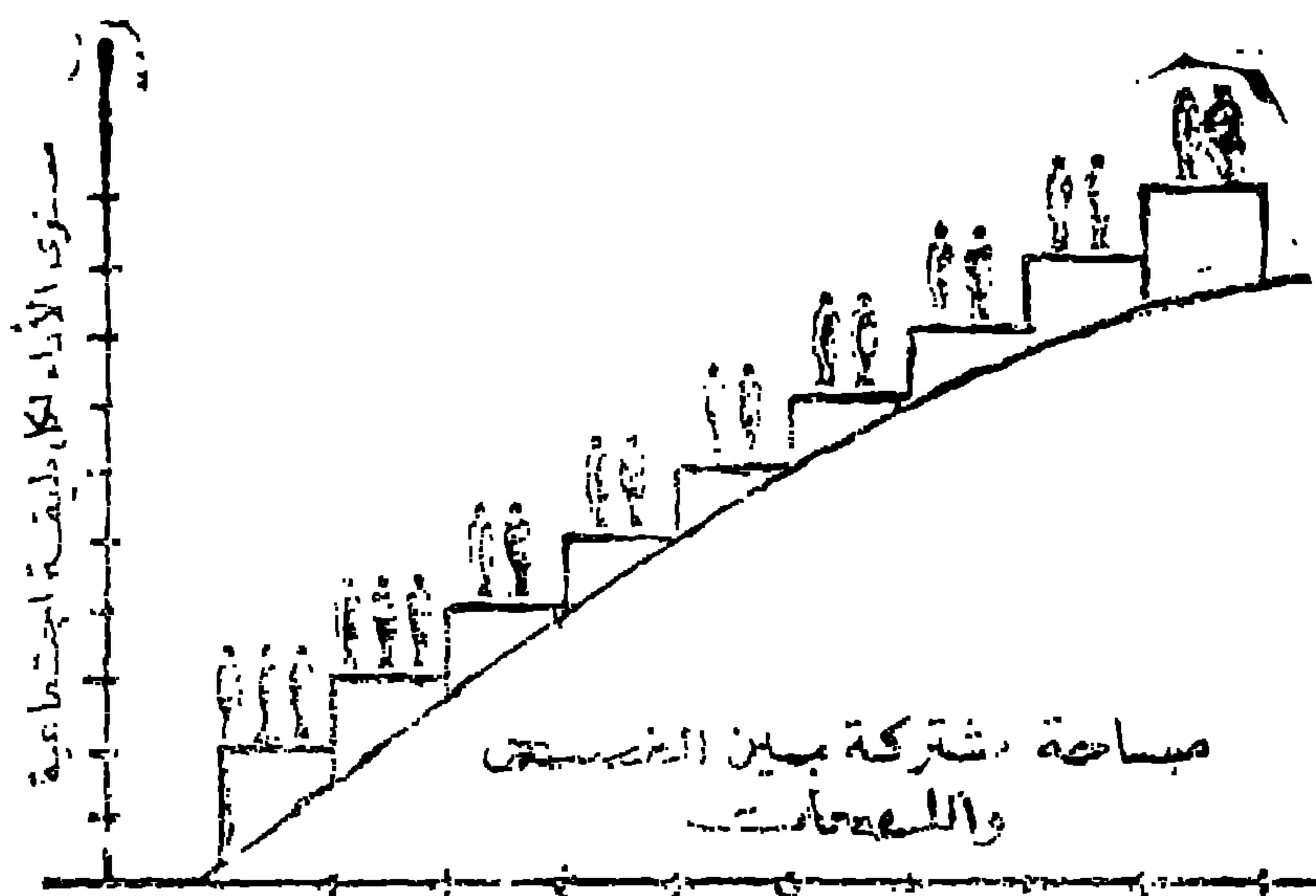
ومن المعام لدى اللغويين أن في اللهجات ظواهر أصيلة تحتفظ بها رغم مرور القرون .. فوجب أن يستفاد منها في ضوء دراسة ميدانية شاملة (١) .

(١) يهتم مجمع اللغة العربية بدراسة هذه الظواهر الأصيلة في اللهجات المحلية ويصدر بها قوارير وتقدم له خمسة عشر استندوا منها في تأليف بعض النصوص والكتب الخاصة بالتعليم العام في مرحلة المختلفة إقرأ على سبيل التمثيل مبحث الأستاذ محمد شوقي أمين عضو مجمع اللغة العربية تحت عنوان كلام الناس في كتاب دراسات في اللهجات العربية (السابق) من ص ٩ إلى ص ١٦ وانظر كتاب الألفاظ والأساليب الذي أصدره المجمع في إعداده المختلفة .

وإقرأ أبحاث متفرقة في مجلة المجمع في أعدادها المختلفة .
وإقرأ كذلك قرارات المجمع .

فالمساحة المشتركة بين الفصحى والعاميات
المذبذبة عنها مساحة ضخمة على نحو ما يتضح
ذلك من الرسم البياني الآتي :

كذلك من الثابت عالياً أن العاميات تقوم
في لحمتها وسداها على العربية الصحيحة وهي
تفرعة عنها إغترا أن تطورا ما أصابها
في الحانب الصوتي وجانب المتر (١)



عمل دراسات وصفية تقابلية بين اللهجات
الدارجة والفصحى .

يمكن أن يستضاء بها في الارتقاء بالعامية
وتقريبها من الفصحى .

فإذا كان التطور الذي أصاب كل لهجة
يمثل ما هو خارج خط المنحنى فإن ما هو
داخل خط المنحنى هو المشترك وهو المساحة
الكبرى .

وهنا يحىء دور التخطيط ورسم السياسة
اللغوية لرفع مستوى العاميات من خلال

(١) في حوار مع الأستاذ شوقي أمين عضو مجمع اللغة العربية ومقرر لجنة اللهجات بمجمع اللغة
العربية قال لى : في بادئ الأمر كنت أبحث عن العربية الصحيحة في العاميات واليوم صرت أبحث عن غير
الفصحى في العاميات ومن الأمثلة السريعة على ذلك التي تؤكد ما يراه ما يقوله العامة من كلمات نحو :
إعزن - أصلها أعزوان - عزوت كذا إلى كذا .

وكلمة شفت العامية أو بحث في القواميس ما وجدتها ولكن سرعان ما تجد سقط وتسقطه يعنى تشربه
واستقط الشيء : اشتفه والإسقط : ضرب من الأشربة فارسي معرب قال الأصمعي : هو بالرومية ... الخ

« هي الصورة المثالية التي تفرض نفسها
على جميع الأفراد في مجموعة واحدة » (٤)

وذلك بسبب ترفعها عن خصائص
اللغات : حيث إن سادتها لا يعرف المنطقة
الأصلية التي ينتمي إليها المتكلم بها » (٥) .

وإن السياسة اللغوية كما هو ثابت هي وضع
الخطة للوصول إلى مستوى لغوي معين وهي
في تفاصيلها الدقيقة وفي هيكلها العام تجيء
بناء على دراسات يقوم بها المتخصصون في
المجالات اللغوية العامة النظرية والتطبيقية ويسهم
فيها رجال العلوم اللغوية الاجتماعية والنفسية
وتنجز دراسات واختبارات يتأكد بها الباحثون
والمتخصصون .. من سلامة احتمالاتها .

وتتطلع بها جهات متعددة .

على أن يسخر في ذلك التعليم العام (١) :
وكذلك وسائل الإعلام (٢) .

أما الجامعات فإن دورها من خلال
رسم السياسة اللغوية فهو حمل راية النقاء
اللغوي داخل المجتمع بأسره وليس المجتمع
الجامعي فحسب (٣) : فعن طريق هذه
الجهات مجتمعة وفقاً لسياسة لغوية مخطط لها
نسير في طريق علاج الازدواجية اللغوية .

وذلك من خلال دراسة ميدانية شاملة تمد
اللغة النموذجية بما يجعلها تفرض نفسها على
الأسنة وهي تتداولها في حياتها اليومية .

فمن الثابت لدى اللغويين أن اللغة النموذجية
لديها قوة فرض نفسها ومما يتولاه فندريس في
هذا الشأن عن اللغة النموذجية .

(١) على نحو ما سيوضح .

(٢) سيأتي ذلك مفصلاً .

(٣) انظر : اللغة النموذجية وواجب الجامعات لإزاء العمل على تثبيت هيكلها وتحديد خصائصها دراسات
في اللهجات من ص ١٠٩ / ١٣٠ وقرأ كتابنا الظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين .

(٤) انظر كتاب اللغة : لفندريس .

(٥) انظر : أصوات الإنجليزية لفرى سويت .

H. Suet ; Sound of Language

وانظر : اللغة بين الفرد والمجتمع : ترجمة د. عبد الرحمن أيوب ص ٩٤ .

ومستقبل اللغة المشتركة للدكتور إبراهيم أنس - ط ١٩٦٠ من ص ٥ / ٩ .

وانظر مقدمة لدراسة لغة اللغة د. محمد أحمد أبو الفرج ص ٩٢

وهذا ما كانت عليه الفصحى قبل نزول القرآن فقد ترفعت عن الخصائص البارزة للغات القبائل مثل عنمة
تيم وعمجة قضاة وثلاثة بهراء وكشكشة سعد : وضمطة حمير : وعجرفيه صنية : وتضعج قيس
وفشاشة تغلب إلى آخره انظر التفاصيل الخاصة بهذه الظواهر في كتاب : فجات العرب - لأحمد تيموز
باشا - سلسلة المكتبة الثقافية العدد ٢٩٠ .

وانظر المظهر في داود لغة وفروغ : بلال الدين السروطي .

وقد أوضح س : بيت كوردز (S. Pit Corder) الميكال العام للسياسة اللغوية وأسماه العملية الشاملة .

ودور الجهات المختلفة في السياسة اللغوية .

وجعله مستويات على النحو الآتي :

١ - المستوى الأول : سياسي	تضطلع به الدولة بذاء على ما يقدمه اللغويون المتخصصون	وهو تحديد المستوى اللغوي المطلوب الوصول إليه . ولمن يقدم
وهذا المستوى عندنا واضح وهو العربية الفصحى فهي اللغة الرسمية وهو متفق عليه بالنسبة للغويين النظريين أو التطبيقيين وكذلك الاجتماعيين والنفسيين فهو أدر متفق عليه سواء على مستوى مصر أو على مستوى الدول العربية مجتمعة أو كل دولة على حدة .		
٢ - المستوى الثاني : لغوي ولغوي اجتماعي	يضطلع به رجال علم اللغة العام وعلم اللغة التطبيقي	ويتحدد في خروثه : نوع المادة التي تقدم والكم المطلوب . وعند أي مستوى تقدم
٣ - المستوى الثالث : لغوي نفسي تعليمي	وتضطلع به التربية والتعليم التربويون - والمدرسون	ويتحدد في ضوئية المادة المطلوبة وكيفية التقديم

(١) انظر كتابه : مدخل إلى علم اللغة التطبيقي واقرأ مقدمته وأبوابه المختلفة وانظر ص : ١٣ .

S. Pit Corder ; introducing Applied linguistics P. 13.

ويستعان عند وضع الخطط بعلماء اللغة في المجالات المختلفة ما بين اجتماعية ونفسية . فمن المسلم به أن علم اللغة جزء من طائفة العلوم الاجتماعية تلك التي تمتاز بالصلة الشديدة فيما بينها والتي ترتبط فروعها بعضها ببعض ... وفروع علم اللغة التطبيقي بأنواعها المختلفة لا يستغنى عنها عند التخطيط أو التنفيذ^(١) سواء عند رسم السياسة أو في مراحل التنفيذ . وتوضع خطط السياسة اللغوية على محورين كبيرين :

أولهما : الاستفادة من النظريات اللغوية الحديثة على اختلاف أنواعها ومعطياتها وفي مقدمتها نظرية الطيف .. أو نظرية الموجة .

والاستفادة من الدراسات التحليلية التقابلية بما قامت عليه من نظريات لغوية سواء في المجال التحليلي التقابلي بين اللغات .

Contrastative Analysis Linguistics

أو المجال التقابلي في تحليل الأخطاء Errors

وثانيهما : الاستفادة بكل ما قدمه للغة العربية الفصحى من جهود على امتداد تاريخها الطويل جهود أفراد أو جماعات .. في عصر واحد أو في عصور مجتمعة وبكل ما قدمته المؤسسات المتخصصة في هذا الصدد من عون ...

ويراعى عند التخطيط الدور التي تضطلع به كل جهة من الجهات الثلاث^(٢) صاحبة التأثير على المستعملين للغة من حيث الحكم والكيف والتخطيط لطريقة التأثير .

توضيح ذلك :

بالنسبة للمحور الأول

في الفكرة الخاصة بنظرية الطيف اللغوي (linguistic Spectrum) أوظف نظرية الموجة تعد النظرية القادرة على أن تقدم تصوراً كاملاً مبنياً على أسس علمية من خلال نظرية متكاملة في ضوءها يمكن أن تفسر النظاميات (Regularities) التي توجد في الصور المختلفة للاستعمالات المتنوعة داخل الازدواجية اللغوية والتي تحددها من جهة لغة عامة خالصة ، ومن جهة أخرى

(١) اقرأ : كوردر (السابق) - في أبوابه المختلفة وكذلك المقدمة .

S.Pit Corder Introdcing Applied linguistics

(٢) المشار إليها بمحور النفوذ اللغوي القادرة على تحقيق النقاء اللغوي وحمل رايته داخل طبقات المجتمع والنفوذ بين فئاته وأولها : التعليم العام بمراحلة المختلفة - وثانيها : أجهزة الإعلام بكل مستحدثاتها وإمكاناتها - وثالثها : الجامعات ببعدها الفعال داخل المجتمع .

اللغة العربية الفصحى الخالصة عندما تم من خلال مهارات الاستعمالات الفعلية .

وفي ضوء هذا التصور يوضع التخطيط العملي للارتقاء التدريجي بالمستوى الفعلي للاستعمال اللغوي إزاء الازدواجية من أدنى مراحلها إلى المستوى المنشود .

وتتضح أبعاد نظرية الطيف على النحو الآتي :

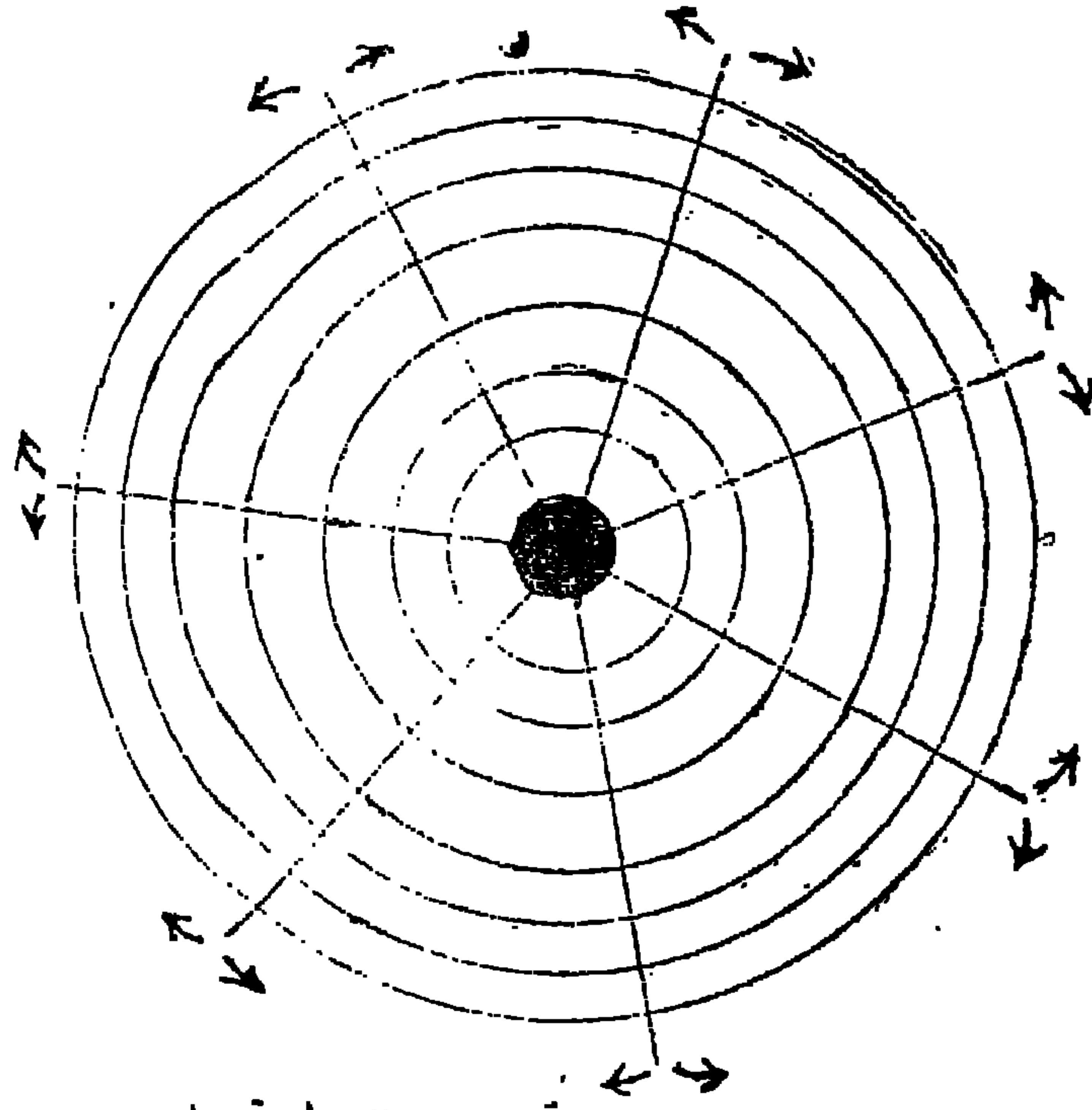
مثلاً يعطينا شعاع من الشمس من خلال منشور زجاجي حزمة كاملة من ألوان الطيف السبعة تتدرج في تسلسل وتداخل من البنفسجي إلى الأحمر مروراً بالنيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي وانتهاء بالأحمر .. كذلك تداخل اللهجات بين طبقات المجتمع هو تداخل تدريجي .. فإذا حللنا حزمة من الاستعمال اللغوي داخل مجتمع ما فإننا نجد أن لهجات طبقات المجتمع الواحد تتدرج في تداخل ويظهر تدرج ألوان الطيف من خلال المنشور كما يظهر تدرج اللهجات من خلال التحايل ولكن إذا أدركنا قرص الطيف مسرعين عادت الألوان لوناً واحداً وهو الأبيض كما بدأت - فهي لهجة واحدة وإلى لهجات الإقليم ككل فهي لغة واحدة . ومن خلال الاستعمال اللغوي للهجة محلية من اللهجات داخل طبقات مجتمع واحد نحصل على حزمة مكونة من لهجات متعددة تتدرج في الاستعمال اللغوي داخل طيف

يقتل في تدرج من نقطة إلى أخرى بأنظمة لغوية مميزة سواء من حيث الصيغ أو خصائص النطق أو القواعد أو المعجم إلى آخره يحددها من وجهة عامة حوشية ومن جهة أخرى مستوى لغوي أعلى داخل هذه الحزمة وقد يقترب في عمومها من العربية الميسرة أو الفصحى .

ولو حولنا ذلك الافتراض إلى تطبيق عملي اقتطعنا على سبيل التوضيح والتبيل جزءاً من المجتمع المصري - وليكن حي - السيدة زينب مثلاً فإننا نجد داخل هذا الحي طبقات لغوية متنوعة - (- في تداخل تتميز فيه كل لهجة أو طبقة) تتميز اجتماعياً وثقافياً تستجيب له اللغة في صورة طبقات لغوية أيضاً تحددها المهنة والوظيفة الاجتماعية ولكن في تداخل من خلال دائرة لا يدري أين طرفها .

فالمتحدث أيا كانت طبقة - ه - مصري - قاهري - من حي السيدة زينب مثلاً ولكن المستمع يميز لهجة المثقف من لهجة العامل من لهجة الطائى والمحامي والمدرس ... من لهجة البائعين الجائدين من لهجات طبقات أخرى ... ولكن في تدرج داخل طيف :

ولو افترضنا أن الذى اقتطعناه دائرة فهي دائرة داخل دائرة داخل دائرة .. إلخ .



طبقات لغوية متنوعة داخل
جزء مكتمل من المجتمع

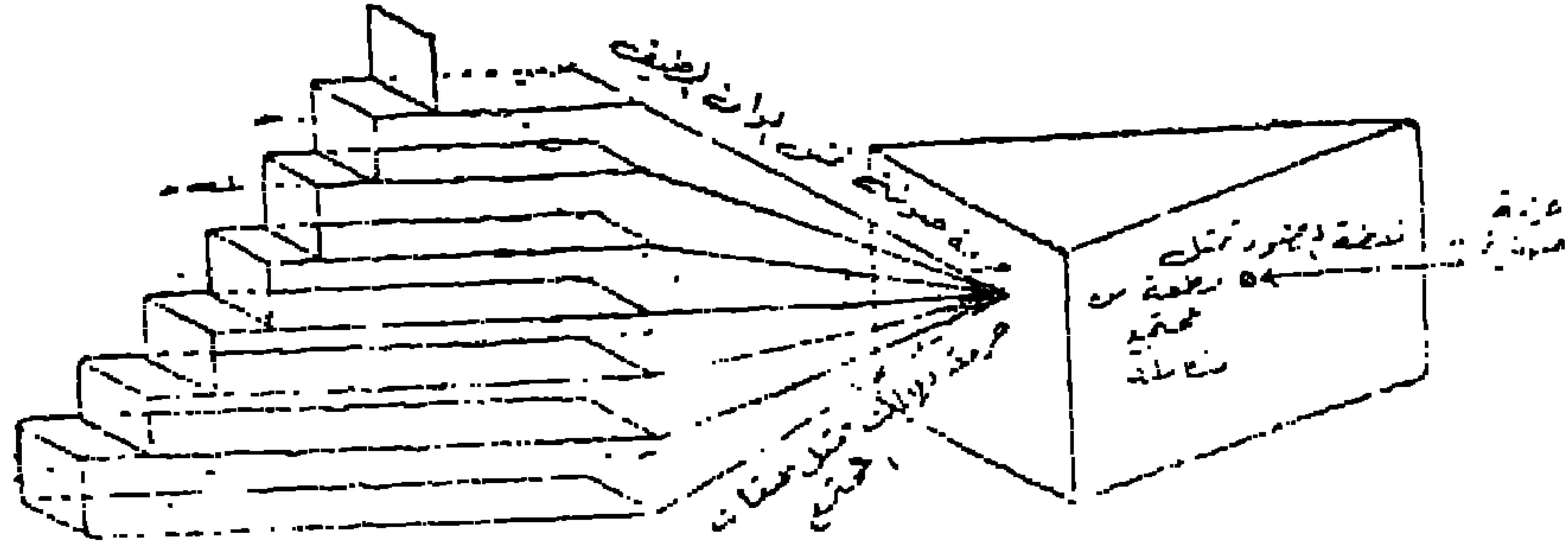
وإن كان بوسع المتحدثين الذين يسيطرون على حيز واسع من الطيف تحديد مواقفهم بوسائل من التعبير تختلف فيما بينها باختلاف المستويات التي يتقنونها .

أى أنه بالإمكان افتراض سلسلة متصلة من التحويلات Transformational تربط الصور اللغوية من طبقة إلى طبقة أى من الأقل فصاحة إلى الأكثر فصاحة وهكذا .

ويمكن التأكد من ذلك من خلال دراسة الحديث فعلى المتكلمين بالعربية على مختلف مستويات أحاديثهم - فإننا نجد مستويات الحديث تتدرج في تداخل من طبقة إلى طبقة مثل تداخل ألوان الطيف من لون إلى لون وإن كانت من خلال النظرة الكلية لغة واحدة في مجتمع واحد .

وإكن المتكلم لا ينتقل من دائرة العامية الخوشية إلى دائرة المثقفين بقدر ما يكون نتقاله تدريجياً إلى الدائرة التي تليه .

أى أنه يمكن أن يتحرك داخل دائرة طيف من نقطة إلى أخرى في أى من الاتجاهين على نحو ما توضح ذلك الأسهم وإن أراد أن يصل إلى ما هو أبعد من عليه أن يمر بالمنطقة التي تليه ... وهكذا إلى أن يصل إلى النقطة التي يريد هاولو ردتنا أن نستوضح ذلك عملياً فإننا نلاحظ بالنسبة للشخص الواحد فنجد أنه لا ينتقل من لهجته إلى لهجة أعلى من لهجته وإنما ينتقل إلى لهجة أقرب منها فيقفز من قاع إلى قمة وإنما يتحرك داخل طيف .



أفإذا ما وضعنا صورة المنشور وحزمة الضوء
الداخلية فإننا نجدها لوناً واحداً هو الأبيض
أي حزمة واحدة ولكن المنشور حطها إلى
ألوانها المتعددة (سبعة) (١).

وكذلك حزمة اللهجات المتقطعة من حى
هى حزمة واحدة أصحابها يتكلمون لغة واحدة
(عربية) ولهجة واحدة (قاهرة) ولكن
التحليل اللغوى بينها لهجات متعددة .

وعلى نحو ما هو هنا تدرج في تداخل هناك
تدرج في تداخل ...

وقد أجريت دراسات على مواقف اجتماعية
خاصة بهذه الظاهرة فلم يحدث أن انتقل
المتكلم من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر
بقدر ما أنه يتحرك داخل منطقة طيف من
نقطة إلى أخرى فى أى من الاتجاهين ولكن
بوسع المتحدث الذى يتقن مستويات متعددة

(١) وتحليل الطيف من خلال المنشورين أنها ألوان متداخلة فى تدرج .

بنفسجى ٣٩٠ - ٤٣٠

نيلي ٤٣٠ - ٤٦٠

أزرق ٤٦٠ - ٥٠٠

أخضر ٥٠٠ - ٥٧٠

أصفر ٥٧٠ - ٥٩٠

برتقالى ٥٩٠ - ٦٥٠

أحمر ٦٥٠ - ٧٧٠

وكما لا يمكن أن تكون عند البندفسجى مثلاً ونقفز إلى الأحمر إلا مروراً ببقية الدرجات كذلك لا تكون
عند قاع الموجة ونسجد بأخوشية ثم تجده يقفز إلى لغة المثقفين فى طلاقة لكن قد تساعده قواعده التحويلة
أن يتدرج إلى لهجة الطبقة التى تليه وقد يسيطر على حيز واسع من اللطيف فينتقل إلى مستويين أو أكثر،
ولكن فى تدرج من خلال مهارات استعمال فعلية يحددها تفاعله داخل المجتمع .

أن يسيطر على حوز واسع من الطيف .. فمثلا من بين طبقات المثقفين من يقدر على التحرك من نقطة إلى أخرى في أى من الاتجاهين العامة أو العربية العصرية .. وهذا هو الذى يعلن سبب ارتداد المتحدث بالفصحى إلى لهجته فهو يتحرك في تدرج بين منطقتين من الطيف ...

والفكرة الخاصة بنظرية الطيف Linguistic Spictrum أو نظرية الموجة تعد حتى الآن النظرية التى تفسر النظاميات (Regularitis) التى توجد في صور الاستعمال أو المهارات اللغوية التى تتخذ من جهة بالمستوى الحوثنى ومن جهة أخرى بالفصحى .

وهى التى عللت الصعوبات التى يعانى منها المبتدئون في تعلم العربية بسبب تمكن عاداتهم اللهجية من عادات اللغة التى يكتسبونها ولبعد المسافة بعين القاع والقمة أو بين بداية

أول ألوان الطيف ونهايتها—بالنسبة للمبتدئين وما يتمناه المعلمون ... ومن هنا جاءت أهمية التدرج في المحتوى الذى يقدم لهؤلاء وأن يكون على أيدي متخصصين ...

وهى التى فسرت عدم استقامة السنة المثقفين بالفصحى على الرغم من أن بعضهم قد يكون نال قسطاً كبيراً من الدراسة التقليدية الخاصة بالفصحى (١) .

وهى أيضاً التى فسرت عدم إقبال الجماهير من المشاهدين أو المستمعين على الأعمال الفنية المختلفة في ثوبها الأدبي الرفيع الذى يفهم بالفصحى في عروض مسرحية أو تمثليات أو حتى مسلسلات حيث ينفخ عامة الجمهور على حين يقدمون على أعمال باللهجات المحلية ولا سيما اللهجة المصرية (١) .

ومن هنا تذهب صيحات الذين ينادون بالإصلاح دون أن يبنوه على دراسة علمية تخصصية مخطط لها .. أدراج الرياح .. !

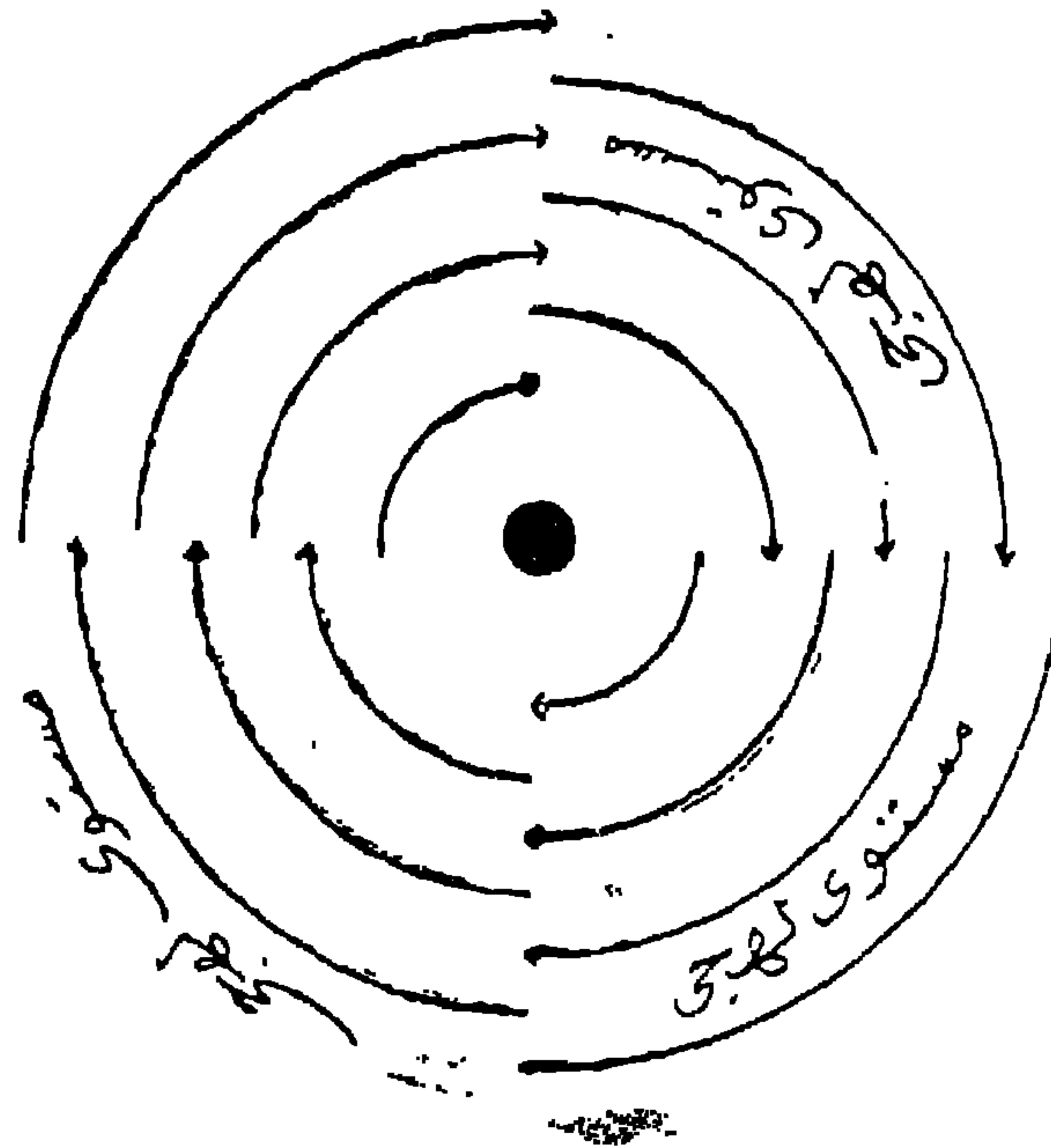
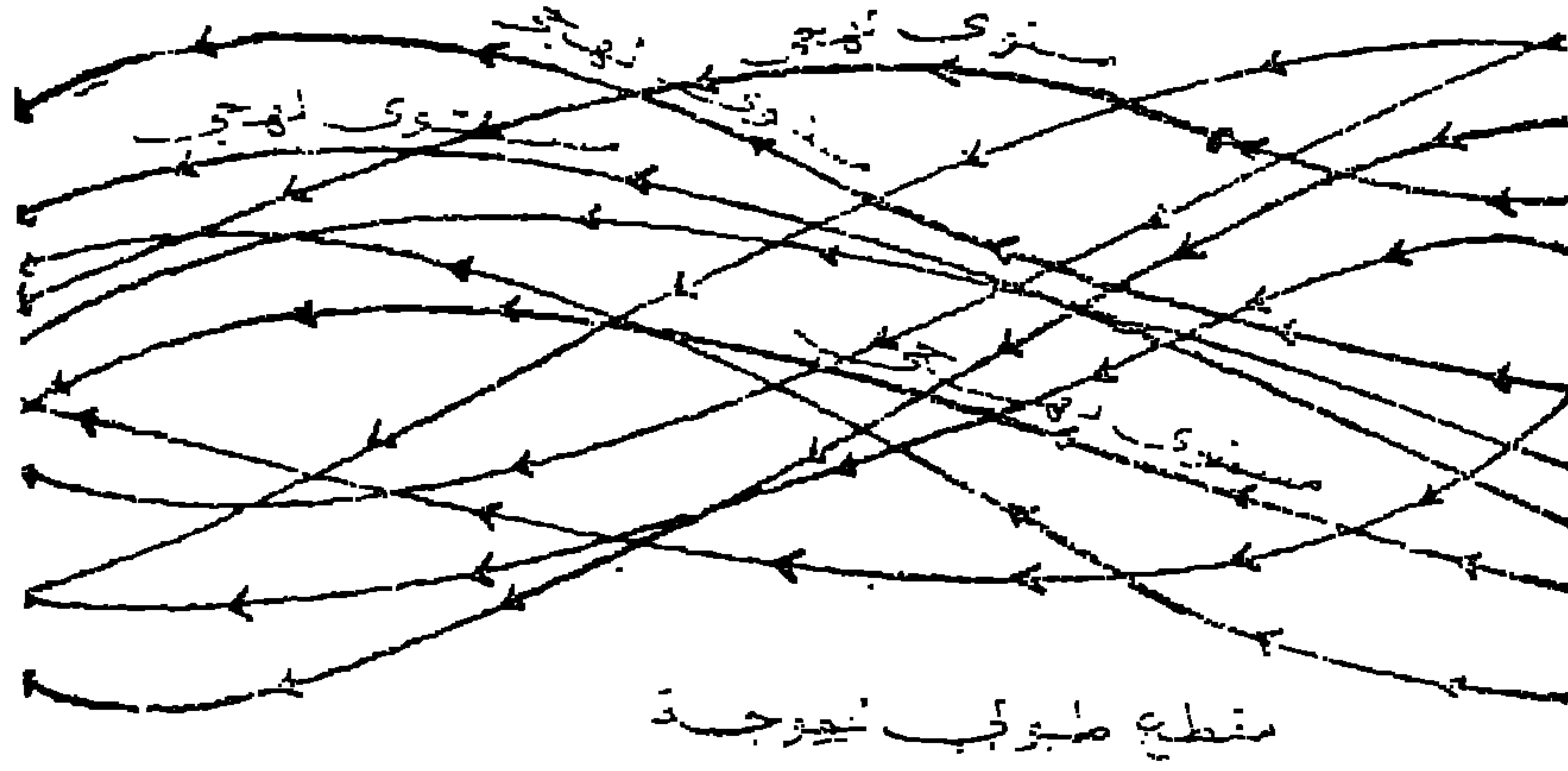
(١) قدمت إلى جامعة الأزهر كلية الدراسات الإنسانية رسالة دكتوراه من الباحثة سمير على عزت نبوسى تناولت بحث مشكلة الترجمة للمسرح من خلال ترجمة مسرحيات مولير .

وقوصات الباحثة إلى ضرورة نقل مسرح مولير باللغة العامية بدلاً من النصحى والإبقاء على المضمون الكوميدي بمعنى أن تم الاقتباس وليست بالترجمة وتكونت لجنة المناقشة من التدريسية تيسمييه أستاذ المسرح بالجامعة السورية ود . رجاء ياقوت رئيسة قسم اللغات والترجمة وآدابها بجامعة الأزهر ود . زينب منيب الأستاذ بكلية الآداب .

ونشرت هذا الخبر جريدة « أخبار اليوم » القاهرة في ٢٨ / ٣ / ١٩٨٧ عدد ٣٢١٣ — الصفحة السادسة . انظر جامعة الأزهر حصن اللغة (نقل المسرح أى الترجمة بالعامية لا بالفصحى) المسألة مسألة رسم سياسة لغوية ومراجعة نظرية للطيف .

وتوضح صورة الموجة التي أمامنا الفكرة .
فألدي أمامنا صورة موجة ذات قاع وقمة
وبين القمة والقاع طبقات في تداخل وليست
في تراص :

وكذلك الموجات تتابع في تداخل وليس في تراص -



مقطع رأسي للموجة

عند أي مستوى داخل الموجة اللغوية نجد
جماعة تتحدث فيما بينها في داخل هذا المستوى .
وتبين أن يوسع المتحدث التحرك إلى أعلى
أو إلى أسفل داخل المجال أي الانتقال في تدرج
من نقطة إلى نقطة - وفكرة الموجة هي التي
أوضحت بصورة مؤكدة أن القواعد قواعد
تداخل (interference) أي أن
اللغة متداخلة وليست متراكبة .
فلا تنتقل من مستوى نقطة وليكن القاع
دون أن تمر ببقية المستويات .

عن طريق التحول أى أن القواعد قواعد تحويل (Transformational) واستمع على سبيل التمثيل إلى أى متحدث بالفصحى وليكن فى مؤتمر علمى عام تحكم مباشرة على أن المتحدث من مصر أو من العراق أو السعودية أو الكويت أو المغرب إلى آخره وقد تحكم على أن المتحدث مصرى من إقليم كذا أو كذا على الرغم من أن كل واحد من المؤتمرين يصطاع الفصحى لغة حديثة ولكنها قواعد التداخل طبقاً لنظرية الطيف أو الموجة . وهذا يؤكد أن الخلافات بين العربية الفصحى واللهجات المتفرعة منها كبيرة وذلك لأن الخلافات مبعثها الأنظمة Systemes اللغوية وهى متعددة ما بين نظام صوتى ونظام صيغ ونظام نحوى ونظام معجمى ونظام دلالى إلى آخره .

هذا ما أثبتته الدراسات اللغوية المتعددة (١)

* فتعدد الأنظمة واختلافها .

(١) من بينها على سبيل التمثيل :

دراسة . ج ستيتكيفتش (J. stetkevych) لغة انثر العربى الحديث .

و دراسة . ر . س . هاريل . (R.S. Harrel) للغة إذاعات راديو القاهرة والسمات العامة للاختلاف بينها وبين اللغة العربية الكلاسيكية .

وتحليل . ه . بلانك (H. Blanc) للغة العربية المستخدمة من جانب متحدثين متعلمين من مناطق لهجات مختلفة عندما يتحدثون معا .

وأبحاث س . كلين (C. Killeen) ود . سولز (D. schulz) عن لغات التمايزات التليفزيونية مع المتعلمين المصريين .

وانظر بحث مس آن رويال علم اللغة والسياسة اللغوية فى مصر (السابق) (من ص ١٧١ / ١٧٤ .
واقراً قائمة مراجعة ص ١٨٢ / ١٨٣ .

(٢) انظر علم اللغة والسياسة اللغوية فى مصر : مس آن رويال (السابق) (من ص ١٧١ / ١٨١ .

* ودباجة هذه الأنظمة فى اللاوعى والخزون العقلى . .

* وسيطرة اللاوعى على المتكلم أثناء تحدثه .

كل هذا يفسر ارتداد المستعمل للغة إلى نقطة مستواة اللهجى والعودة إليه من خلال انفعاله فى الحديث وغفائه عن قواعد التحويل (Transformational) التى تنقله من مستوى إلى مستوى داخل الطيف أو الموجة . ومن هنا جاءت الفكرة الداعية إلى الاستفادة من نظرية الطيف أو الموجه :

ويعد عمل ر . شميدت (R, Schmidt)

وبحث ديفيد شولز (D, Schulz)

دراستين وصفيتين لتلك اللهجات المتوسطة للغة المصرية تميلاً إلى تأييد هذا التصور النظرى للغة (٢)

وعلى الرغم من وجود نقاط خلاف كثيرة بين العاميات والفصحى على نحو

التداخل اللهجي بين العامية والفصحى على نحو ما يحدث التداخل بين أجراء الموجة داخل حركتها .

أى أن الدراسات التحليلية التتابلية اللغوية بين الفصحى والعاميات هى العمل العلمى الذى يعتمد عليه المخطط للسياسية اللغوية لزاء ظاهرة الازدواجية . . .

والرسم البياني الآتى يوضح دور الدراسة التتابلية فى تحليل عناصر الاتفاق والاختلاف

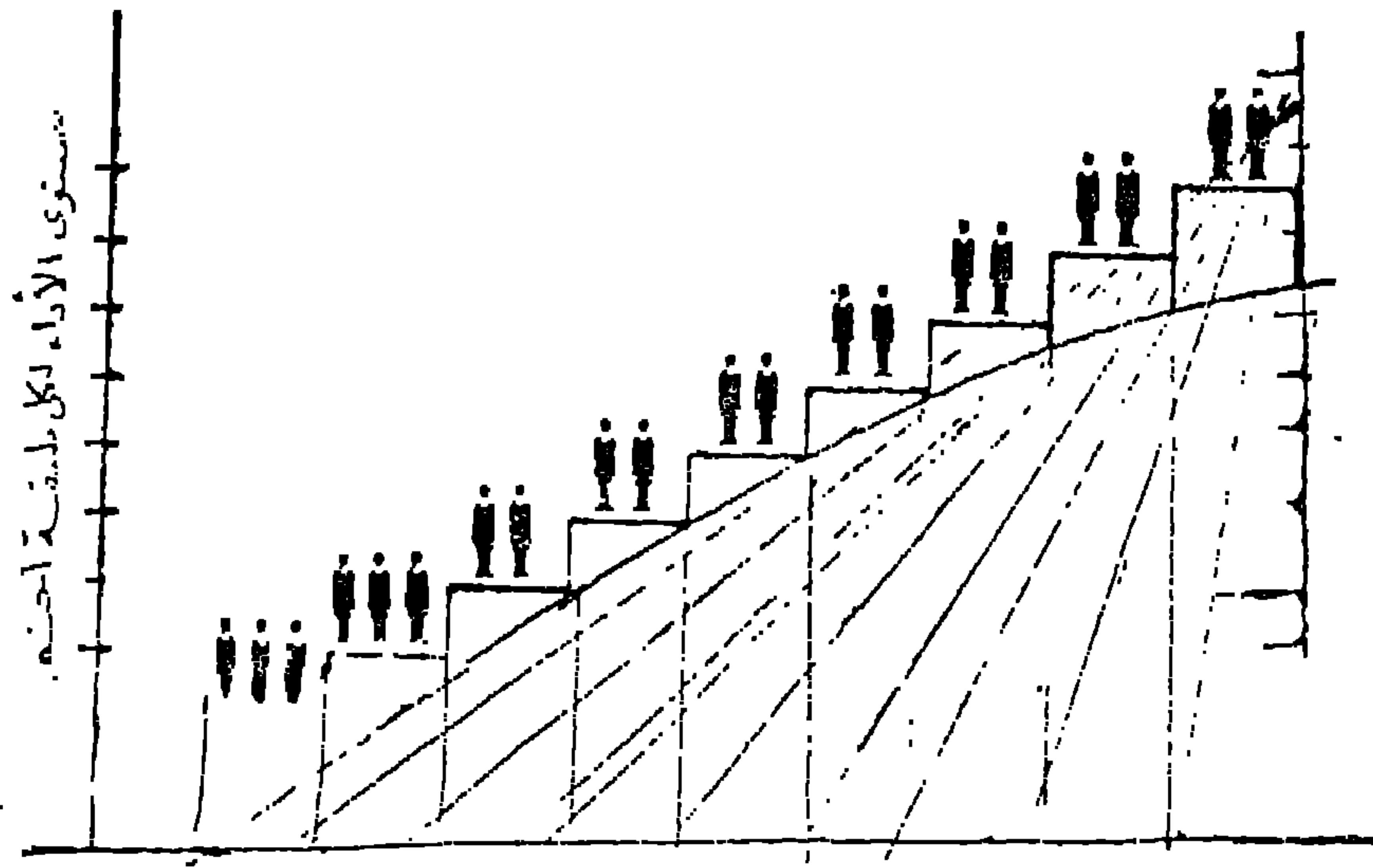
مما سبق أن أوضحنا ذلك وبيننا أسبابه إلا أن نقاط الالتقاء فى ضوء الدرس التحليلي التتابلي تمثل مساحة فسيحة على نحو ما تبين من منحني ظاهرة الموجة السابق حيث أتضحت المساحة المشتركة وهى مساحة كبيرة

ويتضح من الرسم البياني الآتى :

كيف نستفيد من الدرس اللغوي التتابلي التحليلي فى تقريب العامية من الفصحى . . حيث يتضح من خلاله كيف يحدث

محور المستويات اللغوية

محور يمثل المستوى اللغوي للهجات داخل طبقاتها الاجتماعية



محور جماعات المتكلمين (اللهجات)

المساحة الكبيرة المشتركة من الداخل هي الحلقة التي تعزز نفسها بنفسها وتفرض سلطانها ولا تسمح بامتلاك الحديث لغيرها إذا اعتبرنا أن كل نقطة على محور جماعات المتكلمين لهجة .

فإنه يمكن الاستفادة من خلال الدراسة التقابلية لتحليل المستويات اللغوية لكل لهجة على حدة لأن لكل لهجة مستواها وخصائصها .

ولأنه كما توجد بين كل اللهجات ظواهر مخالفة كذلك بينها ظواهر مشتركة أى أن هناك ظواهر لغوية واحدة فى جميع اللهجات وهى التى تمثلها المساحة للواسعة داخل الرسم من خلال التحليل البياني وتلك هى الظواهر المشتركة التى تفرزها الدراسة التقابلية التحليلية .

والتي من عندها تبدأ نقطة الانطلاق فى وضع مناهج مشتركة صالحة للتطبيق على

مستوى الناطقين بالعربية فى أنحاء الوطن العربى .

وقد أثبتت البحوث الميدانية والدراسة التحليلية لواقع الاستعمال اللغوى أننا أمام حلقة داخل الطيف تعزز نفسها بنفسها وتفرض سلطانها ولا تسمح بامتلاك الحديث لغيرها فلا تسمح أبدا للعربية الفصحى . . . على حين أنها تسمح وتشجع على امتلاك العامية أو عامية مشوبة بالفصحى .

غير أن ميزة لغة هذه الحلقة أنها تنسم بالمرونة والحيوية .

وهذه الحلقة هى التى تستخدم فى المدارس فى مراحل التعليم المختلفة يستخدمها الطلاب والمدرسون ابتداء بأولى مرحلة وانتهاء بأعلاها وهى تستخدم فى الجامعات وتدور على ألسنة المثقفين . .

يعزز ذلك ويقويه أنها المستخدمة فى أجهزة الإعلام^(١) ووسائل الاتصال اللغوى الحديثة .

(١) على الرغم مما بوجه إلى هذه اللغة من انتقاد على أعلى المستويات وعلى الرغم من مهاجمة مستعمليها إلا أنهم لا يستطيعون التخلي عنها .

على سبيل التمثيل فى حوار مع الدكتور إبراهيم مذكور رئيس مجمع اللغة العربية فى صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٨٧ فى الصفحة الحادية عشرة .

قرر أن وسائل الإعلام ونظام التعليم وراء هبوط مستوى اللغة العربية ، وأوضح فى حوار مدى إساءة العامية إلى العربية الفصحى .

وأشار على الأبناء الذين ألابهم بالعامية فيما يكتبون ونصحهم بالارتقاء نحو الفصحى لا النزول إلى العامية كما أخذ على وسائل الإعلام أنها تفسح المجال فى ندواتها الأدبية لؤلاء الشبان الذين يؤثرون على العامة . وأن هذا يسىء ، طالب بالهوض بالعربية الحديثة وأن نسير فى هذا الطريق .

ما بين إذاعة مسموعة ومرئية (١) وصحف
ومجلات ودوريات . . إلخ وهي
مستويات تتدرج في تداخل تدرج ألوان
الطيف . .

وتعتبر هذه الحلقة بين مستويات الأداء
اللغوي (Linguistics Leveles) قمة
المهارات اللغوية الموجودة في العربية
على مستوى الاستعمال بين طبقات المثقفين
لأن التخطيط القائم لا يوصل إلى أفضل منها
ولم تجئ عفوا وإنما جاءت لعوامل (٢) ولأن
أردنا الوصول إلى ما هو أفضل لا بد من
من رسم سياسة لغوية جديدة .

ووضع خطط كاملة مبنية على أسس علمية
وتتخذ في تحقيق أهدافها المحورين اللذين
أخضا اليهما . . مع تسخير العوامل
المعينة التي ذكرناها من قبل بكل طاقتها
وإمكانيتها .

في حديثنا السابق اشرنا إلى المحور
الأول من المحاور التي توضع على أساسها
خطط السياسة اللغوية . . وهو محور
المنظريات اللغوية الحديثة وتسخيرها
في خدمة السياسة اللغوية والتخطيط لها . .
وفي مقدمتها نظرية الطيف أو الموجة . .
والنظرية اللغوية العامة . . وتسخير

الدراسات اللغوية التحليلية بمناهجها المختلفة
ما بين وصفي وتاريخي ومقارن وتقابلي في
خدمة هذه السياسة (٣)

وتنفذها . . . بان نبدأ بدراسة
وصيفية تحليلية على الممارسات اللغوية
بين أصحاب الثقافات ولا سيما في المستويات
الرسمية .

وداخل شئون الحياة بين طبقات الناس
حيث نجد نوعا من الدارجة المطعمة
ببعض سمات الفصحى غير أنها بين الحين
والحين تنحدر إلى حوشية العامية .

في مراحل التعليم العام بين طوائف
المدرسين على مختلف مستوياته . .

وكذلك في الجامعات حيث تستخدم في
قاعات المدرس عربية عصرية قوامها العامية

وكذلك بين بقية طبقات المثقفين حيث
تم ممارسات لغوية بعامة مطعمة ببعض
الفصحى بين أصحاب المكانة المرموقة
داخل طبقات المجتمع بين الصحفيين
والإعلاميين بعامة والأطباء والمحامين ورجال
الأعمال والمهندسين . . . بل حتى بين

(١) مما يضئ على هذه اللغة المرونة والحيوية المتصفة بها ما تتضمنه تلك البرامج من موائد شقيقة من بينها
الأغاني بألحانها الشجية بأعذب الأصوات .

(٢) تفصيل هذه العوامل والحديث عنها موضح في الصفحات القادمة .

الأدباء . . بل وبين المتخصصين أنفسهم .

تم معظم الممارسات اللغوية من خلال هذه المستويات كلها بعامة مطعمة بنصحي تتدرج داخل مناطق الطيف كل منطقة حسب إمكانيات طبقها على أساس نحو عام . تحده مستويات التحليل اللغوي المختلفة ما بين الجانب الصوتي . وجانب المشتقات والصيغ والتراكيب وجانب الدلالة والمعجم .

فتجربى على^١ الأوضاع اللغوية القائمة دراسات وصفية تحدد خصائص كل مستوى من خلال الممارسات الفعلية على أن يوضع في المقابل الجانب اللغوي التفصيلي عن طريق المنهج التحليلي التقابلي ويخطط للكيفية التي يمكن أن يتم في ضوءها طريقة الممارسات التي تحقق للنصحي ما نرجوه في ضوء الاستفادة من قوانين التطور من خلال المنهج التاريخي .

وفي ضوء دراسة المواقف الاجتماعية الخاصة بهذه الظاهرة نجد التحرك في أي من الاتجاهين داخل منطقة الطيف من منطقة إلى أخرى حسب ما يملك المتحدث من قواعد التحويل (Trans Formatinal) التي يستطيع أن يسيطر بها على حيز من أحياز الطيف . .

ومن المعلوم أنه عند التخطيط للسياسة اللغوية يجب أن يوضع التصور الكامل للحركة اللغوية للغة المنشودة داخل طبقات

المجتمع بفئاته المتنوعة والمراحل التي تحتاجها كل فئة . . وكيفية اجتيازها . . والمادة اللغوية التي تقدم لها ووسائل تقديمها . . ويعرض التخطيط كذلك التصور لمهارات الاتصال الضرورية التي يتحقق في ضوءها الصالح العام للعمل من حيث الممارسات اليومية بحيث يتحقق التقدم داخل الطيف بطريقة لاواعية ويخطط للاستفادة من مهارات الاستماع والاستجابة من خلال مجالات الاستعمال المتنوعة داخل طبقات المجتمع وفئاته . .

* المجالات التجارية . .

والمجالات الصناعية . .

والمجالات المهنة المختلفة . .

مع عرض التصور الكامل للغة داخل المجتمع في تفاعلها بين طبقاته في نطاق الاستعمال الواسع ونطاق الاستعمال الضيق . في الأدوار المتعددة وفي مختلف الأدوار بين الفئات المختلفة بحيث يقدم التخطيط العربية المتخصصة لكل مهنة .

عربية الأطباء . . .

عربية المهندسين . .

عربية المحامين ورجال القضاء والقانون . .

عربية البنوك والمعاملات الاقتصادية . . .

ومثلها العربية الخاصة بالمؤسسات والشركات مثل شركات البترول . . .

وشركات الطيران :

وغير ذلك من المؤسسات والشركات
التي تتطلب لغة خاصة بها ولها دورها
للتفاعل المتأثر داخل طبقات المجتمع . (١)

على أن يخطط كذلك لتعليم غير الناطقين
باللغة العربية من أبناء الأمم الأخرى
مادة . . . ومستوى

ولأبناء المغتربين العائدين . .

أى يكون التخطيط واسعا . . والهدف
واضحا . .

بحيث يتم إتقان مهارات اللغة
من خلال السيطرة على قواعدها وأنظمتها...
وفقا لبرامج دقيقة يحدث نتيجة لها التأثير
المطلوب بحيث يجيدها المستعمل بطريقة
لاواعية .

وقد صارت اليوم اللغة المكتوبة منافسة
للغة المنطوقة فقد صارت من لوازم العصر . .
وساعد على ذلك :

انتشار التعليم وتعميمه (٢)

انتشار الصحف والمجلات وتداولها
على أوسع نطاق . .
وانتشار المكتبات .

وكثرة الكتب وتنوعها . . نتيجة

لكثرة النتاج الفكرى الذى تفيض به العقليات
المتخصصة .

وبسبب تقدم الطباعة . . وتنوع وسائل
النشر وتعدد جهاتها وغير ذلك كثير . . .

لذلك وجب أن يوضع فى السياسة
اللغوية .

محور اللغة المقررة . . والمستوى المنشود
الوصول إليه . .

وأن يخطط لنشرها بين الأجيال المتعاقبة
على أن يوضع فى الاعتبار الأجهزة
المنفذة .

فمحور اللغة المقررة يوازى محور اللغة
المنطوقة .

أى أن اللغة المنشود الوصول إليها لغة
مقررة ومنطوقة على مستوى معين من
المهارة فى الحالتين . . .

من خلال سياسة لغوية يصاغ فى ضوءها
الأهداف العامة والخاصة

وتوضع لها الخطوط المساعدة على التحديد
والتنفيذ .

على أن يجرى التخطيط شاملا واضحا فى
حسابه الزمان والمكان على أوسع نطاق
وأن تكون الاستفادة فى حالة تجدد واستمرار
تقع مدى الحياة أى يكون تعلما مدى الحياة
بطريق غير مباشر . .

(١) فى مجمع اللغة بلحان تصادر معاجم خاصة بالمتنوعات المتنوعة .

(٢) بل هناك محاولة جادة للقضاء على الأمية وهناك برامج لتعليم الكبار .

أما محور الثانى الذى يتنام عليه السياسة اللغوية .

فهو محور الاستفادة من أعمال المتخصصين وجهود السابقين ومعطيات العصر وملاساته وما أحرزه العلم من تقدم . . وأول ما يجب أن يوضع فى الاعتبار - جهود مجمع اللغة العربية - وبقية المجمع

ويجب أن يوضع فى السياسة اللغوية مساهمات مجمع اللغة العربية بجهوده الحاذقة فى مجالات نشاطه المتنوعة فى كل ما يقوم به لاسيما ما يتصل :

بقوائم المصطلحات التى أعدها وأقرها . . وقوائم المفردات التى تدخل فى مقررات الدراسة فى مراحل التعليم المختلفة من أول المراحل إلى أعلى مستوياتها بما فى ذلك القواميس العلمية المتخصصة . . وكذلك أقدم من قواميس تخدم مجالات متعددة الأغراض مثل الوجيز والوسيط والكبير ومهاجم التخصصات المختلفة ومصطلحاتها مثل الحشرات والكيمياء والفيزياء : وعلم النفس والفلسفة . . إلى آخره

وأعماله خاصة بالألفاظ والأساليب وكذلك جهوده الخاصة بتيسير النحو وتبسيط قواعده ومصطلحاته . .

وكل ما أخرج من قرارات . . وتوصيات . .

على أن يوضع ضمن التخطيط الاستفادة مما تنتجه المجمع اللغوية الأخرى فى ضوء تنسيق يفيد من منجزاتها فى تعاون فيما بينها . .

على أن يوضع فى الاعتبار المصادر اللغوية الموجودة التى يمكن توفيرها فى الحاضر والمستقبل والتى تمتد الخطط بالمادة المطلوبة^(١)

وينبغى الاستفادة مما وضعه الإسلام الحنيف من نظم دقيقة ضمنت للعربية حيوياتها ومنحتها التجدد عبر العصور وتلك واحدة من معجزات كتابه الكريم . .

فتتضافر مظاهر النشاط العقلى والثقافى والوجدانى التى تحافظ على كتاب الله وتنشر ثقافته وترفع لواءه .

(١) من المفيد فى هذا الاطلاع على أعمال المركز القومى للبحوث التربوية بوزارة التربية والتعليم ما يتصل بالمناهج المطورة لامة للعربية فى التعليم العام . وغيرها

- المناهج المطورة الخاصة بالإدارة العامة لدور المعلمين والمعلمات .

- اللوائح الخاصة بأقسام اللغة العربية بالجامعات .

- لائحة كلية دار العلوم واللوائح الخاصة بأقسام اللغة العربية فى كليات الآداب والجامعات المختلفة .

مع ما بذله المتخصصون عبر العصور من معارف وعلوم من أجل المحافظة على سلامة كتاب الله نطقاً وترتيلًا وحسن أداء . . وما تقدمه معاهد العلم ومؤسساته التي تعمل في وعي محافظة على قواعد لغته ومتنها :

وما ينظمه الناظمون على ضوء بيانه متلمسين الفصحى في أعلى مستويات أدائها . .

وما تقدمه قرائح الناطقين بالعربية من مصنفات في مجالات الآداب والعلوم بأسلوب عربي مبين . . كل أولئك يدخل ضمن خطط السياسة اللغوية . .

أما الواقع أن الجهود تتعاون في نشاط زعقلى حول غاية هي الحفاظ على لغة كتاب الله . . فوجب أن يستفاد من هذه الجهود من خلال سياسة لغوية يخطط لها فتحسن الاستفادة من الجهود الحاضرة . . ومما بذل لضمان إجهاد عبر العصور . . .

وقد استطاع علماء العربية في عضورها الأولى على الرغم من إمكانياتهم المتواضعة فرادى وجماعات أن يحفظوا للعربية سلامتها وأن يعبروا بها الأزمان على نحو ما وصلتنا .

وقد استطاع ديوان الإنشاء أن يضع فيما يشبه في عرف اليوم سياسة لغوية استثارت في الأمة العوامل التي ترسخ مبادئ الإسلام وقيمة وتنشر ثقافته وتحمي لغته وتنمي علاقات الأخوة بين أبنائه في أقطار الأمة الواحدة (١)

فلا أقل من أنه يجب علينا ونحن نعيش في عصر يملك إمكانيات علمية متقدمة . . ولدينا مؤسسات متخصصة أن تستفيد منها وأن نقدم للغتنا مثل ما يقدم أبناء اللغات الأخرى للغاتهم . وأن نضع سياسة لغوية مستفيدة من كل ماتقدم ومن النظريات اللغوية .

الدكتور البدر أوى عبد الوهاب زهران
الخبر بالمجمع

وأستاذ اللغويات ورئيس قسم
اللغة العربية وعميد كلية الآداب
بجامعة أسيوط

(١) اقرأ صبح الأعشى للقلقشندي .

وإقرأ ما جاء على لسان القاضى النماضلى عندما قدم للإمام بديوان الإنشاء .
وإقرأ كتابنا في علم اللغة التاريخى دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى .
ومن المقيده في هذا قراءة :

- مستقبل اللغة العربية المشتركة للدكتور إبراهيم أنيس القاهرة ١٩٦٠ م .
- اكتساب اللغة لمارك ريشل : ترجمة د . كمال بكداش .
- منهجية الترجمة التطبيقية . د - جوزيف ميشال شرايم .
- كتاب العوامل الماثمة النحوية في أصول علم العربية : تحقيقنا ونشر دار المعارف بمصر .
- كتاب العماد في التصريف لعبد الظاهر الحرجاني تحقيقنا ونشر دار المعارف بمصر .

= — كتابنا من قضايا المتون — مبحث في قضية الرمزية الصوتية . . . والمراجع الأفرنجية الآتية :

— Applied Linguistics :

A Survey for language teachers :

Edited by Dr. Monika Kehoc Professor of English .

Chairman, Applied linguistics

Marcanopolis College, Montreal.

— Language Teaching.

A Scientific Approach.

Robertlado.

Dean Institute of languages and Linguistics Georgetown university.

— Language and Language Learning Theory and Practice .

Nelson Brooks yale university.

— Linguistics in language teaching.

D.A. Wilkins

Lecturer in the Department of linguistic Science university of Reading.

— The linguistics Sciences and language Teaching

M.A. K. Halliday Profssor of general linguistics university of london

Angus McIntosh Forbes Professor of English Language University of Edintuigh

Peter Strevens Professor of Applied linguistics University of Esset

— Common Errors in language learning insights from English .

H.V. George.

— Linguistics Across Cultures

Applied linguistics for language teachers.

by Robert Lado.

— Outline of Stratificational Grammar.

by Sydney M. Lamb.

with an Appardix by Leanard E. Newell .

— Fundamentals of Language

Roman jakobson - Morris Halle 1971 Mouton the Hague Paris

الاستئناف النحوي ودوره في التركيب

للدكتور مصطفى النحاس

الملخص

يتعرض البحث لموضوع الاستئناف في النحو ، وتأثيره في التركيب ، سواء من ناحية الاعراب ، أو من ناحية بناء التركيب نفسه ، وما يتبع ذلك من حذف أو تقدير أو توليد جمل جديدة ، أو نقول للفوائد في بعض الجمل .

ويبين البحث أن من الاستئناف ما هو ظاهر ، تنبىء عنه الحركة الأعرابية وحرف العطف الذي يتحول الى معنى وظيفي جديد ، ومنه ما هو خفي ، يحتاج في معرفته الى ادراك وفهم عميق للأساليب . ويشير البحث الى أهمية الاستئناف في تخريج بعض القراءات أو الضرورات أو تعليل بعض اللهجات ، ويفرق بين الاستئناف البياني والاستئناف النحوي .

مدخل :

فصلت عن الأولى : فلم تعطف عليها « (ابن هشام ٣٨٣/٢) : «

ومثله قوله تعالى (٥١ / ١٥ ، ٥٢) :

« ونبئهم عن ضيف إبراهيم : إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما . قال إنا منكم وجلون » .

فجملة « قال » جواب لسؤال مقدر ، هو : فماذا قال لهم ؟ :

ومعنى هذا أن الاستئناف البياني يلزمه أمران :

سؤال مقدر ← فماذا قال لهم ؟

يجدر أن نفرق هنا بين نوعين من الاستئناف

الاستئناف البياني

والاستئناف النحوي .

فالأول : ما كان جوابا لسؤال مقدر

نحو قوله تعالى (٥١ / ٢٤ ، ٢٥) :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين :

إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام

قوم منكرون » :

« فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال

مقدر ، تقديره : فماذا قال لهم ؟ ولهذا

١١- فاعل مأخوذ من السؤال المقدر : قال : ..

والثاني : وهو ما يعيننا هنا : يقصد به عدم تعلّق الجملة نحويًا بما قبلها . تعلّق إتياع أو إخبار أو وصف أو حال أو صلة ؛ أي أنه يؤدي إلى اتصال الجملة المستأنفة عن الجملة السابقة عليها إعرابيا . وقيام حركة إعرابية جديدة تعبر عن معنى الاستئناف كما سيأتى . وقد اجتمع النوعان في قول الشاعر :

زعم العواذل أننى نى غمرة

صدقوا ، ولكن غمرتى لاتنجلى

فجملة « صدقوا » استئناف بياني ؛ لأنها جواب لسؤال مقدر : أصدقوا أم كذبوا ؟ فقيل صدقوا (ابن هشام ٢ / ٣٨٣) وجملة « غمرتى لاتنجلى » استئناف نحوى بـ « ولكن » .

وقد قالوا : إن كل استئناف بياني هو نحوى : وليس العكس .

والمتبع لمفهوم الاستئناف في كتب النحو يلاحظ أنه يأتى بألفاظ مختلفة : وبأسماء متعددة . فسيبويه - مثلا - يطلق عليه : « الابتداء والقطع » جاء في الكتاب (٦٠ / ١) :

« وتقول : ما عبد الله خارجا ولا معن »
ذاهب : ترفعه على ألا تشرك الاسم الآخر في
« ما » ولكن تبتدئه « وفي موضع آخر
يقول (٦١ / ١) : « ترفعه على الابتداء
والقطع من الأول » .

والكسائي يطلق عليه « القطع والمخالفة »
فكلمة (ظريفا) في جملة : رأيت زيدا
ظريفا : منصوبة عنده على القطع : ثم يعرف
القطع قائلا : « أن يكون أراد النعت فلما
كان ما قبله معرفة : وهو نكرة : انقطع
منه وخالفه » (ابن السراج أ - ١ / ٢٦١)

والفراء (١٨٧ / ٢) يطلق عليه :
الاستئناف ، فتموله تعالى : « لاتخاف دركا
ولا تخشى » (٧٧ / ٢٠) ورد في قراءة
حمزة : « لاتخف دركا ولا تخشى » بحزم
(تخف) على الجزاء . ورفع (ولا تخشى)
على الاستئناف .

فالمصطلحات - إذن - أربعة : الابتداء -
القطع - المخالفة - الاستئناف .

وقد يطلق عليه : الفصل .

والذى يبدو أن سيبويه يساوى بين
القطع والابتداء : كما أن الكسائي يساوى
بين القطع والمخالفة ، وكأها بمعنى الاستئناف

وقد جمع ابن هشام بين الجملة الابتدائية
والجملة الاستئنافية فقال (٢ / ٣٨٢) :
« . . . الابتدائية ، وتسمى أيضا المستأنفة »

وهو أوضح ؛ لأن الجملة الابتدائية تطلق
أيضا على الجملة المصدرة بالمبتدأ ، ولو كان
لهما محل . ويبدو أن ابن هشام اعتمد على
المعنى اللغوى للاستئناف ، ففي اللسان (مادة
أنف) الاستئناف : الابتداء ، . . . يقال :

استأنفت الشيء إذا ابتدأته . والابتداء بهذا المفهوم يشمل الحمل الاسمية والحمل الفعلية الواقعة في بدء الكلام . وهذه الحمل لا محل لها من الإعراب . لأنها لا تحل محل المفرد . ويرى ابن هشام أن مصطلح « الاستئناف » أوضح ؛ لأن الجملة الابتدائية تطلق أيضاً على الجملة المصدرية بالابتداء ، وأو كان لها محل . وأيضاً الابتدائية يتوهم قصرها على المفتوح بها النطق . (ابن هشام ١٠٣٨٢/٢ ، الأمير ٤٦/٢) .

والحق أن يفصل بين المفهومين ؛ فالاستئنافية هي الجملة التي تأتي في أثناء الكلام منقطعة عما قبلها صناعياً ، أي أن الاستئناف يؤدي إلى انفصال الجملة المستأنفة عن الحمل السابقة عليها . ولا يضر الارتباط معنى بين الجملتين في هذه الحالة ؛ لأن الارتباط المعنوي لا يستلزم محلية الإعراب ، كما ذكر الأمير في حاشيته (٤٦/٢) .

وإذا نظرنا إلى ما ذكره سيبويه في هذه المسألة نجد أن مفهوم الابتداء لديه كان مرتبطاً دائماً بقطع الكلام عما قبله ، ولم يتعرض لما سماه ابن هشام « الجملة الابتدائية » فالاستئناف عند سيبويه يعني : قطع الحمل عما قبلها نحوياً ، كما يفهم من كلامه .

وهذا هو ما يهمنى في الاستئناف النحوي ؛ لأنه هو الذي يترتب عليه تغيير في حركة

الإعراب ، وقد يؤدي إلى إنتاج جمل جديدة كما سنرى .

تأثير الاستئناف في الحركة الإعرابية :

إن دراسة الاستئناف تهيئنا إلى جوانب مهمة في التركيب ؛ بعضها يتعلق بالحركة الإعرابية ، وبعضها الآخر يتعلق بالتركيب نفسه .

فما يتعلق بالحركة الإعرابية نجد أن الكلمة التي يحكم عليها بأنها بداية الجملة المستأنفة تخرج عن حركتها التي كانت عليها إن الضمة حسب ، فإذا كانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة أو مجزومة ؛ فإنها لا تخرج إلا إلى الرفع .

ومن أمثلة ذلك :

١ - قوله تعالى في سورة الحج (٥/٢٢) :

« لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء . »

وقوله (١٨٦/٧) :

« من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون . »

وقوله (٢٨٢/٢) :

« واتقوا الله ويعلمكم الله . »

بالرفع على الاستئناف في ذلك كله ، إذ لو كانت الواو للعطف لانتصب (نقر) ، ولحزم (يذر) وللزم عطف الخبر على الأمر في الآية الأخيرة ؛

٢ - قول الشاعر :

على الحكم المأني يوماً إذا قضى
قضيته ألا يجوز ويقصد
(ابن هشام ٣٥٩/١)

قالوا وخرجت عن معناها النحوى ، وهو
العطف ، وركبت تركيباً جديداً ، ورفع الفعل
بعدها . ولم ينصب عطفاً على ما قبله ،
وصارت جملة (ويقصد) لا محال لها من
الإعراب . يقول ابن هشام (٣٥٩/١) :
« وهذا متعين الاستثناف ، لأن العطف يجعاه
شريكاً فى النفي ، فيلزم التناقض » .

٣ - « كذلك قولهم : دعنى ولا أعود » ،
لأنه لو نصب كان المعنى : ليجتمع تركك
لعقوبتى وتركى لما تنهى عنه ، وهذا باطل ؛
لأن طلبه ترك العقوبة إنما هو فى الحال ، فإذا
تتيد ترك المنهى عنه بالحال لم يحصل غرض
المؤدب . (ابن هشام ٣٥٩ / ١) ولذا
فالضمة هى الحركة المناسبة للمعنى المراد ،
أما الفتحة من حيث هى علامة النصب على
المعية بعد الواو فتؤدى إلى فساد المعنى ،
ويكون الاستثناف هو المعول عليه فى تغيير
الحركة الإعرابية من : دعنى ولا أعود
إلى : دعنى ولا أعود :

٤ - وقول جميل بثينة :

ألم تسأل الربيع القنواء فى نطق

وهل تسخير نكّ اليوم ببداء سسلق
(البغدادى ٦٠١/٣)

« أى : فهو ينطق ؛ لأنها لو كانت
عاطفة لحزم ما بعدها ، ولو كانت للسببية
لنصب ، ومثله : « فإنما يقول نه كن فيكون »
بالرفع . أى : فهو يكون حينئذ .
وقول الخطيئة :

الشعر صعب وطويل سلّمه
إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زات به إلى الخضيض قدمه
يريد أن يُعربّه فيُعجّبه
أى : فهو يعجمه ، ولا يجوز نصبه بالعطف
لأنه لا يريد أن يعجمه « ابن هشام ١٦٨/١ » .
٥ - ومن أمثلة القراء فى الاستثناف :
« أعطيتك ألفاً ثم أعطيتك قبل ذلك مالا ،
فيكون . . . » .

فهـ « ثم » هنا حرف استثناف ؛ إذ لا يصح
العطف ، لفقدان الترتيب .

ومنه ما ذكره ابن هشام (١ : ١١٨) :
« أعجبتى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت
أمس أعجب » وذلك لأن ما صنعه أمس
لا يمكن أن يكون فى الترتيب بعد ما صنعه
اليوم :

ومن ذلك قول الشاعر :

إن من ساد ، ثم ساد أبوه

ثم قد ساد ، قبل ذلك ، جده (١)

(المرادى : ٤٢٨)

وقال ابن عصفور : ما ذكره الفراء من أن المقصود بـ « ثم » ، ترتيب الإخبار لا ترتيب الشئ في نفسه ، وكأنه قال : اسمع مني هذا الذي هو : بلغني ما صنعت اليوم ، ثم اسمع مني هذا الخبر الآخر الذي هو : ما صنعت أمس أعجب - ليس بشئ ، لأن « ثم » تقتضي تأخر الثاني عن الأول بمهلة ، ولا مهلة بين الإخبارين » (المرادى : ٤٢٨) .

٦ - ومن هذا القبيل قول جرير :

فما زالت القتلى تتمجج دماءها

بدجاجة ، حتى ماء دجلة أشكّل

(ابن هشام ١٢٨/١)

وقول الفرزدق :

فواعجبا ، حتى كليب تسبني

كأن أباه نهشل أو مجاشع

(ابن هشام ١٢٩/١)

يقول ابن هشام (١٢٩/١) : « ولا بد

من تقدير محذوف قبل (حتى) في هذا البيت

يكون ما بعد (حتى) غاية له ، أي :

فواعجبا ، يسبني الناس ، حتى كليب

تسبني .

وتدخل (حتى) على الجملة الفعلية ؛ سواء

كان فعلها ماضياً ، نحو قوله تعالى (٩٥/٧) :

« ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة . حتى عفوا

وقالوا .. » .

أو مضارعاً ، نحو قول حسان .

يُغَشَّوْنَ حتى ما تهزّ كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

(ابن هشام ١٢٩/١)

ومن التعبيرات الشائعة في اللغة المعاصرة :

حتى أنت (يا فلان) ويؤخذ على هذا التعبير

أنه لم يرد قبله كلام ، لكن يمكن حمله على

تقدير محذوف قبل حتى ، مثل : يقسو على

الناس حتى أنت يا (فلان) .. أو يعيرني الناس

حتى أنت .. أو نحو ذلك ، بحسب ما يعمليه

المقام .

تأثير الاستئناف في التركيب :

عرضنا فيما سبق نماذج من تأثير الاستئناف

في الحركة الإعرابية ، ورأينا كيف تخرج

الكلمة الواقعة في بداية الجملة المستأنفة عن

(١) البيت لأبي نواس ، وروايته ، كما ذكر السيوطي (٢٣٦/٥) :

قل إن ساد ثم ساد أبوه قبله ، ثم قبل ذلك جده

حركتها التي كانت عليها إلى الضم . وهذا النوع من الاستثناء يعتمد فيه غالباً على ظاهر العبارة : وما فيها من روابط لغوية (مثل الواو - الفاء - ثم - حتى ..) حيث تخرج عن معناها الوظيفي وهو العطف ، إلى معنى نحوي جديد . هو الاستثناء .

وقد أشرنا في صدر هذا البحث إلى أن تأثير الاستثناء لا يقتصر على الحركة الإعرابية ، بل قد يمتد إلى التركيب نفسه ، وطريقة تأليف الكلام ونظمه . وهذا النوع من الاستثناء (لا ينبغي الاعتماد فيه على ظاهر العبارة . وإنما من روابط لغوية ، بل يحتاج - مع ذلك - إلى قوة إدراك ، وفهم للأساليب العربية ، واحتكام إلى المعنى الذي يتضمنه التركيب .

وقد أشار ابن هشام إلى هذا النوع من الاستثناء ، وقال (٢ / ٣٨٣) : « ومن الاستثناء ما قد يخفى » وله أمثلة كثيرة ، منها

١ - قوله تعالى (٧ / ٣٧) : « وحفّظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ويقتدون من كل جانب . . » فإن الذي يتبادر إلى الذهن أن جملة (لا يسمعون) صفة لكل شيطان أو حال منه . وكلامها باطل ، إذا لامعني للحفظ من شيطان لا يسمع . وإنما هي للاستثناء النحوي .

« وإذا توهمت أنها حال مقدرة فلتعلم أنك مخطئ أيضاً ، لأن الحال المتدرة تعني

أن صاحبها هو الذي يقدر ما تتضمنه ، والشيطان في هذه الآيات ليس هو المقدر لعدم التسميع ، بل الله هو الذي حجبه ومنعه » (قباوة : ٣٧) فجملة (لا يسمعون) لا يصح أن تعرب صفة أو حالا ، لأن هذا لا يتسق مع المعنى المقصود من الآية الكريمة . وهذا يؤدى النحو وظيفة مهمة ، تتمثل في الحكم على تلك الجملة بأنها مستأنزة : فالكلام قد استأنف بعد توقف .

٢ - ومن يقف عند الآية الكريمة : « فلا يحزنك قولهم ، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » (٧٦ / ٣٧) فإنه ربما يتبادر إلى ذهنه أن جملة « إنا نعلم . . . » مقول القول ، وليس كذلك ؛ لأن القول ليس للكفار ، وإنما هو لله عز وجل ، فهى فى الحقيقة جملة استئنافية .

كذا قوله تعالى (٦٠ / ٦٥) : « ولا يحزنك قولهم ؛ إن العزة لله جميعاً » قال ابن هشام (١ / ٣٨٤) : « وهى كالتى قبلها » لأنها ليست من قول الكافرين ولا يعقل أن تصدر عنهم وهم الذين يحاربون الله ورسوله ، وإنما هى استئنافية يثبت الله بها قلب النبي ﷺ ومن معه ، ولذا لا بد من إحداث سكتة لطيفة قبل الجملة المستأنفة .

٣ - وزعم أبو حاتم السجستاني أن من الاستثناء (تثير الأرض) فى قوله تعالى (٧١ / ٢) « قال إنه يقول : إنها بقررة ، لاذلول ، تثير الأرض ولا تسقى الحرث

مسألة لاشية فيها « وادعى أن ذلك من عجائب هذه البقرة ، فهي ليست مذكاة للحراثة والسقي ، ولكنها تثير الأرض كالمذلة والحق أن الأخبار لم تأت بأن تلك البقرة إنما كان فيها عجائب ، وإنما جاءت بأنهم كلفوا بأمر ممكن وجوده ، لا بأمر خارق للعادة ولهذا فإن جملة (تثير) ليست استثنائية ، وإنما هي في محل رفع صفة لـ « ذلول » وجملة (تسقى) معطوفة على « لا ذلول » ، والتقدير لا ذلول مثير الأرض ، ولا ساقية للحرث .

ولو كانت كما زعم أبو حاتم لوجب تكرار (لا) بعد (لا ذلول) لأن القياس يقتضى ذلك ، خلافاً للكوفيين والمبرد « (قباوة : ٣٨) » إذ لا يقال « مررت برجل لا شاعر » حتى تقول « ولا كاتب » (ابن هشام ٣٨٤/٢) . وقد يقال إن (لا) تكررت بقوله تعالى (ولا تسقى الحرث) والرد : أن ذلك إنما وقع بعد الاستثناء على زعم أبي حاتم .

ولكن إذا قصد بالاستثناء الاعتراض جاز في الصناعة ما ذهب إليه أبو حاتم وإن كان المعنى يدفعه وينكره .

٤- ومن هذا النوع من الاستثناء : « جملة العامل الملغى لتأخره ، نحو : « زيد قائم أظن » فأما العامل الملغى لتوسطه ، نحو « زيد أظن قائم » فجملة أيضاً لا محل لها إلا أنها من باب جمل الاعتراض » (ابن هشام ٣٨٢/٢)^{٥١} .

وعند التحليل النحوى للجمل في هذه المسألة نجد أن الجملة الأساسية « قد أصابها التقدير الذي أدى إلى إلغاء بعضها : والحكم على بعضها الآخر بالاستثناء : والجملتان :

(أ) زيد قائم أظن

(ب) زيد أظن قائم^{٥٢}

مأخوذتان من جملة أساسية ، هي :

(ج) أظن زيدا قائماً

وتلك الجملة الأساسية قد أصابها عدة عمليات نحوية ، على النحو التالى :

(د) زيدا قائماً أظن : تأخير (أظن) بوضعها في آخر الجملة .

(هـ) زيد قائم أظن : إلغاء العمل النحوى للفعل (أظن) .

(و) زيدا أظن قائماً : توسط (أظن)^{٥٣} بين معموليها .

(ز) زيد أظن قائم : إلغاء العمل النحوى للفعل (أظن) .

والجملتان (أ) ، (ب) أصلهما المقدر هو الذى تجده في (ج) ، ومن هنا فإن التقدير متصل فيما بينه : وعند ابن هشام أن الجملة (ب) تندرج تحت قضية تقديرية أخرى تخص إلغاء العامل النحوى لتوسطه . أما الجملة (أ) فيمكن أن تكون (أظن) جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب « (ياقوت : ٧٤ ، ٧٥) .

٥- وتعد الجملة الواقعة بعد « أم » المنقطعة من الحمل الاستئنافية ؛ لاستقلالها عما قبلها . وقد وقع خلاف بين النحاة حول المواقع التركيبية لـ « أم » المنقطعة فقالوا :
- تقع بعد الأخبار المختصة : نحو قوله تعالى (٢/٣٢ . ٣) .

« تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين : أم يقولون افتراء »

- وتقع بعد همزة لغير الاستفهام : نحو قوله تعالى (١٩٥/٧) :

« ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها »

- أو الاستفهام بغير الهمزة . نحو قوله سبحانه (١٦/١٣) :

« هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور »

« واختلف في معناها ، فقال البصريون هي بمعنى « بل » ، أي للإضراب ، وبمعنى الهمزة مطلقاً . وقال الكسائي وهشام : هي كـ « بل » وتاليها . أي ما بعدها كمتلوها أي كما قبلها ، فإذا قلت : قام زيد أم عمرو فالمعنى : بل قام عمرو . وإذا قلت : هل قام زيد أم عمرو . فالمعنى : بل هل قام عمرو . . . »

(السيوطي ٥ / ٢٤٢) .

ورد بقوله تعالى (٢٧/٣٨ ، ٢٨) :

« وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »

« فأم » لم يتقدمها استفهام ، وقد استؤنفت بـ « أم » السؤال على جهة الإنكار والرد . ولا يمكن أن يكون ما بعدها موجبا ، فليس مثل ما قبلها .

وقال الفراء : هي كـ « بل » إذا وقعت بعد استفهام ، كقوله :

فو الله ما أدري أسألني تغولت

أم النوم أم كل إلى حبيب
أي : بل كل (السيوطي ٥ / ٢٤٣) .

ورد بأن المعنى على الاستفهام : أي : بل أكل إلى حبيب ، لأنها لما تمثلت لعينه لم يدر أذلك في النوم أم صارت من الغول : لأن العرب تزعم أنها تبدو متزينة لتفتن ، ثم لما جوز أن تكون تغولت داخله الشاك ، فقال بل أكل إلى حبيب ، أي الغول وسلمى كل منهما إلى حبيب .

« وقال أبو عبيدة : هي كالهمزة مطلقاً قال : ومنه قوله تعالى (١٠٨/٢) : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » وجاء في الجمع (٢٤٣/٥) : « هي كالهمزة إن لم يتقدم عليها استفهام »

ويتضح من عرض الآراء السابقة أن الاتفاق قائم على معنى الاستئناف في «أم» المنقطعة. لكن الخلاف في مواقعها التركيبية؛ فأكثر النحاة على أن «أم» المنقطعة هي الواقعة بين جملتين غير متبوعتين بالهزتين؛ أي

همزة الاستفهام وهمزة التنوين المختصين «بأم» المتصلة. أو هي الواقعة بعد الخبر أو أداة استفهام غير الهمزة أو بعد همزة غير استفهام. ويمكن رسم الصور التركيبية لـ «أم» المنقطعة على الوجه الآتي :

الشكل الظاهري للتركيب

البناء الداخلي للتركيب

قام زيد أم عمرو ← قام زيد بل قام عمرو (خبر).
هل قام زيد أم عمرو؟ ← هل قام زيد بل هل قام عمرو؟
||| (استفهام بغير الهمزة).
أزيد قائم أم عمرو ← أزيد قائم بل أقائم عمرو (إنكار).
أزيد قائم أم عمرو؟ ← أزيد قائم بل أقائم عمرو؟
(استفهام بالهمزة).

وفي جميع الحالات وقعت «أم» بين جملتين. وتظهر قيمة هذا الاختلاف في إعطاء صور تركيبية متعددة للجملتين المستأنفتين بـ «أم». هذا إلى جانب ما تضيفه هذه التراكيب من توسعة في الاستعمال.

٦- ويبلغ هذا النوع من الاستئناف قمته في قول سيديويه (٦١/١) :

«وتقول : ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو
لأنك لو قلت : ما زيد عاقلا عمرو . لم يكن
كلما ؛ لأنه ليس من سببه . فترفعه على
الابتداء والقطع من الأول ؛ كأنك قلت
«وما عاقل عمرو» .

ويلاحظ أن الصور الثلاث الأولى تكاد تكون موضع اتفاق ؛ أما الصورة الأخيرة فموضع خلاف واضح ؛ ويظهر الفرق بين الصورة الثالثة والصورة الرابعة من وضع علامة الاستفهام (?) في حالة السؤال ؛ أما في الإنكار فلا حاجة إلى هذه العلامة .
ويقوم التنعيم مقام العلامة في حالة النطق .

فالواو في : ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو ليست عاطفة ، وإنما هي للقطع من الأول ولذا يرفع ما بعدها على الابتداء «ولم يحز نصبه على «ما» لأنك لو ذكرت «ما» ثم قدمت الخبر لم يكن إلا رفعا» (سيديويه ٦١/١) .

ويمكن توضيح ما جاء في هذا النص بالشكل الآتي :

ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو (الجملة الأساسية)

↓

مازيد عاقلا عمرو (جملة غير نحوية)

↓

ما عاقل عمرو (جملة نحوية)

لفظه فقلت : ما زيد ذاهبا ولا محسنا زيد
فذلك جائز أيضا ، لكن رفع « محسن »
أجود من نصبه في هذه الحالة ، حتى يكون
التركيب مكونا من جملتين ، وإن كان
المراد بالاسم في الجملة الثانية نفس الاسم
في الجملة الأولى . أما إذ جئنا بأجنبي كما في
المسألة التي معنا (ما زيد ذاهبا ولا عاقل
عمرو) فعمره أجنبي من زيد ، فإن الرفع
واجب : على القطع والابتداء .

وفي هذا يقول سيبويه (١ / ٦٢) :
« وتقول : ما زيد ذاهبا ولا محسن زيد ،
الرفع أجود ، وإن كنت تريد الأول ؛
لأنك لو قلت : ما زيد منطلقا زيد (١) ،
لم يكن حد الكلام ، وكان ههنا ضعيفا ،
ولم يكن كقولك : ما زيد منطلقا هو ؛
لأنك قد استغنيت عن إظهاره ، وإنما

فالتركيب الأول تركيب نحوي ، بني
عليه سيبويه تغيير الحركة الإعرابية من النصب
عطفنا ؛ إذ لا توجد علاقة تربط ما بعد
الواو بما قبلها - إلى الرفع ابتداء ، والتركيب
الثاني فاسد لأنه بني على النصب ، والنصب
لا يجوز لما ذكرنا من عدم وجود علاقة تجعل
ما بعد الواو يشترك في « ما » : أما التركيب
الثالث فهو نتيجة لما تبين من فساد التركيب
الثاني . ومعنى هذا أن التقطع يؤدي إلى
إنتاج بعض الجمل النحوية من تلك التي
تكون غير نحوية ، كما ينهم من كلام
سيبويه .

والأصل في هذه المسألة أن الاسم الظاهر
متى احتيج إلى تكريره في جملة واحدة
كان الاختيار ذكر ضميره ، نحو : ما زيد
ذاهبا ولا محسنا ، أي هو . أما إذا أعدت

(١) ما زيد منطلقا زيد = ما زيد ذاهبا زيد ، وهي مأخوذة من المثال الأساسي : ما زيد ذاهبا ولا
محسن زيد . وهذه طريقة سيبويه في الكتاب : يستخدم النموذج اللغوي من خلال أمثلة مختلفة ، فمرة يقول :
ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو ، ومرة يقول : ما زيد منطلقا ، ولا قائم عمرو . فالمهم عنده النموذج ، وذلك
دليل على أن النحو عنده تراكيبي .

ينبغي لك أن تضممه ؛ ألا ترى أنك لو قلت :
مازيد منطلقا أبوزيد ؛ لم يكن كقولك :
مازيد منطلقا أبود ؛ لأنك قد استغنيت
عن الإظهار ؛ فلما كان هذا كذلك أجرى
مجرى الأجنبي ؛ واستؤنف على حاله . . .

ويختلف الأمر لو كانت الأداة المصدر
بها التركيب : « كان » أو « ليس » حيث
« يجوز فيها النصب وإن قدمت الخبر ،
ولم يكن ملتبسا ؛ لأنك لو ذكرتها كان
الخبر فيها مقدا مثله مؤخرا ، وذلك قولك :
ماكان زيد ذاهبا ولا قائما عمرو » (سيبويه
١ / ٦١) .

(أ)

مازيد ذاهبا ولا عاقل عمرو

↓

مازيد عاقل عمرو (غير نحوى)

↓

ماعاقل عمرو (نحوى)

ومن هنا وقع الاستثناف في النموذج (أ)
وأدى إلى إنتاج جملة نحوية من تركيب
غير نحوى ، كما أدى إلى تغيير الحركة
الإعرابية من النصب إلى الرفع .

الاستثناف والتفعيد :

للاستثناف أهميته في تقنين بعض القواعد
الخاصة بالتركيب ، أو تخريج بعض القراءات

ويرجع ذلك إلى أن « كان » و « ليس »
كل منهما أصل في بابه . ويجوز تقديم الخبر
على الاسم معها . أما « ما » الحجازية ،
فمن شروط إعمالها : ألا يتقدم ؛
اسمها » وذلك بشئ العمل ، فلا
تتصرف في العمل بأن تعمل النصب قبل
الرفع » (الرضى ١ / ٢٦٧) .

وبالمقارنة بين التركيبين :

مازيد ذاهبا ولا عاقل عمرو

ماكان زيد ذاهبا ولا قائما عمرو

يظهر لنا التحليل الآتي :

(ب)

ماكان زيد ذاهبا ولا قائما عمرو

↓

ماكان قائما عمرو (نحوى)

أو الضرورات : أو تقدير بعض أجزاء
الجملة .

ومن ذلك - مثلا - :

١ - تخريج (لا تخشى) في قوله تعالى

(٢٠ / ٧٧) :

« لا تخاف دركا ولا تخشى »

على الاستئناف في قراءة حمزة : « لا تَخْفُ »
 دركما ولا تخشى « حيث جزم (لا تخف)
 على الجزاء في جواب الأمر : « فاضرب
 لهم طريقا في البحر يبسا » : ورفع (لا تخشى)
 على الاستئناف . كما قال سبحانه (١١١ / ٣) :
 « لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم
 يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » « فاستأنف
 بـ « ثم » فهذا مثله » (الفراء ١٨٧ / ٢) .

« فالواو » و « ثم » في الآيتين السابقتين
 ليستا للعطف ، وإنما هما للاستئناف ، وإلا
 لجزم ما بعدهما عطفًا على الجزاء .

٢- تأويل معاني بعض الحروف ،
 مما يؤدي إلى الاستئناف ، ويتبع ذلك
 الاختلاف في تقدير حركة الإعراب ،
 فقول الشاعر :

ألتقى الصحيفة كي يُخفّف رحلته
 والزاد حتى نعله ألتاها

فكلمة (نعله) تحتل :

(أ) الرفع على أساس أنها مستأنفة
 مرفوعة :

(ب) الجرّ إذا قدرنا (حتى) مثل
 (إلى) فهي تعمل الجرّ .

(ج) النصب بالفعل . (ابن السراج
 ب / ٥٧) .

والنصب بالفعل هنا يقصد به : النصب
 على الاشتغال ؛ أي بفعل محذوف وجوبا
 يفسره الفعل المذكور .

٣- تخريج بعض الضرورات الشعرية ،
 مثل :

(أ) قول الأخطل :

وقال رائداهم ارسوا نزاوها
 فكل حتف امرئ يمضى لمقدار

فالغنى على الاستئناف : أي : ارسوا ،
 نحن نزاوها :

(سيديويه ٩٦ / ٣)

(ب) قول عمرو بن الإطناية :

يامال والحق عنده فقفوا .

تؤتتون فيه الوفاء معترفا

فكأنه قال : قفوا ، إنكم تؤتتون فيه
 الوفاء معترفا .

(سيديويه ٩٦ / ٣)

(ج) قول معروف الدبيري :

كونوا كمن واسبى أخاه بنفسه

نعيشُ جمعا أو نموتُ كلانا

أي : كونوا هكذا ، إنا نعيش جميعا أو
 نموت كلانا إن كان هذا أمرنا

(سيديويه ٩٦ / ٣)

ولكى يفهم السامع معنى الاستثناء في هذه النصوص فلا بد من إحداث سكتة خفيفة قبل النطق بالجملة المستأنفة : وعمل التنعيم المناسب .

٤ - تقنين بعض القواعد الخاصة بالجملة :
ومن ذلك :

« لا يفصل : بين الموصوف وصفته بإلا » .

فلا يقال : « جاءني رجل إلا راكب » لأنها كشيء واحد ، فلا يفصل بينهما ، كما لا يفصل بين الصلة والموصول : ولا بين المضاف والمضاف إليه . ولأن « إلا » وما بعدها في حكم جملة مستأنفة ، والبصفا لا تستأنف ، ولا تكون في حكم المستأنف (السيوطي ٣ / ٢٧٥) .

ومن هنا كانت جملة : جاءني رجل إلا راكب ، لا تجوز عند النحاة . .

وتكون جملة الاستثناء في مثل : حضر القوم إلا زيدا ، ذات بنيتين :

بنية خارجية : حضر القوم إلا زيدا

وبنية داخلية : حضر القوم واستثنى زيدا .

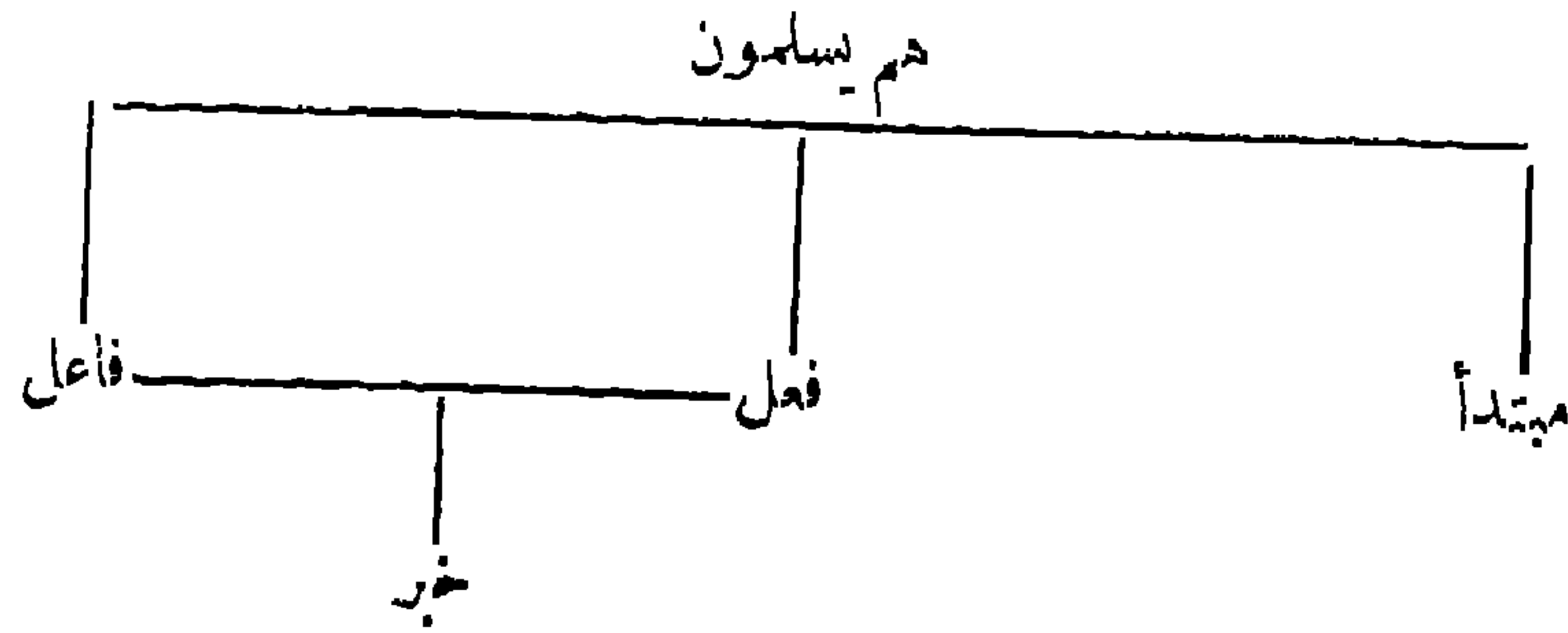
ولذلك يمكن اعتبار (إلا زيدا) جملة مستأنفة : على تقدير « إلا » بـ « استثنى »

٥ - وقد يقتضي الاستثناء تقدير ضهير . يعرب مبتدأ في بعض الجمل . وبعده جملة خبر : نحو قوله تعالى (٤٨ ، ١٦) :

« سُبْحَانَ عَدُوِّنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأُسِّ شَدِيدٍ . تَقَاتَلُونَهُمْ أَوْ يَسْلَمُونَ » .

أى : أو هم يسلمون ، على رأى ابن يعيش (٧ / ٢٣)

وتحليل هذه الجملة يكون على الشكل الآتي :



ومن ذلك قطع النعت إلى الرفع ، على تقدير ضمير يعرب "مبتدأ" ، بعده خبر مفرد ، نحو قولنا :

النكرة محتاج إلى الوصف ، فأكد القاطع بحرف هو نص في القاطع ، أعني الواو .. « ويجوز في المعرفة القاطع أيضا بالواو ، نحو :

اللهم ارحم عبدك المسكين

أى : هو المسكين ، على الاستئناف والقطع :

لا يبعثون قومي الذين هم سم العدا وآفة الجزر

أما النعت المقطوع إلى النصب ، نحو قول الشاعر :

النازليين بكل معتك والطيبون معاقد الأزر

ويأوى إلى نسوة عطّل

وشعثا مراضيع مثل السعالى

ينصب الأول (النازليين) بإضمار «أمدح أو أذكر» ورفع الثانى (والطيبون) بإضمار «هم» على القاطع فيها . ويجوز العكس بإتباع الأول لقومى على الرفع ، وقطع الثانى بإضمار «أمدح أو أذكر» ، كما يجوز رفعها معا ، ونصبها معا .

فقد أجاز بعض النحويين قطع النعت بالواو ، مستدلا بهذا البيت ، حيث أتبع النعت الأول ، وهو « عطّل » وقطع الثانى وهو « شعثا » فنصبه بفعل محذوف تقديره : أخص أو أذم .

(الأزهرى ٢ / ١١٦)

يقول الرضى : (١ / ٣١٦) : « والأعراف مجيء نعت النكرة المقطوع بالواو الدالة على القطع والفصل ؛ إذ ظاهر

ويمكن وضع الصور الممكنة في هذين البيتين على النحو التالى :

لا يبعثون قومي النازلين والطيبون
على القاطع فيها

لا يبعثون قومي النازلون والطيبون
على الإتياع فيها لقومي

لا يبعثون قومي النازلون والطيبين
على الإتياع لقومي على القاطع

لا يبعدان قومي النازلين والطيبين على القطع فيهما

١ - فالمراد يرى بأنه على إضمار الفاء ،
وأن الكلام فيه حذف ، والأصل المقدر هو :
إن قام زيد فأنا أقوم

وهذا يؤدي إلى تقدير أمرين :

(أ) الفاء .

(ب) مبتدأ محذوف « أنا » .

— وسيبويه يرى أن « أقوم » في جملة
« إن قام زيد أقوم » مؤخر من تقديم :
فكأن ؟

إن قام زيد أقوم

أصلها :

أقوم إن قام زيد

وجواب الشرط محذوف ، ويؤيده
التزامهم في مثل ذلك كون الشرط ماضياً ،
وعليه تكون جملة « أقوم » مستأنفة ،
لعدم تعلقها بما قبلها .

وينبني على هذا الخلاف مسألتان :

١ - إحداهما : هل يجوز : زيداً إن أتاني
أكرمته ، بنصب (زيداً) ؟

هذا بناء على أن مفهوم الاستئناف قطع
الجملة المستأنفة وفصلها عما قبلها نحوياً ،
بمعنى عدم تعلقها بما قبلها تعلقاً لإتباع أو
إخبار أو وصف أو حال أو صلة . كما
ذكر الأمير في حاشيته (٤٦ / ٢) .

وبذلك يدخل مفهوم القطع أو الخالفة
عند الكسائي الذي أشرنا إليه في صدر
هذا البحث في الاستئناف . فقد مثل
الكسائي للقطع بقوله : رأيت زيدا ظريفاً .
ثم عرف القطع قائلاً : « أن يكون أراد
النعته ، فلا كان ما قبله معرفة ، وهو نكرة ،
انقطع منه وخالفه » (١) (ابن السراج
أ - ١ / ٢٦١) .

مسائل خلافية :

ذكر ابن هشام في المغني (٣٨٥ / ٢ ،
٣٨٦) أن من الحمل ما جرى فيه خلاف بين
النحويين ، أهو مستأنف أم لا ؟ ومن أمثلة
ذلك :

١ - جملة « أقوم » من نحو قولنا :
« إن قام زيد أقوم » .

(١) الصفة في المثال : رأيت زيدا ظريفاً ، جعلها الكسائي على القطع ، ولم يجعلها « حالا » لأن الصفة
المشبهة فيها معنى الثبوت والازم ، والحال وصف متتمل غالباً . وقد يقع الحال لازمة ، لكن في مواضع معينة ،
كأن تدل على خاتمة ، أو « فجاءت به سبط العظام . . . » أو تكون مسموعة (دعوت الله سميعاً) . . إلخ :

فسيبويه يحيزه ، كما يحيز : زيدا أكرمه .
إن أتاني ؛ لعدم ارتباط (أكرمه) بالشروط
قبلها ، فيمكن أن تفسر عاملا يعمل النصب
في « زيدا » . والمبرد يمنع ؛ لأنه في سياق
أداة الشرط ، فلا يعمل فيما تقدم على الشرط ،
ولا يفسر عاملا فيه .

والثانية : إذا جيء بعد هذا الفعل المرفوع
بفعل معطوف ؛ هل يحزم أم لا ؟
فعلى رأى سيبويه لا يجوز الحزم ؛ وعلى قول
المبرد ينبغي أن يجوز الرفع بالعطف
على لفظ الفعل ؛ والحزم بالعطف على محل
الجملة المقدرة بعد الفاء .

ويمكن تصور ذلك على النحو الآتي :

إن قام زيد أقوم

↓

إن قام زيد أقوم وأكرمه (على رأى
سيبويه)

↓

إن قام زيد أقوم وأكرمه (على رأى
المبرد)

لأن الأصل عند سيبويه :

أقوم وأكرم زيدا إن قام

وعند المبرد :

إن قام زيد فأنا أقوم وأكرمه

ولذلك جاز عنده الرفع على اللفظ ،
والحزم على المحل .

٢ - « منذ ومنذ » وما بعدهما ، في نحو :
« مارأيت منذ يومان »

- فالسيرانى يرى أن « منذ » وما بعدها
في موضع نصب على الحال ، يقول
ابن هشام (٢ / ٣٨٦) : « وليس بشيء
لعدم الربط » .

- ويرى الجمهور أن الجملة أمثلة لثمة
جوابا لسؤال :

(أ) تقديره : عند من قدر (منذ)
مبتدأ : ما أمداً ذلك ؟

(ب) وعند من قدر (منذ) خبرا :

ما بينك وبين لقائه ؟

وذلك على النحو الآتي :

مارأيت منذ يومان

↓ ↓

مبتدأ خبر (جوابا لسؤال مقدر :
ما أمداً ذلك ؟)

مارأيت منذ يومان

↓ ↓

خبر مبتدأ (جوابا لسؤال مقدر :
ما بينك وبين لقائه ؟)

ويكون المعنى على الأول : إلامد يومان

وعلى الثاني : يومان بينى وبين لقائه .

٣- ومن مسائل الخلاف التي ذكرها ابن هشام (٢ / ٣٨٦) : جملة أفعال الاستثناء (ليس ولا يكون وخلا وعدا وحاشا)

٤- فالسيرا في يرى أنها حال ؛ إذ معني :

« قام القوم ليس زيدا » قام القوم خالين عن زيد

وجوز السيرا في مع ذلك الاستثناء .

— وأوجب ابن عصفور الاستثناء في هذه الجملة . فإن تغير تركيب الجملة ، بأن قلنا : جاءني رجال ليسوا زيدا —

بتذكير المستثنى منه ، وظهور الضمير مع ليس ، خرجت الجملة عن الاستثناء ، ولأمانع من إعرابها صفة ؛ لاستيغناء الجانب الشكلي لجملة الصفة .

الاستثناء النحوي والاستثناء البياني :

تقدم أن كل استثناء بياني هو نحوي ، وليس العكس ، وذلك لأن الاستثناء البياني يقوم على عنصرين مهمين :

(أ) سؤال مقدر .

(ب) فعل مأخوذ من السؤال المقدر .

ولا يتحقق هذان في الاستثناء النحوي :

— فمثلا في قوله تعالى (١١ / ٦٩) :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام » .

سؤال مقدر : فماذا قال لهم ؟

والفعل المأخوذ من هذا السؤال : قال .
وجملتا القول استثناء نحوي :

— وفي قوله تعالى (٢٤ / ٣٦ ، ٣٧) :

« يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال »

بفتح باء « يسبح » على قراءة بعضهم .

السؤال المقدر : من يسبح ؟

والفعل المأخوذ منه : يسبح (وهو غير مذكور) .

والجملتان استثناء نحوي .

من هنا خص البيانيون الاستثناء بما كان جوابا لسؤال مقدر ، ويعدّه النحويون استثناء نحويًا ، لأنه منفصل ومقطوع عما قبله إعرابيا ، ولا تضر العلاقة المعنوية ، « لأن الارتباط المعنوي لا يستلزم محمية الإعراب » (الأمير ٢ / ٤٦) .

ومما تقدم يتضح :

١- أن الاستثناء النحوي نوعان :

(أ) نوع يتضمن الحمل المقطوعة عما

قبلها بوساطة حرف من أحرف

العطف الآتية : أو — الواو —

الفاء — ثم — حتى — أم المنقطعة —

بل — لكن .

ويمكن تسميتها : أحرف القطع ، لأنها

تقطع الجملة عما قبلها ، بمعنى أنها يستأنف

بها كلام جديد ، وإن كانت في الأصل

للعطف .

وهذا المعنى قريب من المعنى الذى قصده أبو جعفر النحاس من كتابه : « التقطع والائتناف » فهو يقصد بالتقطع : الوقف . وبالاائتناف : الابتداء . وذلك لأن أحرف التقطع تقطع الكلام عما قبله صناعيا (نحويا) نهى تقوم مقام (السكت) فى الوقف الاختيارى ، الذى سماه أبو جعفر التقطع . فالواو - مثلا - فى حالة الكتابة تقوم مقام السكت فى حالة النطق . وقد تعرضنا لهذا الموضوع فى مكان آخر^(١).

(ب) ونوع يحتاج إلى فهم وإدراك وتعمق ؛ سواء تضمن حرف عطف أو لم يتضمن .

وقد أشار إليه ابن هشام بقوله (٢ / ٣٨٣) :

« من الاستئناف ما قد يخفى » وله أمثلة كثيرة .

٢ - أن للاستئناف دورا كبيرا فى تخريج بعض القراءات القرآنية مثل قراءة :

« يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال »

ومثل قراءة : « لا تخف دركا ولا تخشى » وفى تخريج بعض الضرورات الشعرية . كما سبق .

بل قد تخرج عليه بعض النهجات . مثل لمجة « أكلوني البراغيث » التى جاء عليها قوله تعالى (٢١ / ٣) :

« وأسروا النجوى الذين ظلموا » فيعرب « الذين » على الاستئناف كما ذكر الفراء (٢ / ١٩٨) .

٣ - أن للاستئناف دورا فى تقنين بعض القواعد الخاصة بالجملة : مثل قاعدة « عدم الفصل بين الموصوف وصفته ؛ إلا » . وأن « إلا » وما بعدها تعد فى حكم الجملة المستأنفة . كما بينا . وكذا قواعد المنعت المقطوع .

٤ - أن الاستئناف قد يقتضى تقدير ضمير يعرب مبتدأ فى بعض الجمل : كما قد يقتضى توليد أو إنتاج بعض الجمل النحوية ؛ وقد وضعنا ذلك فى الأمثلة التى ذكرها سيبويه وغيره .

٥ - وقد يكون الاستئناف النحوى جملة قول : إحداهما سؤال مقدر ، والثانية جواب هذا السؤال . وهذا ما يعرف عند البهائيين بالاستئناف البهائى .

(١) ينظر :

(أ) الفواصل الصوتية فى الكلام وأثرها على المواقع النحوية : المجلة العربية للعلوم الإنسانية - الكويت العدد ٢٤ .

(ب) اندلالات النحوية بحروف المصاحبة لبعض التراكيب : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - العدد ٦٤ .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الأمير (الشيخ محمد الأمير) .
حاشية الأمير على مغنى اللبيب لابن هشام - القاهرة د . ت
- ٣ - البغدادى (عبد القادر بن عمر) :
خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٤ - الرضى (محمد بن الحسن ، ت : ٦٨٦ هـ) :
شرح الكافية - حيدرآباد ، د . ت
- ٥ - ابن السراج (أبو بكر بن السراج ، ت : ٣١٦ هـ) :
(أ) الأصول فى النحو ، تحقيق عبد الحسين النشلى - بغداد ١٩٧٣ .
(ب) الموجز فى النحو ، تحقيق مصطفى الشويىمى : وبن سالم دارجى - بيروت ١٩٦٥ .
- ٦ - سيديويه (أبو بشر عمرو بن قنبر . ت : ١٨٠ هـ) :
كتاب سيديويه ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٧ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ، ت : ٩١١ هـ) :
جمع الخوامع ، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم - الكويت ١٩٧٩ .
- ٨ - الفراء (أبو زكريا يحيى ، ت : ٢٠٧ هـ) :
معانى القرآن ، تحقيق أحمد يوسف نجاشى ، ومحمد على النجار - القاهرة ١٩٥٥ .
- ٩ - قباوة (فخر الدين) :
إعراب الحمل وأشباه الحمل - دمشق ١٩٧٢ .
- ١٠ - المرادى (الحسن بن قاسم ، ت : ٧٤٩ هـ) :
الحنى الدانى فى حروف المعانى ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دمشق ١٩٧٣ .
- ١١ - ابن هشام (جمال الدين بن يوسف . ت : ٧٦١ هـ) :
مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ، د . ت
- ١٢ - ياقوت (محمود سليمان) :
قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين - القاهرة ١٩٨٥ .

اللغة العربية والمنهجية العلمية المعاصرة

للككتور أحمد سليم سيدان

ما أحلى العودة إلى مصر ! أعود إليها كما
يُعود الطفل إلى حضن أمه .

أم الدنيا مصر . منها تلتئمنا غذاءنا الروحي
والنكري . أيام الطفولة والشباب : كنا
نتلقى بينهم ما تصدره مصر من مجلات المقتطف
والهلال . والرسالة والرواية ، والسياسة
السياسية ، ونتلقى بشغفٍ ما يخرج من
مطابعها من كتب المنفلوطي وطه حسين
والعماد والمزني . وما تنشره صحفها من قصائد
الشوقي وحافظ وخليل مطران . سقى الله تلك
الأيام ! لم يكن فيها ما يشغل أوقات فراغنا
سوى قراءة ما يرد علينا من مصر . وكان
ذلك بحق مادة دسمة ، موجهة ومسلية ،
يحملها فطرة صافية وذوق رفيع يحببنا باللغة
وأهلها .

وكم تطورت الدنيا ! وكم تغيرت الأحوال !
وسائل النقل القديمة عفى عليها الزمن ،
وجاءتنا السيارات والمطارات والطائرات .

ووسائل التسلية القديمة عفى عليها الزمن ،
وملأت دنيانا أجهزة السينما والراديو والمسجلة
والتلفاز والفيديو ، فوضعت اللغة العربية
والإنتاج العربي في مواجهة مع الإبداع العالمي
وما يرافقه من إغراءات ومشوقات : وغداً

أو بعد غد سيعود الحاكى إلى الظهور ، ولكن
بأسطوانات تغطي الصوت والصورة ،
وسيطور الهاتف فيغدو جهازاً يرى فيه
المتخاطبان كل منهما الآخر ، في مكتبته أ
أو ملعبه أو مضجعه ، وإن غداً لناظره قريب
وبعد غد يعلم الله وحده ما سيكون ، ويعلم
الناس أن ذلك كله لبداع غربي لا يدلنا فيه ،
ولا غنى لنا عنه .

تطورت العلوم والتقنيات ، وما كنا نشقى
به أيام الدراسة غداً في الأوليات أو في المهمات
العقل البشري هذا القابع في تلافيف دماغ
صغير ، جاء بالمعجزات : فحجر الطاقة الذرية ،
وصنع الصواريخ عابرة القارات ، والأقمار
الاصطناعية ، والسفن الفضائية ، ودخل عصر
سباق الفضاء .

« قل إن شئتم أن تنفذوا من أقطار السماوات
والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان »
وأى سلطان هذا الذي ينفذ من أقطار السماوات
والأرض ، فينزل إلى القمر ، ويحوم حول
المريخ ، إلا سلطان العقل البشري !

تطورت الدنيا وتغيرت الأحوال . وتفجر
المعارف العلمية رافقه تفجر في عدد السكان ،
واستدعى ذلك تطوير وسائل التعلم والتعليم ،
فاستجابت له البلاد المتقدمة ، وصارت تقدم
المعارف والعلوم لأبنائها بأساليب فيها الجاذبية

وفيها الإيماء والتشجيع ، وفيها التطوير الدائم .
ووضع التلفاز هذا كله في مواجهة مع أساليب
التعليم العربية ، كما وضع الابداع في مواجهة
الإنتاج اللغوي العربي .

كل هذا وشيء واحد ظل على حاله ،
لم يمسه تغير ، أعنى به العقلية العربية . وأستغفر
الله ! لقد تدهور الذوق العربي وراح الفكر
العربي في أجازة طويلة وخدر لذيذ . أنه في
حالة كمون .

كنا في شبابنا نتغنى بالغزل العذري بلا حرج
ونمثل روايات مجنون ليلى ومصرع كليوباترة
بلا حرج ، فتزداد هياماً باللغة والشعر لأننا
نجد فيهما متنفساً لعواطف مكبوتة . لقد عشقنا
الشعر الحميل والذوق الرفيع . واليوم في عصر
التزمت الذي يحاصرنا في كل مكان ،
استعاض أبناءنا وأحفادنا عن ذلك بنقائص
جرير والفرزدق على شاشة التلفاز ، في
البرامج التربوية ، كم رأينا شخصين باللبسة
بدوية مهلهلة ، يقف أحدهما فيملاً الجو
فخراً بجذوده ويوسع زميله شتماً ، وزميله
جالس كالصنم ، لا يتحرك له طرف ،
كأنه لا يرى ولا يسمع ، حتى إذا أفرغ ما في
جمعبته جلس ، ونهض زميله فكال له الصاع
صاعين ، ورد له تحيته بمثلها أو بأحسن منها ؛
ثم يمضيان ، ويظهر المعلم على الشاشة فيشيد
بما في القصيدتين من براعة الاستهلال ،
وروعة التشبيهات ، وجمال المحسنات اللفظية

وحسن اختيار الألفاظ . أما المحتوى ،
أما الجوهر مجرداً عن المظهر ، أما ما في النص
من إيجاعات لا أخلاقية ، وما في الأداء من
سذاجة لا أدبية ، فليس لهذا كله من هم
المعلم واهتمامه نصيب .

يجري ذلك وبعده وقبله يعرض التلفاز
برامج تربوية أجنبية فيها الإبداع والحادثة
وفيها الجمال الحق ، ولكن في خلفيتها حياة
غير حياتنا وعادات غير عاداتنا . أن التلفاز
يجعل العالم الكبير صغيراً ويجمعه على رقعة
الشاشة الصغيرة . صحيح أن التلفاز سلاح
ذو حدين . لو كان ما يعلم المعلم طلابه ما يزال
كما كان ، قاصراً على عدد محدود ، في غرفة
مغلقة ، لكان الأمر أهون . ولكنه درس في
الهواء يسمعه ويتدارسه كل من ألقى السمع
وهو شهيد .

أتريدون مثلاً على غياب الذوق السليم
السديد ؟

بالأمس القريب التقيت بكاتب أديب
شاعر ، له كتب تنشر وتصدر منها طبعات
كان عائداً لتوه من المربد في بغداد . قلت
له : كيف كان حال الشعر في المربد ؟
فأجاب على الفور « زفت ! كلام معاد
مكرر يصم الآذان . بيت واحد فقط صفقت
له لأنه يحمل معنى لم يسبق إليه » . قلت :
وما هذا البيت ؟ فقال : كان الشاعر يرثي
الشهيد ، فقال :

أن كنت في الأحياء رقماً ناقصاً
فلأنت في الأموات رقم زائد

قولوا لي: ما الخلة في هذا البيت ؟ وما
إشاعرية في عبارة تقول : نقص الأحياء
واحداً وزاد الموتى واحداً ؟

وأى ذوق سليم يصفق لهذا الكلام في زمن
تفتق فيه الذهن البشري عن أعاجيب علمية
وتقنية ؟ أليس تفسير الماء بعد الجهد بالماء
أسلم ذوقاً وأقل غباء ؟ أليس الفكر السليم
في أجازة أو في كبر ؟ ستقولون : قضية
فردية . وإنيكم ما يلي : أذهب إلى الجامع
للاصلاة ، فأجد المقرئ يرتل آيات القرآن
الكريم بصوت رخيم ، والناس من حوله
صامتون خاشعون ، لا نائمة إلا من ابتهاج
إلى الله ، بين الفينة والفينة ، أو صلاة على
النبي ، ويرفع المقرئ صوته فجأة فترتفع
أصوات الحاضرين ، كباراً وصغاراً ،
بالابتهاج والصلاة على النبي ، لانتجاوبا مع
معاني الآيات وإنما تجاوبا مع الصوت . إنها
حرمة المسجد وصوت المقرئ تدفعان الناس
إلى الخشوع ، أما معاني الآيات فليس لها
من فهم الناس نصيب . فهم لا أن يفهموا ،
بل أن يطربوا ، وقد لا يخلوا خشوعهم من
بعض التظاهر . ماذا تقولون أيها السادة في فكر
ما يزال منذ قرون يعتبر من روائع الأدب
كلمة قالها وال يشتم من تولى عليهم بقوله :
يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ؟
ماذا تقولون في أغنية ما زلنا منذ أكثر من
خمسين عاماً نسمعها في الأعراس وصار

يرقص على نغماتها شباب اليوم تقول للعروس :
زوجناك رخيصة وسنطلقك بشتم نحس ؟
أى شيء في مثل هذا الكلام السقيم ضمن له
هذا البقاء الطويل ؟

أرائي أيها السادة لا أتجنى على الفكر العربي
إذا قلت إنه في أجازة ، إلا من هدى الله .
ولم أسمع صوت الإنتاج الأدبي العربي
يرن في فراغ . كأننا منذ نشر المستعربة
بيئتنا أسلوب المحسنات اللفظية في أواخر العصر
العباسي ، تشبهنا بأسلوب « لبس البوصة
تصبح عروسة » ، فأكثر إنتاجنا الأدبي بهرجة
كلام « تلبس بوص » ولعل هذا بالإضافة
إلى مواجهة الفكر العربي للفكر العالمي عن
طريق التلفاز ، ما دعا بعضاً منا إلى مقت
الفكر العربي بعمامة ، والاستهانة به : أو مقت
الإبداع العربي ، من قبيل رد الفعل ، أو إلى
رجعة لا هوادة فيها إلى أصول اللغة يوم كانت
لغة بدو لا ليس فيها من ألفاظ الحضارة إلا قليل
يبنون عليها برامج من قبيل « قل ولا تقل » .

وأنا أيها السادة أصب أكثر إتهاماً على
معلمي اللغة العربية . هل رأيتم معلماً يشجع
طلابه على ابتكار مشروع جديد أو فكرة
جديدة ؟ هل ينصرف اهتمام معلمي العربية
إلى أكثر من مراعاة القواعد الصرفية والنحوية
والمحسنات اللفظية ؟ أتذكر أحياناً قولاً :
« فاقد الشيء لا يعطيه » فيرد إلى ذهني سؤال
يقول : أما آن لهذا الفاقد ، في عصر سباق
الفضاء وتفجر المعارف ، أن يتقدم ما فقد ؟

أما أن للفكر العربي أن يستيقظ من سباته ؟
لا تحسبوني يا سادتي أنظر في الأمر بعين
السطح التي تبدى المساوي ، فأنا إنما أنظر
بعين الطبيب الذي يشخص الداء ليصرف
الدواء . ومعدرة لأن كنتم : في أول مسرة
أتشرف فيها بالمثل أمامكم ، تجدون فيما قلت
أو سأقول : مالا تحبون . فكل ما أتمناه هو أن
تنظروا في قولي بلهين ومنتج بزن الأمور
بمعزل عن كل اقتناعات وانطباعات سابقة ،
وبهدف العمل على ضمان مستقبل أفضل
للعرب والعربية .

والسأء الذي شخصته وسميته غياب الفكر
العربي أو غيبوبته سماه غيري أزمة فكرية .
وعلامات هذا الداء : أزمة كان أو غيبوبة
سطحية في التفكير تجعل أحيانا حلد الفراغ
الفكري ، وتشبث بالماضي ، كأن ليس
بالإمكان أفضل مما كان ، ويستتبع ذلك
جهد ضائع وفشل ، وقرارات خاطئة تزيد
الأمور تعقيدا وبعدا عن الصواب ، ذلك
أن الماضي غير الحاضر . وانزمان يجري
بنا بسرعة البرق .

وفي سبيل وصف الداء أتساءل : ماذا
يمكن أن يكون سبب هذه الأزمة الفكرية
وقد كانت النهضة العربية الحديثة ، في أيام
طفولتنا وصباها ، تمضي في طريق سديد؟
والسبب يراه العسكريون والسياسيون
والاجتماعيون والاقتصاديون ، كل كما

يوحيه له مجاله الفكري . وما أراه أنا
من حقل التربوي ، أننا بعدنا عن روح العصر
عصر التفجر العلمي : منذ قبلنا مناهج
تربوية تقيم بين العلم والأدب برزخا لا يبغيان
ومن ثم فالدواء الذي أصنعه يبدأ بإشاعة
المنهجية العلمية المعاصرة في جميع مجالي حياتنا
اليومية . الفكرية والعملية .

لأن روح العصر روح علمية . لم يعد العلم
كما كان في الماضي . ثقافة كمالية . لأنه
اليوم ضرورة حضارية وسلاح في معركة
ننازع البقاء . والمنهجية العلمية هي وليدة
العلم . ولكنها ليست مقصدية على مجالاته
فهي أساوب في الحياة الفكرية والعملية
بعمامة يضمن سلامة المسيرة ، ويضمن اتخاذ
القرارات الأقرب إلى الصواب .

والمنهجية العلمية كانت في الأصل شبه
غربال يتقبل في حقل العلم كل ما يؤيده
دليل منطقي أو تجريبي لحصائي ويستبعد ما
لا يقوم على صحته دليل ، مما ينحدر من
اقتناعات أو أوهام أو تجارب ساذجة تقريبية
وهي اليوم مبدأ فكري يتمشى مع قول
القرآن الكريم : وفوق كل ذي علم عليم .

ومع قولة قلنا آخذ أعلام العرب : هم
رجال ونحن رجال ، ومن مبدأ أن لا رأى
لميت : ذلك أن الحي أدري بزمانه وأحواله
من الميت . لأن المنهجية العلمية المعاصرة ترى
أن كل ذي حياة هو في تطور دائم وأن
المعارف الإنسانية تراكمية يزيد فيها كل

جيل على ما سبقه ، ومن ثم فأحياء اليوم هم أدري بأمور الدنيا من أحياء الأمس ذلك أنهم استنادوا من علوم سابقهم وخبراتهم وزادوها سعة ، كمن يتمف على أكتاف مارد قيرى أبعد مما رأى المارد ويطل أكثر مما طاله .

من هذا المنطلق فإن لغة أية أمة حية هي كيان حي من صنع هذه الأمة قابل للتطور وقابل للتطوير. فالحياة هي التطور ، والتطوير هو أكثر أعمال الأحياء ملاءمة للحياة . إن اللغة ، أى لغة ، مهما اعتز بها أهلها ، تبقى أداة لتبادل أفكارهم والتعبير عن ذات بينهم . لأنها قنوات تجري فيها الأفكار ، وهى قنوات مرنة قابلة للتوسع والضييق قابلة للانقباض والانبساط تمتد وتنسبط إذا امتدت آفاق الفكر وانبسطت ، وتضيق وتنقبض إذا ضاقت آفاق الفكر وانقبضت لذا قالوا إن لغة أية أمة هي مرآة فكر الأمة .

واللغة العربية هي من هذا القبيل . صحيح أنها أعرق اللغات الحية ، وهى التى شرفها الله بأن أنزل بها كتابه الكريم . ولكنها مع ذلك تبقى بيننا أداة تفاهنا والتفاهات التى فيها تتشكل أفكارنا وتجري . ومن ثم فالتطور قدر مكتوب عليها كما هو مكتوب على كل ذى حياة ، مهما غالى المغالون فى معاداة التطور والتطوير .

وتطور اللغة يكون بهجران ألفاظ قديمة لم تعد الحاجة تدعو إليها أو صار الذوق

يتمسك بها . ويكون بإكساب ألفاظ قديمة معانى جديدة ، أو بصياغة ألفاظ جديدة لتدل على معانى مستجدة . ويكون التطور أيضا باقتباس ألفاظ من لغات أخرى ، مع تحوير أو بلا تحوير .

ومن الأمثلة على الألفاظ التى هجرت أو نسيت لأن الحاجة لم تعد تدعو إليها : لفظة السراج . فمن من شباب اليوم يفهم حافظ إبراهيم يرحمه الله فى قوله :

لىلى سراج حياتى

خبىسا فما فيه زيت

ومن الأمثلة على الألفاظ التى اكتسبت معانى جديدة لفظة التواجد التى ما يزال اللغويون يرفضونها . إن التواجد الذى كان يعنيه أهل الطرق الصوفية لم يعد قائما فى هذه الأيام ، فما بال اللغويين يرفضون أن « يتواجد الفريق فى رحاب الملعب » بمعنى أن يجد بعضهم بعضا . إن أكثر المصطلحات العلمية من هذا القبيل فالمصطلح سعى مصطلحا لأن أهل الاختصاص اتفقوا على استعماله للدلالة على مفهوم غير معناه القاموسى . وإن فى محاولة بعض الجماعات تغيير المصطلحات كيما تتفق مع معانيها القاموسية جهدا ضائعا وافتئاتا على أهل الاختصاص لا يرضون به . ولو تركت هذه الجماعات محاولاتها هذه لكان خيرا . والذوق العام كفىل بتقويم المعوج على مر الزمان .

ومن الأمثلة على صياغة ألفاظ جديدة لتدل على معاني مستجدة كلمة التقييم ، بمعنى تقدير القيمة . وهذه أيضا كلمة لا يرضى بها اللغويون . فليت اللغويين يوفروا جهدهم لئلا هو أجدى وذلك ما سأشير إليه عما قريب .

وأما عن اقتباس ألفاظ من لغات أخرى فاذكر كم أيها السادة بأن معظم ألفاظ الأزهار والنباتات والخضراوات التي وردت علينا من غير الجزيرة العربية أخذها العرب بأسمائها كما ينفج والقرنفل والياسمين ، والتفاح والرمان ، والبرتقال ، والبنقدونس والزعرور والطماطم . فليتنا اليوم نأخذ الآلات التي ترد علينا بأسمائها ، تاركين تطوير ألفاظها للذوق العام ، كي تنصرف إلى ما هو أولى وأجدى . إن علماء الطب والصيدلة يلحون على التمسك بأسماء علمية للأعراض والأدوية والعقاقير ، رغم ما قد يكون لها من أسماء كيميائية ، أو ألفاظ دارجة . وإن في محاولة تعريب هذه الأسماء والألفاظ وقتنا ضائعا وجهداً مهدوراً ، في عصر يرد عليه في كل دقيقة لفظ علمي جديد . هل هي عقدة نقص تدفعنا إلى هدر هذا الوقت والجهد ، أم هو البحث عن عمل في عصر ما يزال فيه الفكر ينعم بغفوة أهل الكهف ؟ إن ثمة تحدياً كبيراً يواجه المجامع اللغوية واللغويين والكتاب والأدباء ، فليتهم يوفروا بعض الوقت والجهد المهدورين لمجابهة هذا التحدي الكبير .

والتحدي الذي أقصده هو أن التكنولوجيا الحديثة وضعت اللغة العربية وما يصدر فيها

من كتابات في مواجهة مع الإبداع العالمي . فإن لم يتكاتف كل المبدعين العرب في مواجهة هذا التحدي فإن اللغة العربية ستظل تظهر : حتى في أعين العرب أنفسهم ، عاجزة عن اللحاق بالركب ، وسنظل نعقد المؤتمرات لننهي ضعف الطلاب باللغة العربية .

وفي تقديري أن المنهجية العلمية المعاصرة تشير إلى الطريق الأسلم لمواجهة هذا التحدي . والطريق الأسلم في نظري ينطلق من مبدئين :

أولهما : التسليم بأن اللغة كيان متطور ، وهذا يجعل اللغة العربية في أي عصر هي جماع ما يصدر عن الكتاب والأدباء من العلماء ، والصحف في ذلك العصر . ومن ثم فن واجبات اللغويين والمجامع أن يصدروا في كل قرن من الزمان قاموساً يرصد ما يستعمله الناس في كتاباتهم من ألفاظ ويحدد معانيها الجديدة . وهذا يقتضي التحلل من قيود التشبث بالمعاني القديمة . ويوفر بعضاً من الوقت الذي يذهب سدى في إخضاع المصطلحات العلمية إلى المعاني القاموسية التقاليدية .

والمبدأ الثاني : أن لغوي اليوم لهم من الإمكانيات والخبرات والمعرفة باللسانيات وتطور اللغات ما يجعلهم أقدر من علماء الأمس ومعهم أبو الأسود وسيبويه والكسائي ومن تبعهم من لغوي البصرة والكوفة ، على عرض قواعد اللغة على نحو يجعل الإسلام بها أسهل

من الإنشاء باللغات الأجنبية التي تفرضها عليهم
العاهد التعليمية. وتجعل العربية أحب إليهم
من اللغات الأجنبية. إن الأمر يحتاج إلى مزيد
من الثقة بالنفس ، ومن بذل الجهد ، مع
الاهتمام بالجوهر ، والتخلي عن أكثر الشكليات
من أمثال الخمسات اللفظية ودرجة الكلام. ^١
إنه يحتاج إلى عقلية جديدة .

هذان المبدأان هما أول الطريق لخجاجة التحدي
الكبير الذي أشرت إليه . أما الخجاجة المباشرة
لهذا التحدي فتتم بأن ينبرى المبدعون من
الكتاب والأدباء والشعراء بتزويد القراء
العرب . أطفالاً وشباباً وكهولاً ، بقصص
وأدب وشعر وبحوث وبرامج تسلية وترفيه
فيها من الخيال والإبداع ما يرضاه ما تعرضه
البرامج الأجنبية ، ولا حرج في أن يكون
بعض ما تعرضه : بل أكثره ، في المراحل
الأولى مترجماً أو مقتبساً أو مبدعاً .

وغنى عن البيان أن خير من يتصدى لهذا
كله مبدعون تملسون بالمنهجية العلمية المعاصرة
حتى جرت في عروقهم مجرى الدم . فتعلموا
وأزعموا أن يعلموا الناس أن الجوهر قبل
الظهور ، وأن الإبداع يعني ابتكار أفكار
جديدة ويعنى التطوير ، وأن التحدي الأول
الذي يجب أن يواجهوه هو إيقاف التفكير
العربي من غفوته . وإخراج المارد من قمقمه

وإنه ليخيل إلى أن التشكيكية أمر تغفل في
الذهن العربي حتى صار جزءاً منه . خبرت

ذلك في محاضرات ألقيتها أو استمعت إليها
مما يحمل أفكاراً جديدة مفاجئة ، وكنت أتوقع
أن أسمع تساؤلات أو مداخلات أو اعتراضات
على الأفكار ، وإذا بالتعليقات تنصب على
الشكائية : هنا خطأ نحوي ، وهنا لفظ في
غير موضعه . لا ريب أن الخطأ ينبغي أن
يصحح . ولكن نعيب الخطأ إذا وقع في
كلام مكتوب ليقرأ ، أما في لغة الحديث ،
وفي خطاب كتب ليلقى ، قد يبدو الاعتراض
حذقة : لا سيما إذا كانت الأفكار الواردة
في الحديث أو الخطاب مما يستدعي النقاش
والجدال . ولعل هذه الحذقة هي ما يجعل
كثيراً من المثقفين العرب يحجمون عن الكلام
ويتأثثون إذا تكلموا .

إن في كل لغات العالم . وبالأخص اللغات
المتقدمة ، لغة كتابة ولغات حديث . أما لغة
الكتابة فهي واحدة في جميع أقطار الأمة
الواحدة . وهي التي يصور بها فكر الأمة
وأدبها وسائر فنونها المكتوبة ، وهي التي
نعنيها عندما نتكلم عن مراة الفكر وقنواته .
وأما لغة الحديث فتختلف في الأمة الواحدة
من قطر إلى قطر وقد تختلف من بلد إلى بلد .
لأن وقد تجد الأمة في اختلاف لغات الحديث
فيها مادة للتندر . ولغة الحديث في الأمة تقارب
لغة الكتابة كلما تقدم المستوى الثقافي فيها .
ولغة الكتابة في العربية هي ما نسميها اللغة
النصحى وهي . والحمد لله ، واحدة في
جميع أقطار العالم العربي . ولغات الحديث

عندنا هي اللغات العامية النادرة . وهي كثيرة ، وتقارب الفصحى كلما ارتفع المستوى اللغوي ، ولكنها تبقى في حل من قواعده الإعراب . ولكن أكثر اللغويين ، إذ يشكون من الفراغ التكري ، يجدون في اللغة النادرة ما يحامون عليه ويتحاملون ، في مجالس خاصة وفي ندوات عامة . وفي تقليدي أن هذا هو السبب في أن أكثر العرب ، من بين رجال العلم ، يؤثرون إذية كلمون أمام الجماهير ، ذلك أنهم بدل أن يفكروا في الأفكار التي ينبغي أن تعرض ، يفكرون في تطبيق قواعد الفصحى على العامية ، خوفاً من المتحذلقين .

مرة أخرى أقول : ليلنا نطابق الفكر من عقله ونتخلى عن هذا « لبس البوصة » .

إن اللغة كالشجرة بحاجة إلى تغذية وسقاية ورعاية وتشذيب كي تنمو وتثمر ثمراً يانعا . وكل اعتزاز بها أو تقديس لها ينبغي ألا يحول دون السقاية والتشذيب . والسقاية إنما تكون بالاعتباس ، والاعتباس عملية حضارية شريطة ألا تسير لغة أخرى على اللغة الأم . وسطور لغة دخيلة على اللغة الأم يكون بتفصيل اللغة الدخيلة في المؤتمرات وقنوات الإعلام ، والمحاضرات والتعليم والإعلانات . وحسب ما يقتضى الولاء للأمة والوطن محاربه والإجهاز عليه . أما الاقتباس . اقتباس المصطلحات ، حتى والتعبيرات والأمثال والكفايات ، فذلك كله في رأي ما لا ينبغي أن نبرم به . إن

النوق للعربي العام كنيل بتقويم العوج . والعرب المختصون بالحقول العلمية ليسوا أقل حرصا على العربية من اللغويين ، وليسوا بالضرورة أقل إلمامها وتذوقا لها من سواهم ولعل فيهم من هم أقدر من سواهم على الإبداع . فلندع كل أمر لأربابه فصاحب البيت أدري بالذي فيه . ولا ينبغي أن يغرب عن البال أن التمنية المعاصرة تجعل العالم صغيراً ، وتجتمع الناس في أسرة واحدة ، وأن النمساظ الحضارة المعاصرة كلها دخيلة على العالم الثالث .

أيها السادة :

أنا أعلم أن كثيرين من الجمعيين يضيفون ذرعا ببعض ما قدمت ، فثمة من يرفضون كل كلمة تحمل معنى لا نجد في القواميس القديمة ما يؤيده ، وثمة من يلحون على أن كل كلمة قرآنية ينبغي ألا يبعد معناها عن المعنى الثرائي . وأنا أعلم أيضا أن ثمة من قد كرسوا وقتهم وجهدهم لمحاولة توحيد المصطلحات العلمية في العالم العربي . وفي هذا كله نوايا حسنة تشكر . ولكن الأعمال بالنيات عند الله . أما عند الناس فهي بنتائجها .

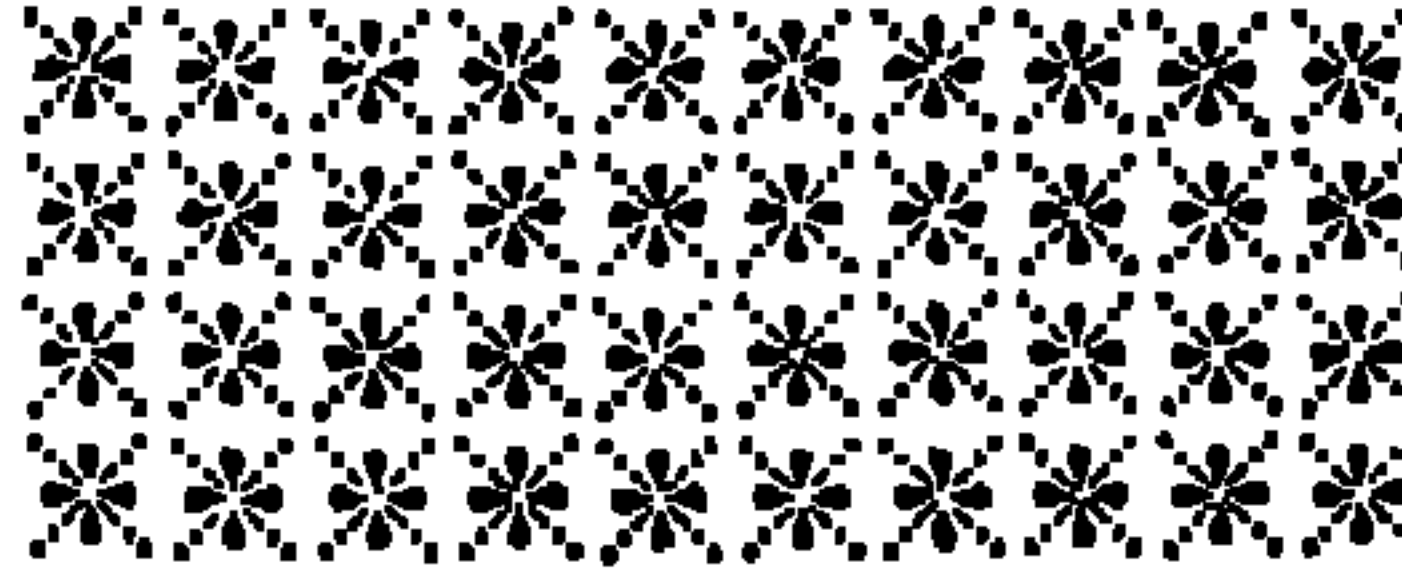
هل جاءكم نباء عن محاولة توحيد المصطلحات العلمية ؟ إن كل قطر تأخذ العزة بالآثم ، ويعود فية تشبث بمصطلحاته ويقول : إن أعمال التوحيد هذه أعمال دونكيشوطية . ولهم حتى أو بعض حتى . فكلنا عشاق وحدة عربية . نشدها وندعو إليها . ولكننا نعلم أن توحيد

المصطلحات العلمية ينبغي أن يسبقه اتفاق على وحدة ثقافية تنتشر في كتبها الكتب العربية العلمية في سائر أقطار الوحدة ، لتدخل في مناقشة شريفة ، فيأخذ كل معلم وكل متعلم منها ما يستحسنه ، مع رقابة مشددة على احتفاظها على حقوق النشر وحدود الاقتباس : عندها يصبح استعمال المصطلحات الموحدة ضربة لازب .

وأما التثبت بالمعاني البدوية للألفاظ العربية والمعاني القرآنية فلا أعرف لي رداً ناجماً عاينه سوى أن أطلب إلى الله أن يهدينا جميعاً سواء السبيل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أحمد سليم سعيدان
عضو المجمع المراسل من الأردن



أسس التفكير المنهجي عند طه حسين للدكتور يوسف حسن نوفل

لقد شغل طه حسين المعاصرين حياء وميتا ،
وجاز لمن عاش هذا العصر أن يقر بعبقريته
هذا الرجل ، وتعدد عطائه ، ذلك أنه أسهم^١
إسهامات متعددة رضى بها قوم وسخط عليها^٢
آخرون ، وبقدر ما تجدد له من تلاميذ وأتباع^٣
يشككون مدرسة موصولة الأجيال متتابعة^٤
العطاء ، تجدد — أيضا — التأثيرين عليه ممن^٥
لا يرتضون ما ارتضى ، أو لا يرتأون ما ارتأى.

والحق أنه يمكن رد ذلك كله إلى مواقفه^٦
الفكرية التي طبعت إنتاجه العلمي والأدبي
بوجه عام ؛ إذ صدر طه حسين عن موقف
فكرى لم يباك — حين اعتنقه وطبقه — بردود
الفعل الناجمة عنه ، واختلاف المواقف الناشئة^٧
إزاءه ، واتسم هذا المنهج التفكيرى :^٨

بالحرية ، ونبد الحمود ، والاجتهاد .

أما الحرية فاستلزمته قوة الإرادة ، والحرارة
فى التعبير عن رأى الذى آمن به واختاره بعد
أن حاور نفسه فى مصادره ومراجعته ونصوصه .

وأما نبد الحمود فاستلزم التحسدى ،
وتصنيف ما تلقاه بين مقبول ومرفوض دون

أن يكون هناك حد وسط بين الحدين سواء
أكان ذلك التصنيف راجعا لذوقه وحسه ،
وثقافته ، أم تأثيره بغيره واقتناعه بما رأى .

أما الاجتهاد فاستلزم تنويع مصادر ثقافته
حين آل أمر نفسه إليه ، مثلما تنوعت هذه
المصادر بشكل مضطرب فى مطلع حياته قبل^٩
أن يتولى أمر نفسه . ومن خلاصة ذلك كله^{١٠}
وامتزاجه يولد منهج^{١١} « التوازن الصحيح »
بين القديم والجديد الذى يؤمن به كما سنرى :

كل هذه الأمور — التى سنفصل القول
عنها — ارتبطت بهذا الثالوث فى التفكير الأدبي
المنهجي عند طه حسين ، الذى تكون^{١٢} من
منابع عربية : قديمة ومعاصرة ، قدر لها أن
تنمو وتثمر مع التفاعل مع الثقافات الأجنبية :^{١٣}
القديمة والمعاصرة أيضا ، ونسارع فنؤكد أنه
لا يعنى ذلك تكران مبدأ التأثير والتأثر فى
الثقافات والحضارات والفنون فى كل العصور .
بل إننا لنؤكد إيماننا بهذا المبدأ حين نرى
أن طه حسين نمت مداركه ، وأنضج آراءه ،
وتصوراته المستقاة من مصادرها العربية

ما تلقاه من ثقافة متنوعة أجنبية قديمة ومعاصرة.
بل نصيف - أيضا - أن ما تلقاه من مصادر
أجنبية جعله يلتقى - مرة أخرى - بما سبق
أن التقى به من تصادم المناهج ، وتعارض
الآراء ، وتضاد الاتجاهات . وهو ما عبر
عنه في مرحلة من حياته بأصابعه ، بالاضطراب
والاختلاف والتناقض « كما سئرى .

وينبغى -- في تصورنا -- ألا يغيب عمن
يبحث حقيقة التفكير المنهجي الأدبي عند طه
حسين الوقوف على مفتاح فهم ذلك المنهج ،
أو على الأقل فهم ما قد يبدو فيه من تناقض
أو تراجع أو حدة ، وقد أعلن ذلك في كتابه
(الأيام) حين عرض للحياة العلمية المتواضعة
في بلدته ، وما تلقاه من قدر متواضع متضارب
من العلم آنذاك ، قائلا :

« وكان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء
جميعا ، ويأخذ عنهم جميعا ، حتى اجتمع
له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف
مضطرب متناقض : ما أحسب إلا أنه عمل
عملا غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل
من اضطراب واختلاف وتناقض » (١) .

رفيقهم هذه السجينة يفتنهمنا متابعة مراحل
حياته : نجدد يتخذ من قضايا دوقنا من
موقفين لا ثالث لهما :

(١) الانحياز لذلك الموقف الانحياز جارفا
طاغيا .

(٢) أو الانقلاب عليه ومهاجمته بالارفق
أو لين .

وهذا ما يفسر مواقفه التي لا تعرف
وسطاً مهماً أثارت من نتائج (٢) .

ونأخذ الآن في الوقوف على مراحل
التكوين الأدبي لطه حسين لنتعرف على
المؤثرات السائدة في كل منها ، وهي مؤثرات
تركت آثارها الظاهرة أو الخفية في نفسه ،
الواعية أو غير الواعية حتى قدر لنا أن تتفاعل
مع المؤثرات الأجنبية وحياته العملية .

هذه المراحل هي :

المرحلة الريفيّة . ثم مرحلة القاهرة
(الأزهرية) ، ثم مرحلة القاهرة (الجامعية) .

وذلك قبل سفره إلى فرنسا . وهناك يقابل
بين ما قدّم لديه وما جدّ ، أو بين التبادل
والطريف كما يتولون .

(١) الأيام ج ١ الفصل الرابع عشر ، الفقرة الأخيرة .

آ (٢) اتهمه البعض بالالحاد ، والشيوعية ، واعتناق المسيحية ، ومعاداة العرب إلى آخر ما هناك من
راء عرضها أنور الحندى في كتابه (طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام ، دار الاعتصام ، ١٩٧٦) ،
والدكتور محمد حسن في (حصوننا مهددة من الداخل) ، وخيرى شلبي جمع وتحقيق (محاكمة طه حسين)
بيروت ١٩٧٢ ، وجمال الدين الألومى (طه حسين بين أنصاره وخصومه) بغداد ١٩٧٣ ، وسامح كريم :
(طه حسين في معاركه الأدبية) الهيئة ١٩٧٤ ، ونجاح عمر (طه حسين : أيام المعارك ، العصرية بيروت
(٧٥) .

ثم مرحلة ما بعد العودة من فرنسا ، هبسا
نظالت وتعددت وجوهها وسماها .

في المرحلة الريفية بعزبة الكيلو بمحافظة
الذيا وبمدينة مضاغة : يمكن تصنيف وسائل
المعرفة المتراصة لديه في قدر من العلوم العربية
والشرعية ، وفي شيء من التراث الشعبي
والأساطير والمعتقدات السائدة ، وفي
الإحساس بالبيئة ، والزمان والمكان بطريقته
الخاصة به .

في ذلك كله نجد النقي يتأرجح بين الاستقامة
والاضطراب ، النجاح والفشل ، وكما صرح
فيما نقلنا عنه من قول منذ قليل ، تلقى معارف
متنوعة من مصادر شتى من علماء يكبرهم كما
يكبرهم الريفيون ، « ويكاد يرثي : بأنهم
فطروا من طينة نقية ممتازة غير الطينة التي
فطير عليها الناس جميعا » (١) .

أما هؤلاء العلماء فهم بين : كاتب المحكمة
الشرعية ، وإمام المسجد صاحب الخطبة
والصلاة ، وآخر يجلس إلى الناس من حين
إلى حين ، ورابع خياط يأخذ العلم عن شيوخ
الطرق ، وخامس تاجر .. إلى آخر ما هنالك

من المتصلين بالدين مما عرض له طه حسين
بطريقته الساخرة المناقذة التي تناقض ما حدثنا
عنه منذ قليل من إكبار وتوقير .

ويحفظ الألفية عن قاضي المحكمة الشرعية (٢)
حتى يهبط بلذته رجل قاهري ، هو المفتش
الزراعي الذي يتكلم الفرنسية ، وما يلبث
أبو طه حسين أن يرسله إليه ليمتلي أصول
التجويد . وهنا شعر الفتى بشيء من التنوع
في ثقافته جعله يشعر بالتفوق على أترابه مثلاً
شعر بذلك حين غادر الكتاب إلى فقيه من
الفقهاء . أي أن سمى الفتى إلى التنوع المعرفي
هو مقياس المباهاة والتعالي لديه ، لا سيما وقد
قال عن نفسه :

« كان من أول أمره طمعة لا يحفل عما يليق
آمن الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم ،
وكان ذلك يكلفه كثيراً من الألم والعناء » (٣) ،
لذا أعجب بأخيه الذي سبقه إلى الدراسة
بالأزهر الشريف ، وأذكت آفة العمى في
نفسه جذوة حب المعرفة ، كما يقرر في
كتاب (هذا مذهبي) : « إذ صرفته عن كثير
مما يشغل المبصرين وحرمت (عليه) ألوانا
من جدهم ولعبهم ويسرني لما خلقت له من

(١) الأيام ج ١ مطبع الفصل الرابع عشر .

(١) كما تأتي شيئاً من : الجوهرة ، والخريفة ، والسراجية ، والرحبية ، ولامية الأفعال ، وحفظ
القرآن الكريم .

(٣) الأيام ج ١ مطبع الفصل الرابع .

الدرس والتحصيل أنفق فيهما من القوة والجهد والنشاط والفراغ ما ينفقه غيرى فيما يضطربون فيه وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها» ولهذا يحدثنا عن توطينه نفسه لما ينبغي أن يحسنه من الدرس والتحصيل ما وجد إليهما سبيلا ، يقول :

« وقد فعلت أو حاولت أن أفعل فى آخر الصبا ، وأول الشباب » (١) .

وهنا نجد تقسيمه المرحلى لجوهر حياته العلمية حيث أهمية آخر الصبا ، وأول الشباب وذلك فى المرحلة القاهرية بوجوهها المتعددة ، كما سنرى .

وفى تأمل هذا القدر من العلم الذى حصله ما يقفنا على قدر من الاضطراب والتناقض والارتجال والسطحية كفى أن يشير لدى الصبى ، الطلعة ، شغفاً بالتحصيل والرقى نماء عن طريق مصدر آخر كان أكثر اقتراباً من ميوله الأدبية من وسائل المعرفة السابقة ، وهذا المصدر - فى تصورى - وثيق الصلة بميوله الأدبية التى ستفتح فى مرحلة تالية ، ولهذا نراه فى المرحلة الريفية شديد الحرص

على متابعة الغناء الشعبى وقصصه الدائرة حول أنى زيد ، وخليفة ، ودياب ، وعنترة ، والظاهر بيبرس ، والغزوات والفتوح ، وقصص الأنبياء ، وقصص ألف ليلة وليلة ، بل يولع بأذكار المتصوفين ، وأصحاب الطرق ، وولع سيده الشيخ بالغناء (٢) ،

واهتمامه - مع ذلك كله - بالسحر والعفاريت فيهم « بنختم سليمان » كما يهتم « بعصا الحسن البصرى » ، ويهتم « بعدية يس » ، كما يهتم « بالتحصن من الخمسين » . بل يقرن بين الساحر والمتصوف ويجعلهما متشابهين ، ولا يرى التناقض بينهما إلا ظاهرياً: فكلاهما يتخترق الغيب إلى عالم الأرواح ، وفارق ما بينهما أن هذا يتصل بالملائكة ، وذلك يتصل بالشياطين (٣) . هكذا تخلق خيال أدنى غض ما يلبث أن يغادر الريف إلى حيث الأزهر ، حيث يقول : « وما كانت القاهرة عنده شيئاً آخر ، إنما كانت مستقر الأزهر ومشاهد الأولياء الصالحين » (٤) .

فى هذه المرحلة غاب أمام ناظره منهج « التوازن الصحيح » بين جملة ما يتلقى من متناقضات من ناحية : وحداثة سنه من ناحية أخرى .

(١) هذا مذهبي - كتاب الحلال مارس ١٩٥٥ ص ٤٠ .

(٢) الأيام ج ١ فى صفحات عديدة وانظر للحديث عن جوانب من هذا فى الأيام : الدكتور ٣٠٠ القماوى والدكتورة نبيلة إبراهيم ، مجلة الثقافة : ديسمبر ١٩٧٣ ص ٢٠ وما بعدها وص ٨٧ وما بعدها .

(٣) الأيام ج ١ ، الفصل السادس عشر .

(٤) نفسه - الفصل الحادى عشر .

في المرحلة القاهرية الأزهرية يلتقي الخيال
الغض الغيبي ، بالحقائق العلمية المتناقضة بين
التقديم الجاهل والحديث الواعد ، أو بين ركنين
من ثالوثه العتيق : الحمود ، والاجتهاد ،
حتى يصاب بما أصيب به من قبل «اضطراب
واختلاف وتناقض» ، ويسارع الفتي إلى
الرد المقاطع على أخيه :

« إنما أنا في حاجة إلى العلم » .

و حين جلس إلى شيخه ، وأخذ مكانه في
الحلقة على البساط لمس العمود الرخامي ،
فأحب ملاسته ونعومته ، وأطال التثكير في
قول أبيه : « إلى نأرجو أن أعيش حتى أرى
أخاك قاضياً ، وأراك صاحب عمود في
الأزهر »^{١٢} .

هنا نحن أمام بذرتين هينتين : بذرة خيال
أدبي ، وبذرة طموح علمي ، كان الخيال
الأدبي الذي حصله خلال المرحلة الريفية
« ميثولوجيا » ، وكانت البذرة العلمية التي

جناها هناك تقليدية سطحية ، وحين ذهب
بهذا الزاد المتواضع وب عقليته المتقدمة اصطدم
بالتباين الصارخ الذي اصطدم به من قبل
وأعنى به : التقديم الجاهل والحديث الواعد
تحت سقف الأزهر بخاجة ، وتحت سماء
القاهرة بوجه عام . كما سنرى من خلال رؤية
هذا التقابل الواضح أو التضاد البين بين عطاء
أساتذته المؤثرين فيه في البيئة القاهرية .

ما أكثر ما رأى طه حسين بالأزهر ومن
لسمع من أساتذته^(٢) ، لكن الإمام الشيخ
« محمد عبده »^(٣) ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٩ م -
١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م يظل النموذج المقدم
لدى صاحبنا ، منذ حضر دروسه في تفسير
القرآن الكريم على طرق حديثة ، ومنذ رأى
فيه امتدادا لجمال الدين الأفغاني ، ووقف
على آرائه في الإصلاح في اتجاهات ثلاثة هي :
الدين ، واللغة العربية ، والسياسة ، وفي
نبد التقليد ، والتوفيق بين العقل والدين ،

(١) نفسه - الفصل التاسع عشر .

(٢) ممن تلقى عنهم العلم بالأزهر : الشيخ عبد الخيد الشاذلي الذي يدرس الأزهرية ، والشيخ يوسف
الدجوي الذي يدرس النحو ، والشيخ أحمد أبو خطوه الذي خاطبه بقوله : (اسكت يا أعمى) ، والشيخ
عبد الله دراز .

(٣) العتاد : محمد عبده ، أعلام العرب العدد الأول ١٩٦٢ ، وأحمد أمين : زعماء الإصلاح ،
النهضة ١٩٤٨ ص ٢٨٥ ، وهذا مذهبي ، مجموعة كتاب الهلال العدد ٤٨ وغيرها ، والدكتور محمد حسين ،
الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ط ٣ ، ١٩٧٢ ، ١ / ٣٢٧ - ٣٥٧
وصفحات متفرقة ، ٢ - صفحات متفرقة ، ومحمد رشيد رضا : تاريخ الشيخ محمد عبده ، القاهرة ،
١٩٣١ - ٢٥ .

وكأنما كان التاريخ على نية تكرار الحدث ،
فقد اتقى محمد عبده بالنقيضين ، طرف الحمود
من زاوية سحيقة في كهف الشيخ محمد عlish
وطرف التجديد في غاية مرماه في ميدان جمال
الدين الأفغانى ، وكادت المعركة بين الحمود
والتجديد في الأزهر وقت دراسة محمد عبده
تؤدى بطموحه العلمى لولا أن أنصفه أحد
أساتذته ... وهذا بعينه ما حدث لطله حسين
الذى وجد - كما سنرى - الدروس الحادة
الحديدة ، والدروس الحثة الجامدة . والذى
رُسب في امتحان العالمية بسبب نزوعه للحرية.
ولم ينفصل طه حسين عن مجلس الشيخ محمد
عبده الذى كان يضم من المصريين ، والشوام
والعراقيين ، ويجمع إليه فيه : الشيخ جاويز
وولى الدين يكن ، ورفيق العظم ، والكواكى ،
ورشيد رضا ، والجزائرى ، والكاظمى .

ويظل « سيد بن على الرصنى » - (توفى
عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م) - في نظر طه
حسين - يتناول الدرس الأدبى على نحو لم
يألفه الأزهريون آنذاك ، وأصبح من عرف
مصر فقيهاً في اللغة ، وأسلمهم ذوقاً ، يتحدث
عنه في مقدمة (ذكرى أبى العلاء) ، وفي

مطلع كتابه (في الأدب الجاهلى) ، ويجعله
مثلاً لمنحى اللغويين والنقاد القدامى في البصرة
والكوفة مع ميل إلى النقد والغريب ، وانصراف
عما ألفه الأزهريون من النحو والصرف ،
والبلاغة ، ويأخذ عليه لجوءه إلى الكتب
المدرسية في تعليم أدب الفقه جرياً وراء
التجديد الذى رآه طه حسين انحطاطاً وضعفاً ،
ورآه مثلاً للمذهب القدماء في مواجهة مذهب
الأوربيين بالجامعة . ويذكر طه حسين أنه
ضاق به وهو أحب ما في الأزهر إليه لإذعانه
لشيخ الأزهر وإعراضه عن طلابه ، خوفاً
من يتجسسون عليه وإشفاقاً على ما يتقاضاه ،
ولم يعد يلتقيه إلا كل يوم جمعة في بيته ، كما
يذكر أنه نهى ليلة امتحان العالمية إلى نية تسقيطه
وأوصاه بالاستقالة : ويذكر أنه ثابى أستاذين
له هو ولطفي السيد ، وأنه يذكره بأئمة البصرة
والكوفة بينما يذكره أحمد لطفي السيد بفلاسفة
اليونان ، كما يذكر أنه جرب الشعر على يديه .
ويذكر أحمد أمين أن الشيخ المرصنى كان
ظاهرة في جيله حيث كان يخلق حلقة دراسية
أدبية حوله مما أثار عجب المشايخ وطلاب الفقه
والنحو ، وجعلهم ينظرون إلى حلقة مشرراً (١) .

(١) انظر أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ١٩٤٨ ، ص ٢٠٦ ، وطه حسين :
في الأدب الجاهلى ط ٣ ، ١٩٣٣ ، ص ١ ، والأيام ج ٣ ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤١٧ (المجموعة
المتكاملة ، بيروت ١٩٧٤) ، وتجديد ذكرى أبى العلاء ، دار المعارف ط ٦ ، ١٩٦٣ ، ص ٥ ، ومقدمة
تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية ، ويضفى على المرصنى صفات طيبة موازناً بينه
وبين نلليز ٩-١١ ، وانظر الدكتور طه الحاجر ، مجلة الثقافة ، أكتوبر ١٩٧٥ ، ص ١٤ وما بعدها
والدكتور أحمد كمال زكى : النقد الأدبى الحديث ، الهيئة ١٩٦٢ ص ٨٨-٩٠ ، ومقدمة طه حسين
لكتاب تاريخ الآداب العربية لنلليز : ص ٣-١١ .

ماج الوطن العربى بصيحات تجديد متنوعة متعددة ، فكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٣٣) فى الجزيرة العربية ، وعبد القادر الجزائري ، وابن باديس بالجزائر ، ومحمد الخضر حسين بتونس ثم بمصر ، ومحمد أحمد المهدي بالسودان ، ثم عمر المختار بليبيا ، وعبد الكريم الخطاى بالمغرب ، ومحمود شكرى الأنوسى بالعراق ، وحسين الجسر ، وطاهر الجزائري بالشام .

ويظل لرفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) منزلة الريادة ، فى تنمية الفكر المحلى مع الإفادة من التيارات العالمية .

مع صدى لكتاب الكواكبى (أم القرى) سنة ١٨٩٩ ، ومحمد رشيد رضا (الخلافة أو الإمامة العظمى) سنة ١٩٢٣ ، وكتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلى عبد الرازق سنة ١٩٢٥ م . وهنا كانت الحركة الفكرية فى مصر بين تيارى الانتماء الإسلامى ، حيث الجامعة الإسلامية ، والانتماء المحلى حيث القومية أو الوطنية المصرية^(١) ، وقد كان من رواد

الاتجاه الثانى رفاعة الطهطاوى ، فأحمد لطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) ، وهنا نجد ط' حسين ينحون نحو ربط مصر بثقافة البحر الأبيض المتوسط كما عبر فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) سنة ١٩٤٤ م .

وهنا نجد مناداة قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨) بتحرير المرأة ، واهتمام أحمد فتحي زغلول (١٨٦٣ - ١٩١٤) بالترجمة وسيلة لا غاية ، مما جعل أحمد لطفى السيد يبتلى إعجابه بترجماته . وهنا رأى طه حسين باريى من خلال الطهطاوى ، والعقد الاجتماعى لروسو ، وأصول الشرائع لبنتام : وروح الاجتماع وسر تطور الأمم لغوستاف لوبون من خلال ترجمات زغلول ، والأخلاق ، والكون والفساد ، والطبيعة ، والسياسة لأرسطو من خلال ترجمات لطفى السيد الذى أصدر (الجريدة) ليرى فيها طه حسين وأبناء جيله ، كما يقول : « معاير جديدة فى السياسة والاجتماع »^(٢) . على أن تأثير أحمد لطفى السيد فى طه حسين يفوق أى تأثير لأحد غيره ،

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ج ١ ص ١١٣ - ١٢١ (عن رفاعة الطهطاوى) والدكتور محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المصرى ج ١ ، بيروت ط ٢ ، ١٩٧٢ ، والدكتور شوق ضيف ، الأدب العربى المعاصر فى مصر ، القاهرة ١٩٦١ فصل - تياران عربى وغربى ، والدكتور أحمد هيكل ، تطور الأدب الحديث فى مصر ط ٣ ، ومجلة الطبيعة ، حركة الفكر القومى فى مصر من حكم محمد على إلى الحرب العالمية الثانية - حسن عبد العزيز - يناير ١٩٦٧ ، ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) سامى الكيالى ، مع طه حسين ج ١ اقرأ ١١٢ ص ١٧ ويذكر طه حسين أنه ظلى ينشر بها وبغيرها طيلة عشر سنوات دون أجر - الأيام ج ٣ .

أ. هاشم وغيره من ، وقد كان من مؤسسي الوفد
المصري سنة ١٩١٩ ، ونادى - مع غيره -
بإنشاء الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨ ، وتولى
وكالتها خلفاً لأحمد شفيق ، ثم تولى رئاستها
حين أصبحت حكومية في ١١ من مارس
سنة ١٩٢٢ . ولا يعنينا المضي مع أحداث
حياته إلا بالتقدير الذي يتصل بطله حسين ،
وآخر هذه الأحداث توليه رئاسة مجمع اللغة
ثمانية عشر عاماً ، وكان قد ظفر بعضويته سنة
١٩٤٠ ثم برأسته بين سنة ١٩٤٥ و ١٩٦٣ (١) ،
حيث خلفه طه حسين .

آمن لطفي السيد « بالليبرالية » التي تقوم
- عند بنتمام ، وجون ستيوارت مل - على مبدأ
المنفعة ، لذا يشير إلى « تقدير المنافع التي
ينالها مجموع الأمة » . ويتخذها « قاعدة كل
عمل » (٢) ، ويتحدث عن هذا المذهب كما
يسميه « مذهب الحريين . أو الفرديين » ،
ويحدد للحكومة واجبات لا تطغى على ما
يقوم به الفرد (٣) وقد آمن بضرورة شباب

ذلك المفكر الذي عاش قرابة قرن إلا قليلاً
و الذي كان أبوه وجده من عمدة مصر ، وقد
نحضر أبوه الجمعية العمومية التي دعا إليها
عراقي سنة ١٨٨٢ ، وكان لطفي السيد - ذلك
الحقوقي الرائد - ممثلاً لحيل ما بعد الثورة
العربية . وأستاذاً للجيل بعده . نادى بالمصرية
تما تشير إليه من مواجهة الاستلاء ودفع
تهمة النقص . ونادى بالحرية والديمقراطية
والتعليم . واعتبره المؤرخون امتداداً لمدرسة
محمد عبده . وامتداداً لآنجاه الطهطاوي ،
ولم ترجع منزلته بين تلاميذه لمؤلفاته وترجماته
بتقدير ما عادت إلى مواقفه الاجتماعية والسياسية
والتربوية . وقد اشترك في تأليف حزب الأمة
سنة ١٩٠٧ م ، وأصدر (الحرية) - لسان
الحزب - وتولى رئاسة تحريرها منذ ٩ من
مارس سنة ١٩٠٧ ، حتى استقال منها في
سبتمبر سنة ١٩١٤ . وتوقفت في أول
يوليوس سنة ١٩١٥ ، وفي هذه الحرية تنفست
انراحة . فكتبت في زيادة (١٨٨٦ - ١٩٤١)
ونبوية موسى (١٨٩٠ - ١٩٥١) ، ولبيبة

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ج ٦ القاهرة ٥٠ - ١٩٥٤ ص ١٦٣ ،
ومحاضراته عنه في ذكراه الأولى بالمنصورة - مارس ١٩٦٣ - وإسماعيل صدقي ، مذكراتي ، دار الهلال
١٩٥٠ ، والدكتور حسين فوزي النجار ، وأحمد لطفي السيد - أعلام العرب - ٣٩ ، وهذا مذهبي -
مجموعة هو منهم - كتاب الهلال ٤٨ ص ١٩ ، وعبد العزيز البشري ، في المرأة - كتب للجميع ص ٥٦ ،
ومجلة الطليعة ، العدد السابق ، ومجلة الرسالة - حديث أحمد حسن الزيات مع لطفي السيد - العدد التاسع
انسنة الأولى ١٥ مايو ١٩٣٣ .

(٢) الحرية ٩ / ١٠ / ١٩٠٩ .

(٣) الحرية ٢٨ / ٩ / ١٩١٣ ، و ٢ / ٣ / ١٩١٣ ، و ٦ / ١ / ١٩١٣ .

الحضارة والتمدن الأوروبيين كما صنع العرب من قبل مع حضارات الفرس واليونان ، ولم يجد بأساً من التفكير ولم يره سبباً ، لأنه يدعونا إلى التقدم دون القضاء على ذاتيتنا ولأنه من أصول التطور .

وقد كانت صلة لطفي السيد بمحمد عبده متصلة ومستمرة ، وفي شتاء سنة ١٨٩٧ التقيا في باريس والتحقا بجامعة « جنيف » (١) ليدرسا الأدب ، وهناك طلب إليهم أستاذ الأدب دراسة أحد أعمال « فيكتور هوجو » وناقشهم فيها وفي نقدها حتى أعجب الشيخ محمد عبده بالطريقة واعتزم اتباعها بالأزهر . وهنا نجد التقاء أستاذي طه حسين - القرييين إلى نفسه - في المنهج والتفكير .

وتمضى لطفي السيد في دعوته للمصرية في مواجهة التغريب الذي يشيعه النفوذ الأجنبي آنذاك . يقول (٢) : « لا شُبُهَة عند أحد منا في معنى كوننا أمة متميزة عما عداها بمشخصات خاصة بنا قد لا يشركنا فيها غيرنا من جميع الأمم ، لنا لون خاص وميول خاصة ولغة واحدة شاملة ودين للأكثرية واحد وكيفيات في تأدية أعمال

وعدم يكاد يكون واحداً يجري في عروقنا ووطننا محدود الجهات بخدود طبيعية تكاد تجعلنا في معزل عن عدانا . لنا تاريخ قديم طويل ذو مراتب وأقدار اتصلت سلسله بحلقات متينة فأصبحت سلسلة واحدة أولها قبل التاريخ وآخرها هذه الحلقة التي نقطعها » . . إلى أن يقول : « فنحن بذلك فراعنة مصر ، ونحن عرب مصر ، ونحن مماليك مصر وأتراكها » .

ويحدد عناصر المصرية المكونة من المصريين الأصليين ، وعناصر أخرى من الأجانب استقروا بمصر (٣) .

وقد اتسعت (الجريدة) لبسط آرائه وآراء غيره . ولعقد صلة التلمذة بينه وبين مريديه من أمثال طه حسين ، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) اللذين داوما على الاتصال به ، والكتابة في الجريدة : ومضى طه حسين على صفحات الجريدة ينتقى بالرأي العام وقضاياها ، وبكبار الشخصيات السياسية والأدبية في كنف أستاذه لطفي السيد الذي يصبح سنداً لظه

(١) الرسالة ١٥ ماو ١٩٣٣ - حديث أحمد الزيات مع أحمد لطفي السيد : ص ٨ وما بعدها .

(٢) الجريدة ٢ يناير ١٩١٣ .

(٣) الجريدة ٥ / ١٠ / ١٩٠٩ .

حسين وكثير من أبناء جيله في حل قضاياهم^(١) من ذلك ما يرويه طه حسين عن إحدى محاضرات الشيخ سيد بن علي المرصفي. يقول: « وحدث أنه بينما كنا نقرأ الكامل للمبرد وردت هذه العبارة: ومما كثر الفقهاء به الحجاج قوله - والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره - : «إنما يطوفون برمة وأعواد» فقلت أنا: إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب وبلغ قولي هذا شيخ الجامع الأزهر وسمعت أنه سيطر دني ، فذهبت إلى الحريدة أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع ، وهناك تقابلت مع الأستاذ لطفي السيد فرفض المقال ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعي أنا وسائر من غضب عليهم إلى الأزهر^(٢) .

وكما شجعه ووجهه أستاذه لطفي السيد شجعه ووجهه الشيخ عبد العزيز جلاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩) : ولهذا يذكر التلميذ

أن مذهب « الاعتدال والقصـد » كان يجده لدى الأول ، ومذهب « الإسراف والغلو » يجده لدى الثاني ، وخصوصاً فيما يتصل بخصوصياته مع الأزهر ورجاله^(٣) ، على حين يخاصم محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥)^(٤) ، وسعد زغلول (١٨٦٠ - ١٩٢٧) برغم مواقفه الإيجابية نحوه^(٥) كما يقول : ولعل وجود الاعتدال والإسراف في منهج أستاذه شديد الاتصال بمبدأ الاضطراب الذي ألامحنا إليه من قبل .

وحين نقرأ تعليق طه حسين على كتاب (علم الأخلاق) لأرسطو الذي ترجمه أحمد لطفي السيد^(٦) نجد الحب والإعجاب والولاء بصدق نادر يكاد يصرفه عن تناول موضوع المقال ، فمضى التلميذ في مدح أستاذه وصديقه مقررأ : « أنه لم يعرف له نظيراً في الكتابة ولا في التفكير ولا في الترجمة

(١) من ذلك تأييده لمطالب تزوج طه حسين في فرنسا ، وفضله عليه في الكتابة ، وفي تعريفه بأعلام مصر وفي مساعدته في السماح له بمناقشة رسالة الدكتوراه بفرنسا وغيرها . (انظر الأيام ج ٣ ص ٣٩٦ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٦٥٠ المجموعة الكاملة : بيروت ط ٢ بيروت ١٩٧٤) .

(٢) انظر سامي الكيالي مع طه حسين ج ١ ص ١٨ ، والدكتور عبد العزيز النسوق في حديثه معه : الرسالة الجديدة مايو ١٩٧١ ص ٧ وينسب الأول المحاضرة إلى الشيخ محمد عبده . وهو غير صحيح .

(٣) الأيام ج ٣ ص ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ .

(٤) الأيام ج ٣ ص ٤٢٧ .

(٥) الأيام ج ٣ ص ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٦) حديث الأرباء ، دار المعارف ط ٩ ج ٣ ص ٤٧ - ٥٧ .

ولا يرى بأساً في قرنه بأرسطو : « ولطفى السيد هو المعلم الأول لعصرنا هذا الذى نحن فيه » ، ولا يرى بأساً ولا غلوّاً في جعله المعلم الأول كأرسطو ، لأنه « أستاذ للشباب الناهض المفكر كله » ، ويمضى في تعداد بعض إسهاماته وانتصاره للتجديد في اعتدال وقصد ، والإصلاح العقلى ، وحرية الرأى وإزالة الفروق بين العقل الشرقى والعقل الغربى ، إلى أن يقول :

« لقد نستطيع أن نشخص فلسفة الأستاذ لطفى السيد بهذه الخصال : الأولى أنها فلسفة تجديد وإصلاح ، لا يتوهم أن على دهم القديم ، بل يتوهم أن على تنقيته وتصفيته وتقويته وإزالة ما فيه من أسباب الانحلال والضعف ، والثانية أنها فلسفة حرية وصراحة ولكن بأوسع معاني الحرية والصراحة العقلية ، والثالثة أنها فلسفة ذوق وقصد في اللفظ والمعنى والسيرة معاً ، والرابعة أنها فلسفة كرامة وعزة واعتراف بالشخصية الإنسانية وحمل الناس على أن يعترفوا بهذه الشخصية » .

ويهمنا من هذا أمران : إبانة أحد أصفىاء لطفى السيد عن سمات تفكيره ومنهجه ، أما الأمر الثانى فهو أن هذه الصفات هى — بعينها — أسس منهج طه حسين الفكرى ولا أدل على ذلك من قول طه حسين عقب كلمته الماضية ، وهو كلام له أهميته لمؤرخ فكر الرجلين :

« عند إلى آثار الأستاذ لطفى السيد في الحرية فافقرأها وتدبرها استقصاء : ثم انظر إلى الأستاذ وإلى تلاميذه وأصفىاءه تجدهم قد أخذوا بحظهم من هذه الخصال فهم مصلحون ودعاة إلى التجديد ، وهم أحرار ودعاة إلى الحرية ، وهم محبون للذوق حين يفكرون وحين يعملون » .

هذه هى أهمية ما ننقل عن طه حسين ، وهى أنه يقدم لنا وصفاً لمنهج تفكير أستاذه وتفكيره معاً . حتى ليؤكد أن التاريخ سيشهد لأستاذه بالنهضة العقلية والسياسية والاجتماعية ، ويضمه إلى صديقيه المصالحين محمد عبده وقاسم أمين ، وهكذا يمضى في حديثه عن أستاذه مستدركا أنه كان يريد الحديث عن الكتاب فتحدث عن مترجمه .

وهناك مصدر آخر غير مشهور يعين في فهم الأستاذ وتلميذه ، وهو كتاب (هذا مذهبي) الذى صدر في سنسلة كتاب خلال سنة ١٩٥٥ يضم أقوالاً لطائفة من المفكرين المعاصرين ، والقدامى ، العرب وغيرهم ، وفي طليعتهم لطفى السيد (ص ١٩) وأول ما نلاحظه شيوع سمات أسلوب طه حسين على صياغة هذه الأقوال ، والملاحظة الثانية اتفاق الأستاذ والتلميذ فيما يؤثران وهو (حب المعرفة) — ص ١٩ ، وص ٣٩ حيث اختسرت هذه العبارة عنواناً لكلمتهما ، والملاحظة الثالثة محاولة الأستاذ

تحقيق التوازن : « ولم أكد أقرأ فلسفة القديس
من اليونان والعرب والمحدثين من الأوربيين
حتى قوى سلطان هذا المزاج على نفسي » :
فيسمى التوازن « مزاجا » : كذلك حديثه
عن : « إيمانه بالعقل إيمانا شديدا » : « وتعليم
نفسه » : « وأصلح نفسي فأحطت منها من
أثقال التقاليد ما لا يخبر فيه » .

أما التلميذ فيمضي في أثر أستاذه - ولعله
صاغ الكلمتين - فيؤكد على الخصلة الأولى
التي صاحبته وهي « الظلم الشديد للمعرفة »
حتى يفصل القول فيها تفصيلا (٣٩ وما بعدها)
ثم يصل بنا إلى مشارف مرحلة البحث عن
التوازن ، فيحدثنا عن « العلم المحدود
بالأزهر » ، والخصلة الثانية وهي « الصبر
والمغالبة واحتمال المكروه » : وتجديد ألوان
المعرفة ، وعن الخصلة الثالثة وهي « التصميم
واقترحام العقبات » . والرابعة وهي : « الصراحة
والجهر بالحق » في مخرجات الإصلاح الاجتماعي
والعقل والمنهج والتعليمي . وهذه
الخصال الأربع تتفق مع ما رأيناه سمة عامة
للمنهج في التفكير وهي : الحرية ، ونبذ
الحمود ، والاجتهاد ، وكل ذلك أدواته في
تحقيق التوازن الذي يصبو إليه .

وعن أستاذه (١) أخذ الاعتزاز بالروح
المصرية والشخصية المصرية ، وها هو يتحدث

عن المصرية في حديث يوجهه للحكيم (٢)
ومثله ما نجده لدى محمد حسين هيكل (١٨٨٨
١٩٥٦) : وأمين الخولي (ت في ١٩٦٦/٣/٩)
وسلامة موسى (١٨٨٨ - ١٩٥٨) ، وقد
ارتبط ذلك بطبيعة المرحلة ،

فكما كانت الثورة العرابية ١٨٨١ دافعة
لقوى الشخصية المصرية ، والأدب المصري
ومحركة للأدب الذي استيقظ على أيدي
أمثال البارودي ، كانت ثورة ١٩١٩
محركة للوجدان القومي ودافعة لقوى الشخصية
المصرية ، وللأدب حيث كانت إرغاسات
بقطة الشخصية المصرية في الأدب في أعمال
مثل : رواية زينب ، لهيكل سنة ١٩١٢
حاملة اسم مؤلفها : مصري فلاح ، وأقصوصة
(في القطار) لمحمد تيمور سنة ١٩١٧ ،
حيث جمع في القطار مواجهة بين المصري
الفلاح والعناصر الدخيلة ، ومسرحية (أبطال
المنصورة) لإبراهيم رزق سنة ١٩١٥ ، ثم
كان صدى ثورة ١٩١٩ في الأدب والفكر
والفن مما حدا بتوفيق الحكيم أن يصور لنا
ذلك في رواية (عودة الروح) سنة ١٩٣٣
مثلما وجدنا موسيقى سيد درويش ، والأعمال

(١) الدكتور حسين النجار ، أحمد لطفى السيد في مواطن عديدة منها ص ٥٩ .

(٢) فصول في الأدب والنقد ، المعارف ١٩٤٥ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

التشكيلية مختار ، والدعوات الاجتماعية
والوطنية المتعددة (١) .

وانتابت عقل طه حسين موجة من التحير
إزاء منهجه الذي يجد في سبيل الوصول
إليه ، وهو تحقيق « التوازن الصحيح » بين
عنصري : الاستقرار أى التسليم بالقديم
والتنطور ، وهو يرى في أساتذته ، وفيما يتلقاه
من مصادر المعرفة من يميل إلى هذا ومن
يميل إلى ذلك ، فالحمود الخطاط ، والاندفاع
ثورة ، و « الخطاط » و « الثورة » كلاهما
عرض زائل ، فمن ذلك الذي يحقق « التوازن
الصحيح » الذي سيحدثنا عنه طه حسين
فيما بعد ؟ لاسيما وقد وعت أذناه « الاعتدال
والمقصد » عند أحمد لطفى السيد ، و « الإسراف
والغلو » لدى الشيخ عبد العزيز جاديش
ورأى التحرر عند الشيخ محمد عبده ،
والتقليدية عند الشيخ سيد بن علي المرصفي ،
وكتب في مجلة السفور ذات الطابع التجديدي
النصارخ (٢) الذي يعتنق المذاهب الأوروبية .

هال طه حسين أن يجد بونا شاسعا بين
دروس الإمام محمد عبده ، وكتبه من ناحية
ودروس بعض شيوخته وكتبهم من ناحية
ثانية ، فاتجه إلى دار الكتب المصرية منذ
انتهاء درس الضحى حتى مغيب الشمس
« فاستكشف علم القدماء من العرب وأدبهم
حتى صُرفت اليهما عن الأزهر صرفا ،
ورأيتني ثائرا على الأزهر ودروسه ثورة
جامحة (٣) ، كما اتجه إلى مكتبة أخيه .
وحين بلغ به الضيق مبلغه التحق - وهو
بعد بالأزهر - بالجامعة الأهلية المسائية الناشئة
تلك التي ضمت القضاة والأطباء والموظفين
والخاويرين في الأزهر - فساعت علاقته
بالأزهر ، وازدادت سوءا بما كتبه فيه
من نقد شعري ونثرى فأسقطوه في امتحان
العالمية (٤) ، لتنتهي مرحلة ضيقه التي استمرت
أربعة أعوام أحس أنها أربعون : وضاق
فيها بطريقة الدرس ووقته (٥) .

(١) لثتمصيل يرجع إلى عبد الرحمن الرافعي ، مصر الجاهدة في العصر الحديث ، الحلقة الخامسة
حتى نهاية ثورة ١٩١٩ .

(٢) انظر يحيى حتى ، فجر القصة ، ط ١٩٧٥ ص ٧٦ :

(٣) هذا مذهبي ص ٤١ .

(٤) الأيام ج ٣ ص ٤٠١ وما بعدها .

(٥) الأيام ج ٣ ص ٣٩٦ .

وفي الجامعة^(١) استمع إلى محاضرات أحمد زكي باشا (١٨٦٦ - ١٩٤٧) في الحضارة الإسلامية وبدأ يسمع درسا جديدا كما يعبر في الأيام (٣-٣٨٩) ، كما بدأ يتلقى دروسا على أيدي كثير من أساتذته العرب وغير العرب ممن تصدوا للتدريس بالجامعة ، ومن أساتذته العرب فيها - إلى جانب ما تلقاه عن غير العرب^(٢) - إسحاقيل رافيت الذي يصفه بالعبروس - ويمدحه بأنه عظيم (الأيام ٣ / ٤٥٤) : وقد ألقى دروسا في تقويم البلدان وهو نفس ما ألقاه في دار العلوم ، ومنهم حفني ناصف (١٨٦٠ - ١٩١٩) في دروس الأدب العربي القديم ، وكان قد درس شرح (الكافي في العروض) لطفه حسين في الأزهر ، ولطفه حسين حديث عنه وعن مشاركته إياه في تحكيم مسابقة شعرية (الأيام

(١) كان التفكير في إنشاء كلية جامعة . . . وليد الوعي القومي والحركة الوطنية تطلعا إلى إعداد الكفاءات لا مجرد إعداد الموظفين كما أراد الاستعمار . وقد نادى بإنشاء جامعة أهلية كثير من أديبات والجمعيات والزعماء مثل : مصطفى كامل^٣ ، وأحمد لطفي السيد ، وأحمد حافظ عوض ، وقاسم أمين وغيرهم : كما نادى بإنشائها أعضاء مجلس شورى القوانين ، وطابوا ذلك من ولي عهد إنجلترا أثناء زيارته مصر عام ١٩٠٦ : ومن أوائل من تصدوا للتنفيذ مصطفى كامل الغمراوي الذي دعا إلى التبرع ببنى سويف عام ١٩٠٦ . ونشر بذلك نداء في ٣٠ سبتمبر ١٩٠٦ ، واجتمع وفد في دار سعد زغلول في ١٢ من أكتوبر ١٩٠٦ واكتب الحاضرون مبلغا من المال واختاروا سعد وقاسم أمين وكيلا وسكرتيرا ، ومجموعة من الأعضاء ، ولم تمنعهم محاولات اللورد كرومر المعوقة ، وانتهزوا فرصة تولي سعد زغلول وزارة المعارف فواصلوا المطالبة فزادت التبرعات حتى قبل الأمير أحمد فؤاد رئاسة الجامعة ، ونخطب قاسم أمين مبينا رسالة الجامعة في ١٥ من إبريل ١٩٠٨ قبل وفاته بأسبوع واحد . ووضع حجر الأساس في ٣٠ من مارس ١٩١٤ ، وأرسلت الجامعة الأهلية أول بعثة عام ١٩٠٨ من أحد عشر عضوا إلى فرنسا ، وإنجلترا ، وتحولت إلى جامعة حكومية منذ ١٢ من ديسمبر عام ١٩٢٣ . وصدر المرسوم الخاص بإنشائها في ١١ من مارس ١٩٢٥ وتخرجت أولى دفعاتها عام ١٩٢٩ وتخرجت أولى دفعات البنات عام ١٩٣٣ . (انظر الدكتور حسين النجار : أحمد لطفي السيد من ص ٢٥٧ - ٢٨١ وغيرها ، والأيام لطفه حسين ج ٣ ، ص ٥١٥ وغيرها) .

(٢) من أساتذته من غير العرب أمثال : « سانتلانا » في دراسة الفلسفة الإسلامية ، ولطفه حسين رأى في دروسه - الأيام (٣ / ٤٦٠) ، و « كارلو ألفونسو نلينو » (١٨٧٢ - ١٩٣٨) الذي دعى ليحاضر في الجامعة المصرية ، وله مؤلفات منها (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية) - القاهرة ١٩٥٤ - أنظر حديث طه حسين عن بعض مواقفه بعد الحرب (الأيام ٤٦٢) ، ومن أساتذته أيضا : « اجنا توس جويلدي » (١٨٤٤ - ١٩٣٥) الذي حاضر في أدبيات الجغرافيا والتاريخ ، وصفه بأنه شيخ كبير نحيف الصوت - (الأيام ٣ - ٣٩١ ، ٣٩٢) ، ومن أساتذته « الكونت دي جلارذ » ، و « ليمان » في السريانية والعبرية ، و « ماسينيون » في الاصطلاحات الفلسفية ، و « مليوني » في تاريخ الشرق القديم . إلخ .

(٤٥٥ / ٣) ، ومنهج الشيخ محمد بن عفيفي
الخصري (١٨٧٢ - ١٩٢٧) في دروس
التاريخ الإسلامي ، ولطه حسين رأى فيه
وفي دروسه (الأيام ١ - ٤٥٧) ، ومنهج
الشيخ محمد المهدي في دروس الأدب العربي
بعد حفي ناصف ، ويصفه بالضعف
ويسخر منه ، وقد نقله في رسالته للدكتوراه
امتدادا لخلاف أدبي بينهما لم يرق فيه الدليل
لطه حسين . وقد عاد طه حسين إلى نقله
مرة أخرى على صفحات السفور ١٩١٥
بعد عودته من أوروبا ، وأحدث ذلك أزمة
كادت تتسبب في إلغاء بعثة طه حسين حتى
أصلح بينهما أستاذه وراعيه أحمد لطفى
السيد (الأيام ٤٥٧ / ٣ ، ٦٧٨) .

وحين نطالع حديث الأربعاء^(١) نجد
حديث الوفاء من التلميز نحو الأستاذ حتى
ليجد في « فقد الأساتذة شيئا من اليتيم كهذا
الذى يجده الناس في فقد الآباء » ، ثم
يقترّب من الحديث المباشر عن الرجل ،
يقول :

« لم يكن الشيخ مهدي من أنصار القديم
ولكنه لم يكن من أنصار الجديد وإنما كان
وسطا بين هاتين الطائفتين ، كان يزدري

أنصار القديم ، ويغلو بعض الشيء في ازدرائهم ،
وكان يراهم خطراً على الرقي العقلي وعلى
الحياة الصالحة ، كما أنه لم يكن يحب المغالاة
من أنصار الجديد ، بل كان يتبرم بهم
كثيراً ويراهم خطراً على الحياة الاجتماعية
والدينية بنوع خاص ، كان شديد الإعجاب
بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وبعض
تلاميذه ، بل كان إعجابه هذا لا حد له .

ويرى طه حسين أن هذا الإعجاب الشديد
كان سبباً من أسباب قصور الشيخ ، إذ
رأى ما وصل إليه الشيخ محمد عبده مثلاً
أعلى وما عده إماماً جموداً أو وثباً خطراً ، مما
جعله يطمئن إلى ما بلغ من رقي لا يتعداه
فجهد في نظر تلاميذه ومنهم طه حسين ،
مما جعلهم يضحكون في غيبته عطفاً عليه
وحباً له .

ويذكر التلميذ إنه كان أثقل التلاميذ
عليه في الجامعة يناقشه ويغاضبه في الدروس
ويحبه حباً جما .

كما يذكر التلميذ أنه بعد أن انتهى من
درس أبي العلاء ظفر بالدليل الذى يرد به
على أستاذه ، ودار بين الأستاذ الممتحن
والطالب الممتحن جدل عنيف تمكن الأستاذ
- في نهايته - من منحه تقديم « جيد جداً »

(١) دار المعارف ط ٩ (١ / ٤٠ - ٤٦) - وانظر تفصيل نقله إياه بعد عودته من فرنسا ، «

بدلاً من « فائق » . . . ومن أساتذته الشيخ طنطاوى جوهرى الذى كان يدعو إلى الاهتمام بدراسة العلوم التطبيقية^(١) . ويدفع عن دارسيها تهمة الإلحاد . وقد تولى التدريس بالجامعة بعد الأستاذ سلطان الذى وصفه طه حسين بأنه كان رجلاً فكها : يحرص على انتقاء ألفاظ كلها حول الياء والجمال والروعة (الأيام ١/٤٥٤ - ٤٥٧) : ومن أساتذته أحمد كامل باشا فى الخضارة المصرية القديمة . على أن تأثيره بأساتذته قد يكون إيجاباً « أو سلباً » بمعنى أن ميزات الأستاذ قد تدفعه إلى العمل على اكتسابها كما أن سلبيات الأستاذ قد تدفعه إلى نقدها وتجنبها . . . كل ذلك فى سبيل بحثه عن تحقيق « التوازن الصحيح » : الذى هو

بدليل الاضطراب والخلط فى مرحلة صباه يبدو ذلك فى بحثه العميق عن العلاقة الدقيقة بين التجديد والتقليد : بين التحرر والجمود فى حديثه وخواتمه ودكرياته عن أساتذته كما أسلفنا فيما أوجزنا نقله عنه من حديث عنهم . سارع طه حسين إلى تعلم الفرنسية^(٢) ليتمكن من متابعة محاضرات الأساتذة الغربيين والمستشرقين : وفى ١٥ من مايو ١٩١٤ تقدم برسالة^(٣) عن أبي العلاء المعرى لنيل درجة الدكتوراه : ونوقش فيها : وفى علمين اختارهما هما الجغرافيا عند العرب ، والروح الدينية للخوارج ، وحصل على الدكتوراه بتقدير جيد جداً وبدرجة فائق فى العلمين : وقبل سفره إلى فرنسا ، قام بالتدريس فى الجامعة .

(١) الدكتور محمد حسين ، الانجازات الوطنية فى الأدب المعاصر ، بيروت ط ٣ : ١٩٧٢ - ١٠ / ٣٥٩ .

(٢) تلقن أصولها فى مدرسة ليلية بحى الأزهر ، أسهم فى إنشائها جاويش كما يذكر طه حسين ويؤكد فتحى رضوان (الثقافة ديسمبر ٧٣ ص ٨) ، وحين لم يجد فى المدرسة ما يبغي استعان بزميل قديم له فى الكتاب اسمه محمود سايان الذى ألقبها فى مدارس الفرير وقرأ معه قصة كالدريد لفولتير كما استعان بأستاذ آخر (الآم ج ٣ ص ٤٦٧ ، ٤٧٢) . وبدأ جاويش يلتقى فى وحه فكرة السفر إلى فرنسا فبات يحلم بها .

(٣) أنظر تقرير اللجنة الممتحنة ، وخطابها للخديو ومقابلة الدكتور طه حسين الخديو وموافقته على سفره إلى فرنسا (ساي الكيالى « مع طه حسين » ج ١ ص ١٩ ، ٢٢ والأيام وغيرها) وقد صدرت فى كتاب له عام ١٩١٥ بعنوان تجديد ذكرى أبي العلاء ، ويتحدث عن إعداد هذه الرسالة وطبعتها : ومساعدة أصدقائه لإدائه فى ذلك ومقابلة الخديو ومن قبله أحمد لطفي السيد ، وتشجيعهما إياه وكذا عاوى باشا (١٨٤٧ - ١٩١٨) ومنحه مبلغاً من المال واصطحبته إلى الخديو وتشجيعه الدائم له (الأيام ج ٣ ص ٤٨٧ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢) .

(٤) الآم ج ٣ ص ٥١٥ : وقد أرسل مدر الجامعة الأكر أحمد فؤاد بشأن السفر حتى علق سفره بالدكتوراه . انظر الرسائل : الآم ج ٣ ص ٤٧٤ - ٤٨١ ، ٥١٠ .

هناك إشارتان عن أبي العلاء ، وابن خلدون في الأيام (٢٠ / ١ : ٩٨) وفيهما نرى إحساسا باكرا لديه بهذين الرجلين وحبهم لأبي العلاء يبدو في وجوه عديدة بعد هذه الإشارة في الأيام ، فقد قرأ لزومياته وصاغها للناس بأسلوبه العذب في كتاب (صوت أبي العلاء)^(١) مدافعا إنكار من ينكر « ترجمة العربية إلى العربية » ، كذلك قراءته رسالة الغفران ، وإعدادة رسالة الدكتوراه عنه ، ويصدر عنه : ذكرى أبي العلاء ١٩١٥ ، وأصبح يحمل اسم تجديد ذكرى أبي العلاء ، ويصدر مع أبي العلاء في مجته ، مسجلا خواطر دارت في ذهنه في رحلة صيفية له بمدينة نابولي ويعاود الحديث عنه في (فنزل في الأدب والنقد) وفي أماكن أخرى من أعماله^(٢).

وقد انتهى إلى أن أبا العلاء كان ثمرة من ثمرات عصره قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية والدينية ، إذ يرى أن (الحادثة التاريخية ، والقصيدة الشعرية ، والخطبة

يجيدها الخطيب كل أولئك نسيج من العمل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء) . وكان بحثه عن أبي العلاء مثلا للمنهج الذي آمن به طه حسين حيث ربط بين الأدب وما يحيط به من سياسة واجتماع . واقتصاد ودين ، والإفادة من علوم تساعد اندرس الأدبي مما أشار به « سانت بييف » (١٨٠٤ - ١٨٦٩) وتين (١٨٢٨ - ١٨٩٣) . وبرونتيير (١٨٤٩ - ١٩٠٦) . وقد يأخذ البعض على هذه الرسالة الإطالة والعناية الزائدة بالعصر .

وحين قرأ طه حسين ما كتبه العقاد عن أبي العلاء لم يوافق على تجنب الحديث في صدق إسلام أبي العلاء تخرجنا ، ورأى إيراد الحقائق وإيثار العلم والتاريخ على كل شيء .

لقد كان حبه لأبي العلاء المعري قديما فغذاه ونماه حتى أينع في رسالة للدكتوراه عنه بمصر ، وكان إعجابه بابن خلدون قديما حتى ترعرع في رسالة للدكتوراه

(١) اقرأ - ٢٣ - مارس ١٩٥٥ :

(٢) منها : هذا مذهبي ، قص ٤٠ ،

عنه بالسربون بفرنسا^(١) عن فلسفة ابن
خلدون الاجتماعية . وكتبها بالفرنسية عام
١٩١٧م^(٢) .

وقد لانتفق مع من يذهب إلى بدء الثورة
المنهجية عند طه حسين بعد عودته من فرنسا،
فالحق أن منهج التفكير الأدبي عند طه حسين
مدين في وجوده ، وبواعثه ، ومكوناته
إلى مرحلة ما قبل سفره إلى السربون ، وهذا

لا يعنى التغاضى عن المؤثرات الأجنبية التى
نؤمن أشد الإيمان بتفاعلها عبر العصور
وفى شتى اللغات . وفى كل مكان ، كما
كما لا يعنى أنه لم يحصل فوائد ضخمة
وتقدما علميا كبيرا ، وتفتحاً ذهنياً ضخماً
بما يكون رصيذا هائلا من المعرفة أثناء
سفره ودراسته بالخارج ، بل نضيف
تأثره بالثقافة اليونانية والرومانية ، لكن
الذى نود أن نشير إليه — بل نؤكد —

(١) هناك أيضا درس اللغة اللاتينية ، والأدب اليوناني ، وأتقن الفرنسية على مدى عامين ، وتلقى
العلم في أربعة معاهد — كما يقول هو :

• السربون حيث درس التاريخ القديم : اليوناني على جاونز ، والروماني على بلوك ، الأدب
الفرنسي على لاندون ، والفلسفة والاجتماع على دور كايم ، وديكرت على ليفي برول، واللاتيني على مارنا ،
والثورة على أولار ، والبيزنطي على شارل ديل ، والتاريخ الحديث على سينبوس ، والجغرافيا على
ديمانجون وجالوا .

• والكوليج دي فرانس حيث درس تفسير القرآن بالعربية على كازانوف ، وعلم النفس على
بيرجانيه .

• ومكتبة القديس جنيغيا حيث كانت تصحبه الآنسة سوزان التي كانت تدرس بمدرسة المعلمات
بسينفر وساعدته كسكرتيرة لتصبح زوجته فيما بعد ، وانظر حديثه عن تزوجه بها بعد نزوله على أسرته
ومساندة أحمد لطفي السيد إياه في ذلك (الأيام ٣ / ٥٧٣ - ٦٢٥) ، وانظر عباس خضر ، غرام
الأدباء ، اقرأ ١٥٧ ، ص ٥ ، وسامى الكيالي مع طه حسين (١ / ٣٠ - ٣٦) .

• أما المعهد الرابع — كما يذكر — فهو البيت الذى يسكنه عند أسرة فئاته حيث تشغل اجتماعاتهم
قراءة الروايات الأدبية ، حيث إنتاج القرن الماضي وأعمال أناطول فرانس ، وبورجيه ، وبريقو (سامى
الكيالي ، مع طه حسين ١ / ٢٥ ، ٢٦) .

وقد أشرف على رسالته « دور كهيم » ، و « سلفان بوجليه » .

(٢) ترجمها إلى العربية محمد عبد الله عنان سنة ١٩٢٥ وقد حصل عليها بمرتبة الشرف الممتازة مع
تهنئة اللجنة ، على يد المستشرق الفرنسي كازانوف ، وكان دور كايم مشرفاً فلسفياً عليها ، وخلفه بعبد
وفاته بوجليه : الأيام ج ٣ ص ٦٠٩ ، و ٦٢١ .

أن مكونات طه حسين ، مما يمكن أن نقف عليه في الصفحات السابقة ، ومما لم نذكره اكتفاء بشهرته ، هي التي صاغت القدرة العلمية لديه ، تلك التي صقلت المعرفة المتنوعة في الآداب الأخرى أثناء سفره .

لقد تقدمت إشارتنا عن حديثه الباكر عن أبي العلاء وربطه بين ذلك وبين حادثة الطعام المشهورة في حياته مما جعله يقول في الأيام (٢٠ / ١) :

« هذه الحادثة أعانته على أن يفهم حقا ما يتحدث به الرواة عن أبي العلاء من أنه أكل ذات يوم دبسا . . . الخ » .

كما تقدم حديثنا عن تلقيه العلم وطرقه ، لتفكير عن أعلام تعددت مشاربهم ومناهجهم . ومستوياتهم ، ومواقفهم من الحرية والجمود ، التقليد والتجديد في الريف ، وفي الأزهر ، وفي الحياة العامة ، وفي الجامعة ، وفي مصادر التراث العربي ، وعن هؤلاء أخذ طه حسين طريقه وتلتمس أو جدد منهجه في التفكير .

إن أساس منهج البحث الأدبي^(١) عند طه حسين نابع من « عقلانية » تكونت لديه ، ولا يخفى

استنباط مصادرها العربية فيما أفضنا فيه من حديث عن أسانته . وهذه العقلانية هي التي قاربت بينه وبين ديكرت في منهج الشك الذي شرحه في رسالته (أصول ترشيد العقل) ، والذي أرجع الباحثون أسس منهج طه حسين إليها ، صحيح أننا لا نلغي وجود هذا المنهج لديه ، ولا ننكر إعجابه الشديد به ، وتطبيقه لياه ، وحديثه عنه في مقدمة (الأدب الجاهلي) وتطبيقه في درس (الشعر الجاهلي) ، ودراسه التفصيلية بفرنسا على يد « ليفي برون » وغيره ، لكننا نريد أن نقول إن « عقلانية » طه حسين استقرت في منهجه قبل سفره ، والدليل على ذلك إنجازه بحث أبي العلاء سنة ١٩١٤ بطريقة العلمية مؤمنا بالمنهج العقلاني الذي يؤكد وجود الأفكار في عقل الإنسان ، وكان هذا المنهج من المناهج الفكرية التي سادت في أوروبا خلال القرن السابع عشر على أيدي « ديكرت » وسبينوزا ، ولا يهتز ، وفي القرن الثامن عشر على أيدي « كانت » وهيغل » وغيرهما . وهم في ذلك يرون أن المنطق الفكري هو الطريقة الوحيدة للبحث عن الحقيقة لأنه يستطيع أن يتجرد من كل الأهواء الذاتية

(١) انظر الدكتور شوقي ضيف : البحث الأدبي - طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره - دار المعارف ١٩٧٢ ص ٢٥١ - ٢٥٧ ، انظر مقال الدكتور شوقي بالخلال - فبراير ١٩٦٦ عن جهود طه حسين ومقال دريني خشبة ، بالجلد الجديدة - أول إبريل ١٩٣١ ص ٦٨٩ (البحث العلمي ونصيب الأدب والتاريخ منه) .

التي تحدّد وجود الإنسان بمحدود ذاته ،
والحقيقة الموضوعية ذاتها تملك - في جوهرها -
نظاما عقلانيا يمكن العقل البشري من إدراكها .
أو بمعنى آخر فإن إدراك العقل البشري
لمنطق الحقيقة يقيم نظاما منطقيًا يستمد فهمه
لها من طبيعتها بصرف النظر عن الاعتبارات
الخارجية : لذا يجرّد المفكر عقله من الشوائب
حتى لا تفسد الموضوعية لديه .

لقد أخذ طه حسين عن محمد عبده ولطفي
السيد الكثير ، ومنه هذه العقلانية ، وبخاصة
على صفحات (الحرية) ، لقد تجلّى المنهج
العقلاني في رسالته عن أبي العلاء سنة ١٩١٤
أي قبل سفره إلى فرنسا ، بل إنه لم يختلف
مع « ديكارت » بعض الاختلاف في إيمان
ديكارت بالقدرة المطلقة للعقل البشري في
فهم قوانين الكون ، ويرى في كتابه (مع
أبي العلاء في سجنه) أن العقل ليس هو سلاحه
الوحيد بل هو أهم الأسلحة .

لسنا بذلك نذهب إلى إلغاء الأثر الديكارتي
في طه حسين ، ولسنا بذلك نتغاضى عن
تطبيقاته وإعجابه ، بل نوّكد الأثر الذي
تركه أساتذته العرب المعاصرون فيه . كما
سنرى أثر أساتذته العرب القدامى فيه بعد
قليل .

ويعود الدكتور طه حسين إلى مصر
بتأثيراته العالمية بعلماء الغرب ، وبالعلمين
الذين كانا موطن رسالتيه الجامعتين « أبي

العلاء » ، وابن خلدون » ، وتأثيراته بمفكرى
الإسلام ، ومفكرى مصر وخاصة الشيخ
محمد عبده ، والشيخ سيد بن علي المرصفي ،
وأحمد لطفى السيد أستاذ الجليل ، والشيخ
عبد العزيز جاويش إلى جانب أساتذته
الآخرين ، هذا ولا يغيب على من يبحث
منهج البحث الأدبي عند الدكتور طه حسين
مراعاة المرحلة الزمنية التي مرّ بها هو وأبناء
جيله ، بل ومن سبقه ومنّ تلاه من أجيال
حيث امتزجت الأفكار والمبادئ بروح مثالية
نتيجة قراءات قديمة وحديثة ، وخاصة ما وفد
عن طريق الحضارة الغربية . ومن هنا يأتى
تفسير وقوف هذه الأجيال في وجه بعض
ما تعارف عليه المجتمع في شتى ضروب
الحياة ، وإن لم يكن هذا الموقف في صورة
التغير الجذري ، حيث لجئوا إلى دعوات
الإصلاح ، وإلى مناصرة الدعوات التجديدية
الحرية ، والإعجاب بمظاهرها ، كذلك
الإعجاب الذى أحاط بمىّ زيادة في مجتمع
لم تكن المرأة فيه قد تمتعت بكل ما نادى
به قاسم أمين وأتباعه ، ويزداد هذا الإعجاب
بما يرونه من تقدم وأخذ بأساليب الحضارة
في مواطن دراساتهم وأسفارهم بالخارج ،
وبخاصة في إنجلترا وفرنسا ، مما أوجد تنافسا
بين هاتين الثقافتين ، وتحاورا بين تلاميذهما
بلغ حد المعارك الفكرية ، وشارك فيه منّ
لم ينتم إلى أى من هاتين الثقافتين . ويتصل

بهذا ما خاضه الدكتور طه حسين من
معارك .

بل إننا لا نملك إلا أن نسأّم بما يلمحظه
الباحثون^(١) من تأثير طه حسين بطريقة أحمد
ضيف ، إذ حلّ طه حسين محله في التدريس
بالجامعة بعد أن صارت حكومية سنة ١٩٢٥
وتولّى من بعده تدريس الأدب العربي
فقدّم للطلاب (في الشعر الجاهلي) الذي
طُبِعَ سنة ١٩٢٦ كما سترى بعد قليل . فقد
سبقه إلى الطرق الحديثه أحمد ضيف ودعا
إلى طريقة سماها (الطريقة النقدية) كذلك
التي سماها طه حسين (المقياس الأدبي) ، كما
أشار ضيف للشكّ عند المستشرقين قبل
طه حسين^(٢) . ولم يمض في حديثه مثله
كما سبقه مصطفى صادق الرافعي في (تاريخ
آداب العرب) سنة ١٩١١ (ص ٣٦٥ -
٣٨٥) .

وغنيّ عن البيان الوقوف على مصدر
هذه التفضية عند طه حسين ، وإن نضيف
جديدا حين نشير إلى سبق « مارجليوث »
لى بحث قضية الشكّ في الشعر الجاهلي ، وإلى

محاضرات « جويدي » بالجامعة الأهلية سنة
١٩٠٨ حول الأحرف السبعة في القرآن
الكريم : وحديثه عن مخالفة اللغة الحميرية
لغة قريش : وإلى محاضرات « ماسينيون »
وكازانوف وغيرهما . بل لا ننكر ما اكتسبه
طه حسين من منهجية وسعة أفق خلال
دراساته ومطالعاته في مرحلة دراسته في
باريس .

لكن الذي يهمنا هو الأثر العربي عند
طه حسين ، فنقد ناقش الرافعي التفضية
سنة ١٩١١ في كتابه (تاريخ آداب العرب)
كما أن طه حسين انشغل - بفعل التأثيرات
العربية أولا والأجنبية ثانيا - بقضية تحقيق
النصوص التراثية من قبل عهد كتابه (في
الشعر الجاهلي) الصادر سنة ١٩٢٦ ، فداعبها
عن كثب ، ففي عام ١٩١٥ كتب طه
حسين سلسلة من المقالات عنوانها (إلى
الآنسة صبيح) نشرها بمجلة (السفور)
متحدثا عما يراه من منهج صحيح في البحث
الأدبي : ويذهب إلى أن « النساء » ليست
شخصية تاريخية ، وأن أخبارها دُوِّنت بعد

(١) الدكتور أحمد هيكمل ، الثقافة ، ديسمبر ١٩٧٣ ص ٦٠ : وانظر كذلك (مقدمة الدراسة
بلاغة العرب) سنة ١٩٢١ لأحمد ضيف ص ٨ وما بعدها وص ١١٥ وما بعدها ، و ١٤٣ وما بعدها ،
ولطه حسين (في الأدب الجاهلي) ص ٣٩ - ٤٥ ، وقد طبع كتاب أحمد ضيف قبل كتاب طه حسين ،
وأذيع في الطلاب قبل ذبوع رأى طه حسين .

(٢) عند أحمد ضيف ص ٥٠ وما بعدها ، وعند طه حسين ص ٦٣ وما بعدها .

مُضَى أكثر من قرن على وفاتها^(١)، وأنها شخص يبحث عنه علم ما قبل التاريخ .

ولسنا - بطبيعة الحال - في مقام عرض قضية الشك في الشعر الجاهلي . واستخدام طه حسين المنهج الديكارتي^(٢) في بحثها . ولكننا نود أن نشير إلى التأثير العربي فيه بتذكر من سبقه من معاصريه . وبتذكر إشارته الباكورة سنة ١٩١٥ عن تشككه في شعر الخنساء .

ومن القدماء سبقه إلى قضية الانتحال ابن سلام الحمحي (ت ٥٢٣٢هـ) في كتابه (طبقات

فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين^(٣) وقد رجع إليه طه حسين رجوعاً مباشراً وأشار إلى ذلك كل من تناولوا كتاب (في الشعر الجاهلي) لطلح حسين ، وفنّدوا آراءه . ولعل أوفاهم في هذا النجال محمد أحمد الغمراوي في كتابه (النقد التحليلي) الذي أخذ يبين المواطن التي وقع عليها طه حسين في كتاب ابن سلام بالصفحات والنصوص . وقد تيسر للغمراوي قدر من العلمية أكثر من غيره ممن ردوا على طه حسين ؛ إذ تمهّل في الرد حتى سنة ١٩٢٩ ، وجاء نقده للكتاب بطبعتيه : الأولى والثانية .

(١) السفور من ١٢/١/١٩١٥ - ١٩/١١/١٩١٥ ، وانظر الدكتور محمد أبو الأنوار (من قضايا الأدب الجاهلي) مكتبة الشباب ١٩٧٦ ص ١٢١ ، وما بعدها ، واخلال - أغسطس ١٩٧٣ - الخنساء عاشقة الخلد .

(٢) شرح هذا المنهج وطبقه في كتابه « في الأدب الجاهلي » سنة ١٩٢٧ (ط ٣ ، مطبعة فاروق ١٩٣٣ ص ٥ وغيرها) ، وهي طبعة معدلة للطبعة الأولى التي صدرت عام ١٩٢٦ باسم « في الشعر الجاهلي » ، فأحدث أثراً كبيراً في مناهج البحث الأدبي ، وتناولها الكثيرون بالرد منهم : مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧) في « تحت راية القرآن » ١٩٢٦ ، ومحمد فريد وجدي (١٨٧٨ - ١٩٥٤) في « نقد الشعر الجاهلي » ، ومحمد لطفي جمعة (ت ١٩٥٣) في « الشهاب الراسد » ، ومحمد الخضر حسين (١٨٧٧ - ١٩٥٨) في « نقض كتاب الشعر الجاهلي » ، ومحمد أحمد الغمراوي في « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » ، مع مقدمة للأبير شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦) ، وكذلك إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩ - ١٩٤٩) في كتابه « قبض الريح » عام ١٩٢٧ ، والدكتور ناصر الدين الأسد : « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية - دار المعارف ١٩٥٦ ، والدكتور شوقي ضيف ، « العصر الجاهلي » : دار المعارف ط ٦ ص ١٦٤ .

(٣) تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، وانظر النصوص ص ٥ - ٦ : و ٨ ، وانظر الدكتور محمد مندور ، « النقد المنهجي عند العرب » ، نهضة مصر ١٩٧٢ ص ١٩ ، والدكتور محمد زغلول سلام . « تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري » : دار المعارف ١٩٦٤ في حديثه عن ابن سلام ص ٩٦ - ١٠١ .

وقد ناقش الغمراوي المنهج العلمي لطله حسين وصلته بمنهج ديكارت ، ونحطاً تطبيقه ، وملاحظاته على الشك والحدس عنده ، وتجاوز حجم الكتاب ثلاثمائة صفحة . بل نضيف أن طه حسين مسبق بإشارة المفصل الضبي (ت ١٨٩ هـ) ، وحديثه عن حماد (ت ١٥٥ هـ) ، وحديث أبي الفرج الأصفهاني عن خلف الأحمر (ت ١٨١ هـ) وقيام كل منهما بالموضع ، كما أنه مسبق بحديث ابن هشام (ت ٢١٨ هـ) في السيرة . ويغنيانا ذلك عن إيراد النصوص ، وعقد الموازنات ، وذكر الصفحات لنصل في

النهاية إلى أن المصدر الرئيسي للفكرة هو محمد بن سلام الجعفي ، وليست فكرة تطبيق منهج الشك الديكارتى الذى يمكن أن يكون منهجا عاما في التفكير ، كما يصلح أن يكون منهجا لبحث أية قضية أو أية مشكلة . وبذلك يمكن القول إن مصادر طه حسين في هذه القضية — أساسا — عربية ، وأنها استشرت لديه من بحوث العرب ، ومناقشاتهم ثم أخذت مجراها الحاد وانزاعق بتأثير «نولدكه» و «مرجليوث»^(١) وغيرهما من المستشرقين ثم أخرجت إخراجا علميا بمدخل الشك الديكارتى ، أما حقيقة الأمر فإن طه حسين مدين — في هذه القضية — لابن سلام^(٢)

(١) أنظر تاريخ الأدب العربى « بلاشير ١ - ١٧٦ وما بعدها ، وانظر الدكتور شرقى ضيف ، العصر الجاهلى » ، دار المعارف ط ٦ ص ١٦٤ وما بعدها ، وقد بدأها « نولدكه » سنة ١٨٦٤ ، و آلورد » ، و « مرير » ، و « ياسيه » ، و بروكلمان ، وقد رد شارل جيمس ايمان على مرجليوث في مقدمة المفضليات سنة ١٩١٨ ج ٢ .

ونشر مرجليوث مقالا بمجلة الجمعية الآسيوية سنة ١٩١٦ ثم في رايو ١٩٢٥ في بحث عنوانه أصول الشعر العربى)

The origins of Arabic poetry

Journal of the Royal Asiatic Society 414 - 419

وما نشره في معجمة الدين والأخلاق مادة محمد مج ٨ ص ٨٧٤ ، وفي محمد وظهور الإسلام ١٩٠٥ ص ٦٠ .

Mohammad and the Rise of Islam.

(٢) يقول في كتابه (طبقات فحول الشعراء) : « وفي الشعر المسموع متعل موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في عريته ، ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه من أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال (شىء منه) — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى) : (طبقات فحول الشعراء » ص ٥ و ٦ تحقيق محمود شاكر — دار المعارف ١٩٥٢

أولاً ، كما تفصح الصفحات والنصوص
ثم إلى مَنْ سبقة من الباحثين العرب ، ثم
إلى المستشرقين .

وأهم ما نراه في هذه المسألة أنها نابعة
من حرية التفكير لديه وهي ركن من أركان
الثالوث الذي تحدثنا عنه . والذي تلقاه
عن أستاذه محمد عبده : ولطفي السيد ، هذه
الحرية في البحث هي التي دفعت العقاد
إلى أن يتصدى للدفاع عن طه حسين حين
اشتعلت نار معركة (في الشعر الجاهلي)
سنة ١٩٢٦ واشتدت أوارها ، وحوكم الكتاب
والمؤلف ، وانشغل الرأي العام ، وطالب
البعض بإبعاد المؤلف عن الجامعة لأنه مسـ
الدين الخفيف : ووافق الكثيرون على ذلك ،
وتصدى العقاد (١) مدافعاً عن حرية الفكر
والبحث العلمي .

ويصح - في نظرنا - أن نقول إن
صدى الأصول العربية في منهج البحث
الأدبي عند طه حسين أخذت أطواراً من
البحث ، واتسم كل طور باهتمام ما :
واتضح اقتراب طه حسين من نقطة « التوازن
الصحيح » بين عنصرى الاستقرار والتطور
التي شغلته كثيراً .

فكان الطور الأول : هو : (طور بحثه
في أبي العلاء) ، وكم تحاور - وهو بعد
طالب بالجامعة الأهلية - مع أستاذه الشيخ
المجدي كما حدثنا في (حديث الأربعماء)
وكم ربط بين كنف بصره وكنف بصر أبي
العلاء كما حدثنا في أيامه .

وكان الطور الثاني . هو : (طور بحثه
في ابن خلدون) ، وقد أحس به كما أشار
في الأيام أيضاً . وأحس به في نظراته للتطور
الخصاري .

وكان الطور الثالث ، هو : (طور قضية
الشك أو الانتحال في الشعر الجاهلي) .

ثم كان الطور الرابع : وهو ممتد طويل
في (معاركه وقضاياها) التي لا تكاد تحصر (٢) .

وفي ذلك كله نرى تناقض ما تلقاه طه
حسين ، ومحاولته الجادة في المواءمة بين
ما تلقى من ناحية : وإرضاء نفسه . وقد
كان « طائفة » كما حدثنا . مما يجعلنا نتذكر
كلمته القديمة التي صدرنا بها بحثنا :

« وكان صبيها يختلف بين هؤلاء العلماء
جميعاً ، ويأخذ عنهم جميعاً ، حتى اجتمع
له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف
مضطرب متناقض . ! أحسب إلا أنه عمل

(١) هلال إبريل ١٩٦٧ ص ١٠ .

(٢) منها - على سبيل المثال - معركته مع مصطفى لطفي المنفلوطي ، ومع مصطفى صادق الرافعي ،
ومحمد حسين هيكل . وزكي مبارك ، والعقاد ، والشيخ رشيد رضا . . . الخ .

عملا غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل
من اضطراب واختلاف وتناقض^(١) .

غير أن الأمر يختلف في صدر حياته
عنه بعد نضجه واستحصاء عوده ، إذ
يكون الأمر هنا بمثابة تصحيح للمنهج ،
ومراجعة للنفس ، ومن هنا كان له أن
يحف فصولا ويضيف أخرى . لينتقل
من أحكام (الشعر الجاهلي) إلى أحكام (الأدب
الجاهلي) . وكان له أن يمد يديه إلى أحمد
أمين ، وعبد الحسيد العبادي ليكتب معهما
في ميدان الدراسات الإسلامية مطبقا منهجه
الأدبي في أبي العلاء فيلدرس نحو قرن
من تاريخ الإسلام ، وليسهم بمجمع اللغة
العربية منذ دخله في نوفمبر ١٩٤٠ حتى لقي
ربه سنة ١٩٧٣ : دخله في زمرة من كبار
الخالدين أمثال : لطفى السيد ، وعبد العزيز
فهمي ، ومصطفى المراغي . ومصطفى
عبد الرزاق ، وهيكلي ، وعلى إبراهيم ، والعقاد ،
وأحمد أمين ، وعبد القادر حمزة^(٢) .

وكان له أن يوجه الناس إلى الأدب
التقديم ويحببه إليهم ، كما تنطق كتبه بهذا .

ولعل في مقالاته المتتابعة أسبوعيا ما يؤكد
هذه الحقيقة كما نرى في مقالات (حديث
الأربعاء) حول الشعر الجاهلي ، والإسلامي
والأموي . والعباسي ، والأدب الحديث
ومناقشاته المتعددة حول المواجهة بين القديم
والحديث . والوساطة بينهما . ونقده اختصار
كتب التراث . واعتبار ذلك « مسخا »
للتراث . كما نرى في نقده (مذهب الأغاني)
لحمد الخصري . واعتبار ذلك عدوانا على
التراث^(٣) .

كما كان على صانه وثيقة بالحركة الفكرية
والأدبية بمصر عامة وبالجامعة خاصة . وكان
بالجامعة نموذجان للتأليف الأدبي : أحدهما
عربي على يد حفني ناصف والرافعي ، والآخر
للمستشرق كارلو نلليو ، ثم ظهر كتاب
جورجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية)
وكتاب أحمد السكندري (تاريخ آداب
العرب) ، ودار النقاش على صفحات
(الجريدة) حول انتداب مستشرق لدراسة
الأدب العربي بالجامعة وكتب طه حسين^(٤)

(١) الأيام ج ١ - الفصل الرابع ، الفقرة الأخيرة .

(٢) انظر : هلال : ٢ إبريل ١٩٧٥ . الدكتور إبراهيم بيومي مذكور ص ٣٠ .

(٣) انظر حديث الأربعاء ٥٨ / ٣ ، ونقده لتهديب الكامل للأسباعي بيومي : ويؤثر للوسطية بين
التقديم والحديث .

(٤) ٦ مايو ١٩١١ .

مادحا منهجى ناصف ونلليزو : ونقد كتاب
الرافعى ، وتوالت مقالاته (نحن والرافعى) (١)

وكان له أن يتحدث عن الروح الجامعى
« المرتفع فوق كل الفروق » ، ليميز الإنسان
عن كل حى » ، هذا الروح :

« هو حب الحق والبحث عنه ، هو الرغبة
فى المعرفة ، والحرص عليها ، هو الإقبال
على العلم من حيث هو ، لا من حيث ما قد
ينتج من الخير » (٢) .

وبذلك نرى أن أخذه بوسائل التفاعل
مع الآداب والمناهج العالمية لم يقطعه عن
التأثير المباشر بمصادره العربية فى تراثنا البعيد ،
وفى حياتنا الثقافية المعاصرة كما تجلى فى
آرائه وتفكيره ، بل منبج حياته .

ولذلك صلة وثقى بنظراته للعلاقة بين
التقديم والحديد ، يقول :

« فما دامت هناك حياة فهناك قديم وجديد
وجهاد بين القديم والحديد ، وأنصار للقديم
وأنصار للجديد »

والسياق الذى قدم فيه قولته تلك كان
معرض رده على الرافعى بمناسبة رسالة
كتبها الرافعى عنونها فى العتب ، وقد
استأثر الرد بأكثر من ثلاثين صفحة من
حديث الأربعاء : وانتهزها طه حسين
فرصة مناقشة قضية القديم والحديد ؛ ولأن
أساس الخلاف بين موقفه وموقف الرافعى
حول هذه الرسالة هو اللغة : رأى أن
تكون هى تفسير العلاقة بين القديم والحديد
متسائلا : لمن اللغة ومن واضعها ؟ ومن
الذى ينتفع بها ؟ .

يقول : « ولكننا نعلم أن اللغة ليست من
وحى السماء ، وإنما هى ظاهرة من ظواهر
الاجتماع الإنسانى : لم يضعها فرد بعينه
ولا جماعة بعينها ، وإنما اشتركت فى وضعها
الامة التى تتكلمها دون أن تعلم متى وضعها
ودون أن تستطيع أن تعين لكل فرد من
أفرادها أو جماعة من جماعاتها حظا من
الفاظها وأساليبها » .

ثم يراعى اختلاف حفظوا الأفراد من
العقل والرقى ، واختلاف لغة العالم عن

(٤) إبريل ١٩١٢ ثم ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ من يناير ١٩١٣ ، انظر الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أدب
النقاة الصحفية ١٦٤/٦ وما بعدها ، و١٧٤ وما بعدها .

(١) هلال - ج ٤ م ٤٦ سنة ١٩٣٨ ص ٢٦١ .

(٢) حديث الأربعاء ٣١/٣ .

عمامة الناس . وحين يتصور أن هناك من
يترجس من إصابة اللغة بعدم الثبات والاستقرار
يقول :

« وإذا ففي كل شيء من هذه الأشياء
الاجتماعية عنصران مختلفان لا قوام لأحدهما
بدون الآخر : أحدهما عنصر الاستقرار .
والآخر عنصر التطور . وقوام الحياة
الصالحة لأمة من الأمم أو مظهر من مظهرها
الاجتماعي إنما هو التوازن الصحيح بين
هذين العنصرين ، فإذا تغلب عنصر
الاستقرار فالأمة منحطّة ، وإذا تغلب
عنصر التطور فالأمة ثائرة والثورة عرّض
والانحطاط عرّض . كلاهما يزول ليقوم
متممه النظام المستقر على اعتدال هذين
العنصرين . في اللغة إذن قديم لا بد منه إذا
أردنا أن تبقى اللغة . وفيها جديد لا بد منه
إذا أردنا أن نحيا ، وأنصار الجديد في
اللغة والأدب لا يريدون إلا هذا الزرع من
الحياة » (١) .

انظر إلى حكمه على التصادى في الاستقرار
والثبات رجعله انحطاطاً عارضاً سوف يزول .
وحكمه على الاندفاع في التطور وجعله
ثورة عارضة سوف تزول .

(١) حديث الأربعاء ٣/ ٣٣ - ٣٥ .

(٢) هو الشيخ المهدي : والموقفان في حديث الأربعاء ٣/ ٤٣ ، ٤٤ .

ثم انظر إليه كيف يخلص من عيّبي :
الانحطاط والثورة إلى منهج « التوازن الصحيح
بين هذين العنصرين » أو « الاعتدال »
بينهما .

إن هذا التوازن وهذا الاعتدال هو
الذي جعله يقف من أحد أساتذته (٢) موقفين
حاول فيهما تحقيق نوع من التوازن الصحيح
بين قديم يشرط في الحدود . وتطور يجمع
في الثورة .

يروى لنا المرقف الأول قائلا :

« عندما كنت أضع كتاب أبي العلاء
وأقدم لامتحان الدكتوراه في الجامعة
المصرية : فقد سمعت له درساً في شعر أبي
العلاء ووقع بيني وبينه خلاف في رأى أبي
العلاء في البحث . زعمت شيئاً وأنكره ،
وطالبني بالدليل ولم يحضرنى الدليل في الدرس
فتظهرت مظهر المنهزم . وسره ذلك وظهر
سروره ، فحفظتني في نفسي ، ومضيت
في تأليف الكتاب : حتى إذا وصلت إلى
رأى أبي العلاء في البحث تناولات هذا الرأى
وكنت قد قرأت اللزومات كلها : وظفرت
بما كان يُطلب إلى من دليل . فذكرت
ما كان بيني وبينه من خلاف وذكرت
ذلك في لفظ لا يخلو من الفخر القاسي . »

ويروى لنا الموقف الثانى مع الأستاذ نفسه حين عاد بعد أن قضى شهراً فى باريس سنة ١٩١٥ ركان قد اختلف هناك إلى دروس بعض الفرنسيين فمقارن بين درس الأستاذين على نحو لا يرضى شيخه على صفحات (السفر) مما أغضب الأستاذ والكثيرين حوله .

كتب ذلك ولما يمض بفرنسا إلا شهراً قليلة : قبل أن يحقق نوعاً من « التوازن الصحيح » الذى حدثت لنا عنه ، وحين بلغ هذا التوازن والاعتدال نظر فى أوراق كتابه (فى الشعر الجاهلى) فعمد إلى الفقرة التالية^(١) وحذفها حذفاً :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً : ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى : فضلاً عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة . . الخ » .

فلذا ما انتقلنا قبل هذه الفقرة وبعدها إلى كتاب (فى الأدب الجاهلى)^(٢) فسنجد هذه الفقرة قد حذفت . وهذا إدراك للخطأ

بل للخطيئة : خطيئة المساس بالدين : وهذا منهج علمى بثبت دنوة من منهج « التوازن الصحيح » : وحين توازن بين صفحات الكتابين أو — إن شئت الدقة — الطبعتين من الكتاب سنجد أن ما حُذِفَ منها هو ما كان يسئ إلى منهج « التوازن الصحيح » الذى ينشده طه حسين : وقد تراجع عنه وما أظنه إلا كان نادماً على صدورده منه . ولا تعنيننا الزيادات المتمثلة فى :

الأعشى . والكتاب الخامس عن شعر مضر ، والكتاب السادس عن الشعر ، والكتاب السابع عن النثر الجاهلى ، وكل ذلك بين صفحات ٢٤٣ و ٣٥٥ أى نهاية الكتاب . وهو ما عبر عنه فى الصفحة الأولى من الطبعة المعدلة بقوله :

« حُذِفَ منه فصل وأثبت مكانه فصل ، وأضيفت إليه فصول ، وغُيِّرَ عنوانه بعض التغيير : فلا تعنيننا الإضافة بقدر ما تعيننا خطوة الحذف : لأن الحذف تراجع عن الخطأ ، واقترب من الصواب .

والحق أنه اقترب من « التوازن الصحيح » الذى كان غائباً عن طه حسين منذ مطلع صباه فى مرحلته الريفية البعيدة ، وظل

(١) فى الشعر الجاهلى ط ١ . ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م ص ٢٦ وكان قد صدر فى ٢٢ من مارس .

(٢) لجنة التأليف والترجمة والنشر . مطبعة فاروق ط ٣ ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ ص ٨١ : وصدرت الطبعة المعدلة فى ١١ من مايو ١٩٢٧ ، أى بعد مرور عام على صدور الطبعة السابقة .

جادا في البحث عنه في محاوراته مع مصادره المتروعة والمشاهدة : ويعتبر هذا التصحيح رد فعل حوار المتعاصرين له ؛ إذ انبرى لطله حسين نخبة من مثقفي العصر : وأدبائه يصححون مسار تفكيره ويستبدون خطوات منهجه : ويتقوون ما اعوج من آرائه حول قضية الشك في الشعر الجاهلي ، وما تفرع عنها من حوار ديني يمس العقيدة ، ويجري في طريق بعض المستشرقين .

وفي ظني أن استجابة طه حسين : وخضوعه للتعديل من آرائه : والتخفيف من غلوائه ، آية تناعله الصادق مع المنهج العلمي ، وفي ظني - أيضا - أن طه حسين لو لم يكن مقتنعا لما كفكف من غلوائه ولما لوى عنان فرسه الجامح : وهو بصدد هدم المصادر لا مجرد « نقد مصادر الشعر الجاهلي »^(١) بعد اعتدائه .

وإذا كان لي أن أستشهد لإثبات هذا التوازن بكلام ساقه ناقد في معرض حديثه عن (طه حسين والنقد الأدبي)^(٢) لأثبت

هذا القول له عن طه حسين في جانب آخر من جوانب نشاطه النقدي :

« ولهذا فإنه كما يتعرض بالنقد للرافعي لتقليديته ، ينقد سلامة موسى لتطرفه في دعوى التجديد : وقد ظل هذا الإدراك المتوازن لطبائع الأشياء منطلقا أساسيا من منطلقات طه حسين النقدية : وهو سمة من سمات الإصلاح « المتلد » .

فما يسميه ناقدنا هنا « الإدراك المتوازن لطبائع الأشياء » ، هو - في تصوري - ما عناه طه حسين بتعبيره السابق « التوازن الصحيح بين العنصرين » .

وإذا ما تساءلنا عن تحقق هذا التوازن في التفكير المنهجي عند طه حسين كان لنا أن نصيف إلى فهمنا لمصطلح التوازن - كما أوضحه طه حسين - حقيقة المنهج في أبسط دلالاته اللغوية وهي الطريق الواضح وجوهر التفكير : أو « العقل » أو « التموة الناطقة » وبها تكون الروية . وبها تقتنى العلوم والصناعات ، وبها يميز بين الجميل والقبيح من الأفعال على نحو ما تحدث

(١) التعبير الأخير بين علامتي التنصيص للدكتور شوقي ضيف ، البحث الأدبي : دار المعارف

١٩٧٢ ص ٢٥١ .

(٢) النص للدكتور عز الدين إسماعيل - الثقافة ١٩٧٣ ص ٦١ : والنص المتقول ص ٦٥ .

« الفارابي »^(١) وهذه « القوة الناطقة » هي
رئيسة كل القوى الإنسانية المدركة^(٢) ويصبح
لها سلطة التحكم فيها .

في رحلة طه حسين نحو تحقيق التوازن
ما هو يحدثنا صراحة عن نظارته إلى طرفي
التوازن : وإن شئت قلت التناقض ، ونرجع
في ذلك - هذه المرة - إلى المقدمة التي كتبها
لكتاب كارلو ألفرنسو نالينو C. A. Nallino
(١٨٧٢ - ١٩٣٨) : (تاريخ الآداب
العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية)^(٣)
ص ٩ - ١١) : وفيها يتحدث سيد بن علي
المرصفي ومحاضراته بالأزهر في الصباح .
ويتحدث محاضرات نالينو بالجامعة في المساء .
ويعرض في ذكر كل من هذين العلميين
القرابين إلى نفسه ، حتى يصل إلى عقد
موازنة بين المنهج الفكري والعلمي لكل
منهما . الأول : منهج قديم يعيش مع
الماضي : والثاني منهج حديث يعيش مع
الحاضر . وتبحثنا موازنته بين هذين المنهجين
لأنها في الحقيقة حديث عن قضية الاختيار

لديه . فيمضي في الموازنة بين هذين العلميين
فيقول عن المرصفي :

« عاتمتني كيف أقرأ النص العربي القديم
وكيف أفهمه ، وكيف أتمثله في نفسي ،
وكيف أحاول محاكاته » .

ويقول عن نالينو :

« علمني كيف أستنبط الحقائق من
ذلك النص . وكيف ألتزم بينها : وكيف
أصوغها آخر الأمر علما يقرؤه الناس
فيفهمونه ويجدون فيه شيئا ذا بال » .

وهنا نقف على أسس منهجه في البحث
الأدبي المستمد من هذين الاستاذين واستمرار
تأثره بهما مدى حياته : كما نرى في النص
التادم ، بما يسمح لنا باعتبار هذين المنهجين
محور نظرية التوازن عنده . يقول :

« وكل ما أتيح لي من هذين الأستاذين
العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر
وفي خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس
الذي تلقينته منهما في ذلك الطور من أطوار

(١) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق ألبير نصرى نادر ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت
ص ٧١ .

(٢) نفسه ص ٧١ : ٧٢ .

(٣) هي مجموعة دروس نالينو في الجامعة المصرية ١٩١٠ - ١٩١١ ونشرتها ابنته مريم (مارينا)
مقدمة لطف حسين . دار المعارف . ١٩٥٤ ، واحتات المقدمة الصفحات من ٣ - ١١ ، ويضم الكتاب
ثلاثة أبواب في ٢٩١ ص .

الشباب ، بفضلهما لم أحس الغربية حين
أمعنت في قراءة كتب الأدب القديم ،
وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوروبيين
في جامعة باريس .

ومن حديث طه حسين نقف على أنه
تلقى أصول فهم النص عن المرصني ،
وأصول دراسة النص دراسة علمية عن
نلليو، أي أنه تلقى مصداق الدراسة الناجحة
وهما : الفهم ومنهجية التناول ، وكان عليه
أن يحقق نوعا من التوازن بين المنهجين
المتكاملين .

وقد قدّم لنا طه حسين مفتاحا نتعرف
به نظريته في التوازن بين الاستقرار أو
الثبات أو الجسود من ناحية ، والتطور
أو التجديد من ناحية أخرى ، فرأينا مرحلة
الخلط والاضطراب كما سماها وذكرها في
مطلع حياته . والحق أنه إذا كان النص قد
اجتمع له مقدار من العلم ضخم مختلف
مضطرب متناقض^(١) في مطلع حياته بالريف
أدى إلى أن عمل « عملا غير قليل في تكوين
عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف
وتناقض » . فإن ذلك القدر الضخم صار
قدرا هائلا ، وبمقدار تراكم المادة العلمية

ازدادت الفجوة بين تياراتها ومناهجها
ومذاهبها : وبخاصة ما يتصل بشاطئ
المعرفة : الشرقية من ناحية ، والغربية من
ناحية أخرى ، ولا شك في أن التاريخ
قد أعاد نفسه مع الشاب بطريقة تتفق أو
تختلف مع ما حدث للصبي من قبل فأغزره
تناقض المنهج العربي والمنهج الغربي إزاء
المسلمات التراثية والدينية : ومن هنا حصل
في عهد أزمة الشعر الجاهلي « الاضطراب
والاختلاف والتناقض » الذي وجد متنفسه
مع حرارة التجربة الجامعية بالنسبة له ،
وشموخ الغد ، وذبوع الصيت ، وحيرته
في تحقيق التوازن بين هذا وذاك . آية
ذلك أنه ما لبث أن اختط طريقه في (نظرية
التوازن) بطريقته (في الأدب الجاهلي) لنرى
منهجا في التفكير لديه أكثر استقرارا واتزاناً
عن ذي قبل : وهو يمثل المرحلة الكبرى
من حياته منذ سنة ١٩٢٧ حتى لقي ربه
سنة ١٩٧٣ : فرأينا « الوسطية » و « الاعتدال »
في نظريته العامة للامور ، والقضايا ، وبخاصة
ما يتصل بقضايا الأدب ومناهج البحث فيه .
وفي هذه المرحلة يمكننا أن نقول بنظرية طه
حسين في التوازن بين الاستقرار والحمود .

(١) حديث الأربعاء ، دار المعارف د - ت ج ١ ص ١٣ ونشرت بالجهاد في ٣٠ من ناير
١٩٣٥ وضم الكتاب - بأجزائه الثلاثة - ما نشره بالسياسة بين ٦ من ديسمبر ١٩٢٢ ، ١٧ ديسمبر ١٩٢٤
والجهاد من ٣٠ يناير إلى ٢٢ مايو ١٩٣٥ ، وضم الجزء الأول مقالات حول الأدب القديم : الجاهلي والإسلامي .

ونستعين - في ختام مقالنا - بنصوص
منه حول اعتزازه بالقديم : ولما أكثرها
من ذلك قوله :

« نحن نحب القديم أن يظل قواما للثقافة
وغذاء للعقول . لأنه أساس الثقافة العربية
فهو إذن مقوم لشخصيتنا . محقق لقوميتنا
عاصم لنا من الفناء في الأجنبي ، معين لنا
أن نعرف أنفسنا . فكل هذه الخصال أمور
لا تقبل الشك » .

ويختتم مقاله هذا وعنوانه : (أثناء قراءة
الشعر القديم) : قائلا :

« ثم تم الاتفاق بيننا على أن يكون يوم
الأربعاء من كل أسبوع موعدا لهذه النزهة
في صحراء الأدب الجاهلي التي يراها الناس

صحراء ، وأراها أنا حديقة من أجمل
الحدائق وأورعها » (١)

ذلك أنه حقق التوازن الصحيح بين
الاستقرار كما تلقاه عن المدرس وأمثاله
والتطور الذي أخذه نلليو وأضرابه . وهذا
التحقيق لم يتخلق بهذه السهولة . وبحسبنا
قول طه حسين عن تخلق المذهب لديه :
« أكاد أعتقد أني لم أعرف مذهبي في
الحياة إلا شيئا فشيئا : لأن هذا المذهب
نفسه لم يتكون إلا قليلا قليلا ، فرضته على
ظروف الحياة . وهي التي استخرجته من
من أعماق طبيعتي استخرجا بعد أن كان
كامينا فيها كمون النار في العود كما يقول
انشاعر القديم » (٢) .

يوسف حسن نوفل
الأستاذ بكلية البنات
ورئيس قسم اللغة العربية
جامعة عين شمس

(١) ر المصدر السابق : ص ١٧ .

(٢) هذا مذهبي - بأقلام نخبة من الشرق والغرب ، أشرف عليه د . طه حسين ، كتاب الخلال -
العدد ٤٨ - مارس ١٩٥٥ - فصل بقلم طه حسين (حب للمعرفة وصبر على المكروه) ص ٣٩ - ٥١ .

من المراجع

- إبراهيم عبد الرحمن (دكتور) وزملاؤه : طه حسين وقضية الشعر ، الهيئة : ١٩٧٥ .
- « » « » « » : قضايا الشعر في النقد العربي ، الشباب ، ١٩٧٧
- أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث . القاهرة : ١٩٤٨ .
- أنور الخندي : طه حسين في مرآة الإسلام . ١٩٧٦ .
- أنيس، الخوري المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي . بيروت . ١٩٥٢ .
- جابر عصفور (دكتور) : المرايا المتجاورة : الهيئة : ١٩٨٣ .
- جمال الدين الألوسي : طه حسين بين أنصاره وخصومه . بغداد . ١٩٧٣ .
- جسيل صليبا : الاتجاهات الفكرية . في بلاد الشام : القاهرة : ١٩٥٨ .
- حسين فوزي الحجار (دكتور) : أحمد لطفي السيد - أعلام العرب (٣٩) : دراسات حول طه حسين ، جامعة الموصل ، ١٩٧٦ .
- حسين نصار (دكتور) : مع طه حسين ١ ، ٢ (اقرأ ١١٢ : ٣٠١) : دار المعارف .
- سامي الكيالي : ذكرى طه حسين ، دار المعارف ١٩٧٤ ، ومجلة الثقافة ، ديسمبر ١٩٧٣ ص ٢٠ ، وما بعدها .
- سهر القلأوي (دكتورة) : الأدب العربي المعاصر في مصر ، دار المعارف : ١٩٦١ .
- شوقي ضيف (دكتور) : البحث الأدبي طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره ، دار المعارف ١٩٧٢ .
- مجلة الهلال - فبراير ١٩٦٦ .

- صالح عبد الصبور : ماذا يبقى منهم للتاريخ ، دار الثقافة العربية ،
١٩٦١ .
- طه الحاجري (دكتور) : الثقافة — أكتوبر ١٩٧٥ ص ١٤ .
- طه حسين (دكتور) : الأيام — ١ — ٣ — المجموعة الكاملة ، بيروت :
ط ٢ ، ١٩٧٤ .
- حديث الأربعاء ، دار المعارف ط ٩ ، ج ٣ ،
وج ١ د . ت .
- فصول في الأدب والنقد . دار المعارف ١٩٤٥
فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ترجمة محمد
عبد الله عنان — المجموعة الكاملة مج ٨
بيروت ١٩٨٥ .
- في الأدب الجاهلي ط ٣ — ١٩٣٣ ، (صدرت
الطبعة الثانية في ١١ مايو ١٩٢٧) .
- في الشعراء الجاهلي ط ١ — ١٩٢٦ ، ٢٢ من
مارس ١٩٢٦) .
- عباس محمود العقاد : محمد عبده : أعلام العرب (١) ١٩٦٢ .
- عبد العزيز البشري : في المرأة — كتب للجميع د . ت .
- عبد اللطيف حمزة (دكتور) : أدب المقالة الصحفية ، القاهرة ،
(٥٠ — ١٩٥٤ ج ١ — ٦ :)
- الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان) : آراء أهل المدينة الفاضلة ، ت : ألبير نصرى
نادر ، الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٩ .
- كارلو ألدونصو نللينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر
بنى أمية ، بمقدمة لطف حسين ، دار المعارف
١٩٥٤ :

- مجموعة : إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ، دار المعارف ١٩٦٢ .
- طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، دار الهلال : هذا مذهبي : كتاب الهلال العدد ٤٨ .
- محمد حسين (دكتور) : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، بيروت ط ٣ - ١٩٧٢ .
- محمد رشيد رضا : تاريخ الشيخ محمد عبده ، القاهرة ٢٥ - ١٩٣١
- محمد ز غاوي سلام (دكتور) : تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري ، دار المعارف ١٩٦٤ .
- نبيلة إبراهيم (دكتورة) : مجلة الثقافة : ديسمبر ١٩٧٣ ص ٨٧ وما بعدها
- يحيى حتى : فجر القصبة ، ط الهيئة ١٩٧٥ .

من النوريات

- الثقافة : ديسمبر ١٩٧٣ (عدد خاص - طه حسين المفكر الأديب) أكتوبر ١٩٧٥ .
- الجريدة : إعداد متنوعة .
- الرسالة : ١٥ مايو ١٩٣٣ .
- الرسالة الجديدة : مايو ١٩٧١ وأعداد أخرى مثل : مايو ويونيو ١٩٥٦ .
- الطليعة : يناير ١٩٦٧ .
- الهلال : فبراير ١٩٦٦ .
- إبريل ١٩٧٥ ذكرى طه حسين حتى ص ٥٧ .
- مايو ١٩٧٧ ص ١٥٢ .

المنهج الوظيفي لظاهرة التثنية

للدكتور عبد الرحمن محمد إسماعيل

تمهيد

مما لا شك فيه أن التثنية ظاهرة سامية حفلت بها الساميات كافة بيد أن أدائها في العربية يغاير -تماما- طرق أدائها في غيرها من الساميات ، ومن ذلك أن العربية أوسع منها طرقا ، وأشمل منهجا ، من هنا جاءت التثنية فيها واضحة المعالم ، محددة الأهداف ، إذ أقسامها بيّنة ، ودلالاتها بادية وقضاياها ظاهرة مجللة .

وربما وجد القارئ في هذه الدراسة ما يصحح بطلان بعض مزاعم القوم من أنه لا بد لكل مفرد مثني أو العكس ، ضرورة أن يكون لكل أصل فرع أو العكس ، بل ربما يتوهم بعض الدارسين أن التثنية لا تتجاوز في الأداء العربي طريقا أو إعرابا واحدا ، أو دلالة واحدة وهذا الزعم ، أو ذاك التوهم قد قصدت هذه الدراسة إلى دفعه ، وتنصيل القول فيه : حيث المثني يوظف كثيرا في حقيقته تارة ، وقد يوظف في غيرها أخرى وذلك حين يتقارض مع أصله (أعني المفرد) أو مع فرعه (أعني الجمع) وهذا ضرب من التوسع أو المجاز في الاستعمال

الذي لا يكاد يقف عليه إلا الخاصة من علماء هذه اللغة ، ولا يحيط به علما إلا من دقق النظر ورجع البصر كرتين في عوالم أساليب العرب

وفي لآمل صيرورة هذه الدراسة مضمارا فسيحا لنماء لغة الدارسين من طلاب العربية : ومفتاحا جديدا لطرق أبواب النحو العربي على نحو توظيفي يحل كثيرا من مشكلات مسالك التعبير في العربية ، ويوجه بمانه وجهة صحيحة سليمة ، حيث كتب النحو - وحدها - قاصرة عن إبراز كل جوانب هذه الظاهرة ولن تكون بارزة جد البروز إلا أن تتعاون معها كتب اللغة والأدب والأعريب والتفسير ، كما سلكت في منهجي هذا .

إن هذه الدراسة لم تخل من إجتهد مبني على أصول هذه اللغة ووجوهها الفصيحة ، وحسبي فيه أن الاجتهاد باب مفتوح في وجه أهل النظر ما دامت انطلاقاته مستوحاة من نصوص الفصحى .

لذلك جاءت هذه الدراسة بفضل من الله وتوفيق شاملة لنواحي التثنية في منهجها الوظيفي ، وقد استقصيت فيه أساليب

المثنى حقيقية كانت أو مجازية ، وملا أن
يعفيد بها أبناء العربية وطلابها من غير
الناطقين بها ، وذلك في تقويم ألسنتهم
وتنويع بديانهم ، والله من وراء القصد ،
وهو المستعان .

تعريف المثنى :

المثنى لغة : أصله المعطوف ، من ثنيت
العود : إذا عطفته (١) وفي الاصطلاح :
لفظ دال على اثنين بزيادة في آخره ،
صالح للتجريد وعطف مثله عليه (٢) .

ومن ذلك الحدة يبدو لنا القصد من
التثنية وهو الاقتصاد ، أو الإيجاز حيث
قامت الزيادة ، وهي حرفان (الألف
والنون رفعا) والياء والنون نصبا وجرا
مقام العاطف والمعطوف ، نحو جاء
الشاهدان ورأيت الشاهدين ، ومررت
بالشاهدين .

يقول عبد القاهر الجرجاني : اعلم أن
التثنية والجمع يقصد بهما الاختصار والإيجاز
فكان الأصل أن يقال : جاءني زيد
وزيد إلا أنهم رأوا ذلك يطول ، لذا كان
التثنية يتبعها الجمع ، فكان يجب أن

يقال : زيد وزيد وزيد إلى ما يطول جدا
فقالوا : الزيدان ، والزيدون ، فجعلوا
الألف (يعنى في المثنى) والواو (يعنى
في جمع المذكر) عوضا عن ضم الاسم
إلى الاسم فحصل المعنى مع اختصار
اللفظ .

وقريب من هذا ما حكى من أن عمر
ابن الخطاب رضوان الله عليه ، قيل له
بعد وفاة أبي بكر الصديق - رضي الله
عنه - يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال :
هذا أمر يطول ، أنتم المؤمنون ، ونحن
أمرؤكم ، فخطب بأمر المؤمنين ،
وإنما اختار ذلك كراهية التكرير ؛ إذ
كان يجب أن يقال بعده : يا خليفة خليفة
خليفة رسول الله ، إلى ما لا نهاية له ،
كما كان يجب أن يقال : زيد وزيد ،
فالمتجنب هو التكرير في الموضعين ، وقد
يجيء ذلك في الشعر كقوله :

كأن بين فكئها والنكث

فارة مسك ذبحت في سك

كان الظاهر أن يقول : كأن بين فكئها
إلا أنه عدل إلى التكرير لأجل الشعر ،
وحسن ذلك أن أحدهما مضاف ، والثاني

(١) للتصريح ١/ ٦٦ .

(٢) ابن عقيل بحاشية الخضرى ١/ ٣٦ :

فيه الألف واللام ، لو قال : كأن بين فكها وفكها كان أقبح (١) :

وقال ابن الشجري : التثنية والجمع المستعملان بالحرف أصلهما التثنية والجمع بالعطف : فقولك : جاء الرجلان ، ومررت بالزبدین ، أصله : جاء الرجل والرجل ومررت بزبد وزبد ، فحذفوا العاطف والمعطوف : وأقاموا حرف التثنية مقامهما اختصاراً : وصح ذلك لاتفاق الذاتين في التسمية ، بلفظ واحد ، فإن اختلف لفظ الاسمين رجعوا إلى التكرير بالعطف كقولك : جاء الرجل والفرس ، ومررت بزبد وبكر ، إذ كان ما فعلوه من الحذف في المتفقين يستحيل في المختلفين (٢) .

وينهم من كلام ابن الشجري أن العطف بالواو نوع آخر من التثنية والجمع في اللغة إلا أنه يتعين فيما اختلف لفظه من الأسماء المعطوفة .

اقسام المثني :

تنقسم التثنية إلى ثلاثة أضرب :

(١) تثنية لفظية معنوية .

(ب) وتثنية معنوية وردت بلفظ الجمع .

(ج) وتثنية لفظية كان حقتها التكرير بالعطف .

فالضرب الأول عليه معظم الكلام كقولك في رجل : رجلان ، وفي زيد زيدان .

والضرب الثاني : تثنية آحاد ما في الجسد كالأنف والوجه والبطن والظهر ، تقول : ضربت رؤوس الرجلين ، وشققت بطون الحملين ، ورأيت ظهوركما ، وحى الله وجوهكما ، فتجمع وأنت تريد رأسين وبطنين ووجهين ، ومن ذلك في التنزيل قوله جل ثناؤه « فقد صغت قلوبكما » (٣) وجروا على هذا السنن في المنفصل عن الجسد ، فتألوا : مد الله في أعماركما ، ونسأ الله في آجالكما ، ومثله في المنفصل فيما حكاه سيدييه : ضع رحاهما .

ومن العرب من يعطى هذا كله حقه من التثنية فيقولون : ضربت رأسيهما ، وشققت بطنيهما ومما ورد بهذه اللغة قول الفرزدق :

بما في فؤادينا من الشوق والظوى

(١) انظر شرح المقتصد للجرجاني ١/ ١٨٣ - ١٨٤ ، وشرح المفصل ٥/ ٢ ، والخزانة ٣/ ٣٤٢ .

(٢) الأماشي الشجرية ١/ ١٠ .

(٣) التحريم / ٤

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

فتمخالسا نفسيهما بنوافسان

كنوا فذ العبط التي لا ترفع

والجمع في هذا ونحوه هو الوجه كما جاء في التنزيل « قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا » (١).

هذا وقد جمع حميان بن قحافة بين اللغتين في قوله :

ومهمهين قلفين مرتين

ظهراهما مثل ظهور الترسين

فقال : ظهراهما بالثنائية ثم أعقبه بالجمع في (ظهور الترسين) وربما استغنوا في هذا النحو بواحد ، لأن إضافة العضو إلى اثنين تنبيء عن المراد كقولك : ضربت رأس الرجلين ، وشققت بطن الحملين ، ولا يكادون يستعملون ذلك إلا في الشعر وأنشدوا عليه قول الشاعر :

كأنه وجه تركيين قد غضبا

مستهدفين لطن غير تدبيب

قال سيديويه : وسأله يعني الخليل عن قولهم : ما أحسن وجوههما فجمعوا وهم يريدون اثنين ، فقال : لأن الاثنين جمع وهذا بمنزلة قول الاثنين : نحن فعلنا ،

ولكنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما يكون مفردا ، وبين ما يكون شيئا من شيء ، والقول في تفسير هذه الحكاية إنهم قالوا ما أحسن وجوه الرجلين : فاستعملوا الجمع موضع الاثنين ، كما قال الاثنان : نحن فعلنا ، ونحن هو ضمير موضوع للجماعة ، وإنما استحسنوا ذلك لما بين التثنية والجمع من التقارب من حيث كانت التثنية عددا تركب من ضم واحد إلى واحد ، وأول الجمع وهو الثلاثة تركب من ضم واحد إلى اثنين ، فلذلك قال الخليل : إن الاثنين جميع .

فأما ما في الجسد منه اثنان ، فتثنيته إذا ثنيت المضاف إليه واجبة ، تقول : فقأت عينيهما ، وقطعت أذنيهما ، لأنك لو قلت أعينهما وأذانهما لالتبس بأنك أوقعت الفعل بالأربع .

فإن قيل : فقد جاء في القرآن « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » (٢) فجمع اليد وفي الجسد يدان ، فهذا يوجب بظاهر اللفظ إيقاع القطع بالأربع .

والجواب : أن المراد فاقطعوا أيماهما وكذلك هي في مصحف عبد الله فلما علم بالدليل الشرعي أن القطع محله اليمين ،

(١) الأعراف / ٢٣ .

(٢) المائدة / ٣٨ .

وليس في الجسد إلا - يمين واحدة جرت
بجري آحاد الجسد فجدهت كما جمع الوجه
والظهر والقلب .

والضرب الثالث من ضروب التثنية :
تثنية التغليب . وذلك أنهم أجروا مختلفين
بجري المتفقين بتغليب أحدهما على الآخر
لخفته أو مشهورته . جاء ذلك في أسماء
مسموعة صالحة كتقوهم لأب والأم
الأبوان ، وللشمس والقمر : القمران :
ولأبي بكر وعمر العمران : غلبوا القمر
على الشمس لخفة التذكير . وغلبوا عمر
على أبي بكر ؛ لأن أيام عمر امتدت : وروى
أنهم قالوا لعثمان - رضوان الله عليه - نسألك
سيرة العمرين : وقال الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم

لنا قمرها والنجوم الطوالع

أراد : شمسها وقمرها ، وعنى بالشمس
إبراهيم عليه السلام ، وبالقمر محمد -
صلى الله عليه وسلم - وبالنجوم عشيرة
النبي عليه السلام ، وكذلك أراد المتنبي
بالقمرين : الشمس والقمر في قوله :

واستقبلت قمر السماء بوجهها
فأرتني القمرين في وقت معا

وقيل في قوله : « ياليت بيدي وبيدك
بعد المشرقين فبئس القرين »^(١) إن المراد
المشرق والمغرب ، فغلب المشرق لأنه
أشهر الجهتين . وقالوا لمصعب بن عمير
وابنه : المصعبان . وقالوا لعبد الله بن الزبير
وأخيه مصعب : الخبيبان ، وكان عبد الله
يكني أبا خبيب : قال أبو نخيلة يمدح
الخجاج ويعرض بعبد الله بن الزبير :

قلبي من نصر الخبيبين قدي

ليس الإمام بالشحيح الملاحد^(٢)

شروط المثني القياسي الذي طريقه الزيادة :

يرى جمهور النحاة أن المثني القياسي
الذي طريقه زيادة الألف والنون رفعا ،
والياء والنون نصبا وجرا أنه لا بد من أن
تتوفر فيه شروط ثمانية جمعها بعضهم في قوله :

شرط المثني أن يكون معربا

ومفردا منكرًا ماركبًا

موافقا في اللفظ والمعنى له

مماثل لم يفن عنه غيره^(٣)

(١) الزخرف / ٣٨ .

(٢) انظر الأمل الشجرية ١ / ١١ - ١٤ ، وإعراب القرآن للزجاج ٣ / ٧٨٧ - ٧٩٠ وكتاب
ليس في كلام العرب لابن خالويه / ٣٣٩ وما بعدها ، وشرح جمل الزجاجة لابن عصفور ١ / ١٣٧ ،
الغزاة ٣ / ٣٦٩ وما بعدها . وشرح المفصل لابن يعيش ٤ / ١٥٥ وما بعدها .

(٣) حاشية الحضري ١ / ٤٠ ، وانظر التصريح بحاشية يس ١ / ٦٧ .

ومن هذه الشروط يمكن بيان ما يثنى
وما لا يثنى في العربية :

أولا : ما يثنى :

(١) المفرد المذكر اسما نحو : الزيدان
في (زيد) ، أو صفة نحو : المسلمان
في (مسلم) :

والمفرد المؤنث اسما نحو : الهندان في
(هند) ، أو صفة نحو : المسلمتان في
مسلمة .

أما الجمع المكسر الذي ليس على
صيغة الجمع الأقصى فالقياس يأبى تثنيته
وذلك أن الغرض من الجمع الدلالة على
الكثرة ، والتثنية تدل على القلة ، فهما
معنيان متنافعان ولا يجوز اجتماعهما في
كلمة واحدة ، وقد جاء شيء من ذلك
عنهم على تأويل الإفراد ، قالوا : إبلان
وغنمان وجمالان ، ذهبوا بذلك إلى التقطيع
الواحد ، وضموا إليه مثله فتنوه ، أنشد
أبو زيد :

هما إبلان فيهما ما علمت

فمن أيها ما شتم فتنبكبا

وقالوا : لقاحان سوداوان ، حكاة

سيبويه ، وإنما لقاح جمع لقحة ، وقالوا :

جمالان على تأويل قطيعين قال عمرو

ابن العلاء الكلبي :

لأصبح الحى أوبادا ولم يجدوا
عند التفرق في الهيجا جمالين

فالتثنية تدل على افتراقها قطيعين أو
صنفين صنفا لترحلهم يحملون عليها أثقالهم
وصنفا لحربهم يركبونه إذ جنبوا خيلهم ،
ولو قال : لقاح أو جمال لفهم منه الكثرة
إلا أنه لا يدل على أنها مفترقة قطيعين ،
إلا أنه في (إبلان) أسهل لأنه جنس
فهو مفرد . وليس بتكسير كجمل وجمال ،
ومن ذلك قول أبي النجم :

تبقلت في أول التبة - ل

بين رماحي مالك ونهشل

فقد أفاد بتثنية (رماح) افتراق رماح
بنى مالك من رماح بنى نهشل ، وأما
قوله عليه السلام : « مثل المنافق كالشاة
العائرة بين الغنمين » فإنه شبه المنافق ،
وهو الذي يظهر أنه من قوم وليس منهم
بالشاة العائرة ، وهي المترددة بين الغنمين
أي بين القطيعين لا تعلم من أي القطيعين
هي ، يقال سهم عائر ، وحجر عائر إذا
لم يعلم من أين هو ، ولا من رماه (١) .

هذا - وقد ورد في فصحح الكلام - تثنية
اسم الجمع مثل : ركب وركبان ، قال جل
تناؤه : « قد كان لكم آية في فتنين » (٢) .

(١) انظر شرح المنصل ٤ / ١٥٣ وما بعدها ، والخزانة ٣ / ٣٨١ وما بعدها .

(٢) آل عمران / ١٣ .

وقال : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان
يوم التقى الجمعان » (١) .

(ب) المركب الإضافي يثنى صدره دون
عجزه استغناءً بثنائية المضاف عن ثنائية
المضاف إليه ، نحو هذان غلاما محمد ،
وجاريتاه ، كما جاء جمعه في قوله
« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض
هو نا » (٢) فقد جمع المضاف وهو عبد ،
دون المضاف إليه وهو الرحمن (٣) .

ثانيا : ما لا يثنى :

قد يزعم البعض أنه لا بد لكل مفرد
من مثنى ، أو بعبارة أخرى أنه لا بد
لكل مثنى من مفرد ، لكن بامعان النظر
في أساليب الفصحى يبدو عدم صحة
هذا الزعم حيث يوجد في العربية كلمات
لم يرد عن الفصحاء تثنيتهما أو جمعها ،
وذلك لأسرار وأسباب نجملها في الآتي :

الأول - إذا أفاد اللفظ العموم بأن كان
يصلح للمثنى أو الجمع امتنعت العرب
من تثنيته أو جمعه ، حيث لم تزد التثنية

أو الجمعية شيئا على مفهومه الوضعي ،
وهذا النوع يشمل الألفاظ أو الأجناس
التالية :

١ - لفظي كل وبعض ، فلا يقال :
كلان وبعضان لعدم الفائدة من تثنيتهما
لإفادتهما - وضعما - العموم ، حيث لا يعطيان
بعد التثنية إلا ما يعطيان قبلها من الكلية
والبعضية .

٢ - ما لزم النفي من الألفاظ المتوغلة
في التنكير ، لإفادة العموم ، إذ كل
نكرة بعد النفي تصدق على كثيرين فلا
فائدة من تثنيها أو جمعها ، وينحصر
هذا النوع في إحدى وعشرين كلمة تذكر
منها الآتي :

(عريب) : أي ما بها معرب يبين
كلامه ويعربه فلا يقال فيه : عريبان بل
يلزم الإفراد .

(ديار) : قال تعالى : « رب لا تذر
على الأرض من الكافرين ديارا » (٤) وقد

(١) الأنفال / ٤١ .

(٢) الفرقان / ٦٣ .

(٣) انظر التصريح بحاشية يس ١ / ٦٦ ، وابن عقيل بحاشية الخصري ١ / ٤٠ ، وكتاب ليس في
كلام العرب / ٣٤٠ ، والمقرب لابن عصفور ٢ / ٤٢ / ٤٣ ، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور
١ / ١٣٩ .

(٤) نوح / ٢٦ .

استعمله ذو الرمة في الواجب في قوله :

إلى كل ديار تعرفن شخصه

من التفر حتى تقشعر ذوائبه

فلا يقال فيه دياران .

(دأرى) : منسوب إلى الدار ، و (دُورى) منسوب إلى الدور ، يقال ما بها دُورى أى أحد ، و (طُورى) منسوب إلى جبل الطور ، يقال ما بها طورى : أى ما بها إنسى ولا وحشى ، و (طاوى) يقال : ما بها طاوى ، وأرم وأريم وكتيع وكرآب ودُعْمَرى ، وشُعْمَرى يقال ما بها شُعْمَرى ما بها قليل ، ودُئى ، وتامور : يقال : ما بها تامور : أى أحد ، .. (١) .

٣ - المصادر : وذلك لصلاحيته للمفرد وللمثنى وللجمع يقال : رجل عدل ورجلان عدل ورجال عدل : ومنه قوله : « وهل أذاك نبأ انلصم إذ تسوروا الخراب » (٢) فتال خصم ولم يقل الخصوم ، لإفادة (خصم) معنى الجمع وصلاحيته له لذلك أعاد الضمير عليه جمعا في قوله « تسوروا » حملا على المعنى .

(١) انظر الخزانة ٣ / ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) ص / ٢١ .

(٣) البقرة / ٢٠٨ .

(٤) التوبة / ٢٦ .

ومنه لفظ (كافة) لأنه مصدر جاء على فاعلة مثل عامة : قال عز وجل « ادخلوا في السلم كافة » (٣) وقال سبحانه : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٤) فهى مصدر منكر مؤنث مفرد . فلا تدخله الألف واللام . ولا تضاف إلى معرفة : وأما قول الفقهاء : هذا مذهب الكافة ، وهو قول الكافة : ويقولون : هذا مذهب كافة العلماء : فيضيفون (كافة) ومرادهم بذلك الجميع : فهذا غلط .

قال الفراء : (كافة) معناه : جميعا و (كافة) لا تكون مذكورة ولا مجموعة ولا يقال : كافين ولا كافات : لأنها وإن كانت على لفظ فاعلة ، فإنها في تأويل المصدر مثل : العاقية : (العقاب) والعافية : (العفو) والباقية : (البقاء) الخ .

ولذلك لم تدخل فيها انعرب الألف واللام : لأنها في معنى قولك : قاموا معا ، وقاموا جميعا .

وقال الزجاج : (كافة) منصوب على الحال ، وهو مصدر على فاعلة . . . ولا يجوز أن يثنى ولا يجمع ، كما إذا قلت قاتلوهم عامة : لم يثن ولم يجمع ، وكذلك خاصة (١) .

وكذلك لفظ (نهيك) في قولهم : هذا رجل نهيك من رجل : كما تقول هذا رجل حسبك من رجل ، لم يثن ولم يجمع لأنه مصدر (٢) .

من هنا يتجلى لنا أن المصدر لا يجوز تثنيته ولا جمعه إذا لم يرد به التنوين وذلك لإفادته الكثرة والجنسية ، وما شأنه كذلك لا فائدة من تثنيته أو جمعه لأن عطاءه بعدهما كعطاءه قبلهما ، فهو مما يصلح للواحد وغيره والمذكر وغيره ، فالعرب تقول : ماء غور ، وبئر غور ، وماءان غور ، لا يثنون ولا يجمعون ، لا يقولون : ماءان غوران ، ولا مياه أغوار ، فغور بمنزلة الزور يقال : هؤلاء زور فلان ، وهؤلاء ضيف فلان : والمعنى : هؤلاء زواره وأضيافه ، وذلك

لأنه مصدر أجرى مجرى : قوم عدل ، وقوم رضا . . . إلخ (٣) .

وبعد : فالمصدر الذي يمتنع تثنيته أو جمعه مشروط بأمرين :

الأول : أن لا يرد به التنوين ، فإن أريد به ذلك جاز تثنيته وجمعه نحو : هذان تنوينان ، وهذه تنوينات . . . إلخ فيراد بالثنى نوعان من التنوين ، ويراد بالجمع أنواعه المختلفة .

الثاني : أن يكون مؤكداً لعامله ، فإن كان مبيناً لنوعه أو عدده جاز تثنيته أو جمعه قال ابن مالك :

وما لتوكيد فوحده أبدا

وثن واجمع غيره وأفرادا
ونعتوا بمصدر كثيرا

فالتزموا الأفراد والتذكيرا

٤- ما تضمن معنى الفاعل أو المصدر نحو : (أفعل من) ؛ لأن معنى قولك : زيد أفضل من عمرو : زيد يزيد فضله على عمرو (٤) .

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١١٧/٤

(٢) المرجع السابق ١٧٤/٤ .

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ١٧٢/٣ ، أسرار ومفاهيم دقيقة حول ظاهرة التنوين للباحث ٢٢-٢٣ .

(٤) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١٣٨/١ .

فقد أفرد الضمير استغناء عن جمعه بجمع التمييز بعده .

ولزوم الضمير مع (رب) الأفراد والتذكير هو مذهب البصريين ، وحكى الكوفيون جواز مطابقتها لفظاً نحو : ربها امرأة ، وربهما رجلين وربهم رجالاً ، وربهن نساء^(١) .

* فاعل (أفعل) في التعجب نحو : ما أحسن زيدا -- والزيدان والزيدان . وما أجمل هنداً -- والهنديين والهنديات ، ففاعل (أحسن) في الأمثلة مفرد مدكر مستتر وجوبا وإنما لزم الأفراد لأنه يعود على المبتدأ وهو مفرد ، وتقديره : شيء حسن زيدا ، أو الذي حسن زيدا شيء عظيم ، ولم يعد على المتعجب منه .

* اسم ليس ولا يكون في الاستثناء نحو : قاموا وليس زيدا والزيدان والزيدان . ولا يكون زيدا والزيدان والزيدان وكذلك فاعل (عدا وخلا وحاشا) في الباب نفسه وإنما لم يجز تثنية اسم ليس ولا يكون هنا لإجرائه مجرى بعض أو الجنس وكلاهما لا يثنى ولا يجمع .

الما ترى (أفعل من) في الاستعمال لا يطابق موصوفه وهو المفضل : تقول : زيد أفضل من عمرو ، والزيدان أفضل من عمرو ، والزيدون أفضل من عمرو ، وهند أفضل من أختها ، والهنديان أفضل من أختيهما ، والهنديات أفضل من أختين فانظر كيف لزم (أفعل من) في الأمثلة الأفراد والتذكير والتثنية ؟ ؛ لكونه متضمنا معنى الفعل والمصدر ، وكلاهما لا يثنى ولا يجمع مع المثنى والجمع . قال ابن مالك :

وإن لمنكور يضيف أو جردا
أنزم تذكيرا وأن يوحدا
— كذلك يانزم ضمير الغائب الأفراد
والتذكير في المواطن الآتية :

* إذا كان مجرور بـ (رب) نحو قولهم
ربه رجلا ورجلين ورجالا وربه امرأة
وامرأتين ونساء : بتوحيد الضمير فيها ،
وإنما لزم الأفراد حيث عوضوا عن تثنيته
وجمعه بتثنية وجمع التمييز وهم لا يجمعون
بين العوض والمعووض عنه ، ومنه قول
الشاعر :

ربه فتية دعوت إلى ما
يورث الحمد دائماً فأجابوا

(١) انظر التصريح ٤ / ٢ .

(٢) انظر التصريح بحاشية يس ٨٧ / ٢ .

* فاعل (نعم وبئس) في اللم إذا كان ضميراً مستتراً ففسر باسم نكرة منصوب على التمييز نحو : نعم - رجلاً - زيد ، ونعم - رجلين - الزيدان ، ونعم - رجلاً - الزيدون وذلك لأن المراد به الجنس فهو ينيد العموم^(١) النوع الثاني : لا يثنى ولا يجمع ما استغنى عن تثنيته بتثنية غيره وينحصر في الآتي :

* ألفاظ العدد - ما عدا مائة وألفاً - لا يثنى ولا يجمع للاستغناء عن تثنيها أو جمعها بضعفها أو أضعافها : فنحو ثلاثة يستغنى فيها عن ثلاثين بلفظ (ستة) وعن جمعها بنحو : تسعة : واثني عشرة . . . إلخ أما (مائة وألف) فقد تثنيتهما العرب تقول : هؤلاء مثنان أو ألفان ، وجمعتهما نحو : هؤلاء : مئات ومئون وهؤلاء آلاف وألوف قال تعالى : « . . . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله »^(٢) .

* ولفظ (سواء) لم تثنه العرب حيث استغنوا عن تثنيته بتثنية (سبي) فقالوا : سيان زيد وعمرو ، ولم يقولوا : هما سواءان وعن جمعه بجمع (سبي) فقالوا أسواء

مثل نبض وأنقاض ؛ يقال : قوم أسواء ومستوون ، وأما قول الشاعر :

فيارب إن لم تجم - ل الحب بيننا
سواءين فاجعلني على حبها جليدا
فشاذ

هذا - ولم ترد (سواء) في كلام الفصحاء ولا في القرآن الكريم إلا مفردة مع المثنى والجمع نحو قوله سبحانه : « سواء العاكف فيه والباد »^(٣) وقول الشاعر :

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول
فهى في الآية والبيت لم تتجاوز الأفراد مع المثنى ، ومثلها مفردة مع الجمع قوله سبحانه : « ودُّوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء . . . »^(٤) .

* ولفظا (أجمع وجمعاء) لم تثنيهما العرب استغناء عنه بكلا وكلتا .

قال ابن مالك :

واغن بكلتا في مثنى وكلا
عن وزن فعلاء ووزن أفعلا

(١) المرجع السابق ٢ / ٩٥ .

(٢) الأنفال / ٦٦ .

(٣) الحج / ٢٥ .

(٤) النساء / ٨٩ .

النوع الثالث : ما كان متوغلا في البناء ، فلا تثني أسماء الأفعال والأصوات لإجرائها مجرى الأفعال أو المصادر ، يقال : صه يا زيد وصه يا زيدان وصه يا زيدون ، وصه يا هند ويا هندان ، ويا هندات . . إلخ . وذلك لأنه متضمن معنى سكوتا يا زيد ، ويا زيدان ويا زيدون . وسكوتا يا هند ، ويا هندان ، ويا هندات .

ولاتثني أسماء الشرط والاستفهام لإفادتها العموم وتضمنها معنى الحرف والحرف لا يثنى ولا يجمع ، يقال : من قام ، وقاما : وقامتا وقاموا ، وقمن ، بلزوم (من) صورة واحدة لم يلحقها تغيير ما .

أما أسماء الإشارة والموصولة ، والضمائر ، فتثنيها وجمعها ليست قياسية وإنما هذان وهاتان : وهؤلاء من أسماء الإشارة واللذان واللتان والذين واللاتي واللاتي من الأسماء الموصولة ، ونحن وأنتم وأنتم وأنتم ، وهما وهم وهن من الضمائر فصيف وضعت للتثنية وللجمع ، وهكذا صنعت^(١) .

النوع الرابع : الأسماء المحكية نحو : تأبط شرا ، وبرق نحره ، وشاب قرناها فهذا النوع من المركب الإسنادي لا تجوز

تثنيته ولا جمعه بحال من الأحوال ، لأنه منقول من الجملة ، والجمل لا يثنى ولا يجمع كذلك ما نقل منها إلى الاسمية لا يثنى ولا يجمع ، على أنه يمكن الاستغناء عن تثنيتهما وجمعتهما بتثنية وجمع (ذو) مضافين إلى المركب ، فيقال : جاء ذوا تأبط شرا ، وذو تأبط شرا ورأيت ذوى تأبط شرا ، وذوى تأبط شرا . . إلخ . وعدم تثنية ذلك محل اتفاق من العلماء .

أما المركب المزجي فتثنيته وجمعه يختلف فيهما والأصح أن لا يثنى ولا يجمع على أن أهل اللغة يرون جواز تثنيته وجمعه ، تقول في التثنية : هذان ساما أبرص^(٢) .

وفي الجمع هؤلاء سوام أبرص ، وإن شئت قلت : هؤلاء السوام ، ولا تذكر أبرص . وإن شئت قلت هؤلاء البرصة والأبارص .

ولأنما أجاز أهل اللغة تثنية المركب المزجي وجمعه حملا على أحد وجهيه في الإعراب وهو إعراب الأول وإضافته إلى الثاني ، على أن يكون مفتوحا ؛ لأنه ممنوع من الصرف ، فيكون المركب المزجي في ذلك قد أجزوه

(١) انظر التصريح بحاشية يس ٢٦٧/١ حاشية بعبادة على الشذور ٦٩/١ - ٧٠ ، المغرب لابن عصفور ٤٢/٢ - ٤٣ ، الجمع ٤٢/١ - ٤٣ .
(٢) سام أبرص : كبار الوزع .

مجرى المركب الإضافي حيث الاتفاق على تثنيته وجمعه وارد عند اللغويين والنحويين^(١) الخامس : العلم الباقي على علميته لا يثنى ولا يجمع بل يتعين عند إرادة تثنيته أو جمعه تنكيره ، ثم يثنى بزيادة ألف ونون رفعاً وياء ونون نصباً وجراً ، ثم يعوض عن علميته بأل في التثنية والجمع فيقال : الزيدان والزيدان رفعاً ونصباً أو جراً والزيدون والزيدون رفعاً ونصباً أو جراً ، وأل في الأمثلة عوض عن سلب العلمية من المفرد .

السادس : كنايةات الأعلام نحو فلان وفلانة ، فلا يقال فيهما فلانان ولا فلانتان لأنها لا تقبل التنكير حيث وضعت موضع أسماء الإشارة وأسماء الإشارة لا تقبل التنكير وشرط المثني أن يكون منكرًا .

السابع : المثني لا يثنى ، والجمع لا يثنى ولا يجمع ، فلا يقال : محمدانان ، ولا محمدونان ، لاجتماع إعرابين فيهما ، لا هندانان ، لأن لا فائدة من تثنية المثني ولا الجمع حيث لا يزيد المعنى بها عما كان عليه قبلها .

السابع : الاسمان المختلفان لفظاً ومعنى نحو : أب وأم ، فهذا ما يتعين فيه العطف بالواو نحو : هذان أب وأم ، على أن العرب قد

توسعوا في مثلها فغلبوا أحد اللفظين على الآخر مراعين في ذلك الأشرف والأخف والمذكر . إلخ

كما سنعرض له بعد : ثم ثنوهما فتمالوا : الأبوان في الأب والأم ، ومنه في القرآن الكريم « وما يستوى البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » (فاطر ١٢) .

الثامن : الاسمان المتحدان لفظاً ، المختلفان معنى كالعين للباصرة والحاربية ومنه الحقيقة والحجاز : أما قولهم : القلم أحد اللسانين فشاذا .

هذا — وقد تردد ابن الحاجب في تثنية المشترك وجمعه باعتبار معانيه المختلفة كقولك : القمران للطاهر والحيف ، والعيون لعين الماء وقرص الشمس وعين الذهب ، فقد منعه في شرح الكافية ، لأنه لم يوجد مثله في كلامهم مع الاستقراء ، وجوزّه على الشذوذ في شرح المفصل .

وذهب الجزولي والأندلسي وابن مالك إلى جواز مثله ، قال الأندلسي : يقال : العينان في عين الشمس ، وعين الميزان ، فهم يعتبرون في التثنية والجمع الاتفاق في اللفظ دون المعنى ، وهذا قريب من مذهب الشافعي — رحمه الله — وهو أنه إذا وقعت الأسماء المشتركة بلفظ العموم نحو قولك

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣ / ١٥٥ ، وبس على انفاكهي ١ / ٨٢ .

(الإقراء) حكمها هكذا : أو في موضع
العموم كالنكرة في غير الموجب نحو :
ما لنيت عينا ، فإنها تعم في جميع مدلولاتها
المختلفة كالألفاظ العموم سواء^(١) .

التاسع : ما لا ثاني له في الوجود نحو : الشمس
والقمر ، فلا يقال : شمسان ولا قمران ،
إلا من باب التغليب ، وهو ضرب من المجاز
أو التوسع في لسان العرب .

العاشر : لفظ (بشر) ومعناه الخلق ، يقع
على الأنثى والذكر والواحد والاثني والجمع
فلا يثنى ولا يجمع ، يقال : هو بشر .
وهي بشر ، وهما بشر ، وهم بشر كذا في
الصحاح .

وفي المحكم : البشر محركة ذكر ا كان أو
أنثى واحدا أو جمعا ، وقد يثنى وفي
التنزيل : « أنؤمن لبشرين مثلنا »^(٢) قال
بعضهم ، ولعل العرب حين ثنوه قصادوا به
الواحد كما هو ظاهر^(٣) .

وذلك المطلوب الإيم - ان بعيسى عليه
السلام - وحده - لأنه هو الرسول الداعي
إلى ربه ، وليست أمه كذلك . وعليه
فبشرين من قبيل المثني الذي وضع موضع
المفرد .

ما اختلف في تثنيته وافراده :

قال ابن خالويه مما جاء لفظه كلفظ
التثنية لبنيك : وحنانيك وحواليك ، وكذا
بين ظهرائهم . وظهرتهم . وقد اختلف
الزمخشر فيه : فمن يرى أنه مثني^(٤) قال : أنا
مقيم ملب لبابا وإجابة بعد إجابة ، وسعدك
إسعادا بعد إسعاد .

وزعم يونس أنه غير مثني^(٥) قال : إنما
هو : لبنيك ، فاستثقلوا ثلاث باءات فقلوبوا
آخرهن ياء^(٦) .

إلا أن مذهب يونس إن استسغ في
لبنيك على أنه مفرد فلن يقبل في سعديك
وهذا ذيلك لعدم تأني نحو فعّل مضعف
العين واللام ، إلا أن يقال زيدت الياء .

(١) انظر شرح الكافية للرضي ١٧٢/٢ .

(٢) المؤمنون / ٤٧ .

(٣) انظر التاج (بشر) .

(٤) هذا مذهب الجمهور .

(٥) هذا مذهب أبيه يونس بن حبيب .

(٦) كتاب ليس في كلام العرب لابن خالويه / ٣٤١ ، وآمال الزجاج ٨٣ - ٨٤ .

في سعادتك وهذا ذيك للازدواج مع لبيلك
والعرب تزيد وتنقص للمشاكل بما لا يقبله
نقل ولا عقل .

وفي التاج : مما لزم التثنية والنصب
وحذف الناصب (حنانيك) وفي الحديث
« حنانيك يارب » أي ارحمني رحمة بعد
رحمة ، وهو من المصادر ، المثناة التي
لا يظهر فعلها كلبيلك وسعديك . وقالوا
حنانك بالإفراد ، وحنانيك بالتثنية ، أي
تحنن علي مرة بعد مرة ، وحنانا بعد حنان (١).

وخلاصة القول : أن هذه مصادر جيئ
بها ملحقه بالثنى لفظا ، ومعناها التكرار
والمبالغة في الحديث ، ويرى الجمهور أنها
منصوبة على أنها مفعول مطلق منصوب
بالياء لأنها ملحقه بالثنى ، والعامل فيها
فعل محذوف وجوبا (٢).

تقسيم المفرد بالنسبة للتثنية :

ينقسم المفرد بالنسبة إلى الثنى إلى ضربين :

الأول : مفرد له مثنى قياسي ، وهو
كثير وغالب في العربية ولا سيما إذا كان
مما تحققت فيه الشروط الثمانية التي عرضنا

لها في شروط المثنى القياسي ، من ذلك
زيد والزيدان ، ورجل ورجلان ، وأرض
وأرضان ، وسما وسماوان . الخ .

الثاني ليس له مثنى وهو نوعان :

أحدهما : مفرد لا مثنى له البتة مثل
ألفاظ العدد المفردة ما عدا المائة والألف
وأسماء الشرط والاستفهام ، وكافة وجميع
المصادر ما لم يرد بها التنويع ، لكون ألفاظ
العدد يستغنى عن تثنيها بمضاعفاتها وعمومية
أسماء الشرط والاستفهام ، وصلاحيه المصادر
للمفرد وغيره ، والمذكور وغيره لإفادتها
الجنس ، ومثل المصدر ما يفيد الاستغراق من
الألفاظ نحو أحد وديار وعريب من كل
ما لزم النفي ، وكل ما ذكرته آنفا من
الأنواع والأجناس التي لا تثني ولا تجمع .

الثاني : ما ليس له مثنى قياسي ، بل
سماعي كوقوع (نحن) مثنى (أنا) (وأنما)
مثنى (أنت أو أنتِ) وهما ، مثنى (هو
أو هي) إذ قياس مثنى (أنا) أنوان ، وقياس
مثنى (أنت وأنتِ) أنتان ، وقياس مثنى
(هو وهي) هوان وهيان ، وهذه المثنيات
القياسية مرفوضة في اللغة استعمالا .

(١) للتاج ٩ / ١٨٥ وانظر الجمل للزجاجي / ٣٠٦ والصحاح للجوهري (لب) .

(٢) انظر المقنع في الدراسات النحوية للباحث / ٣١ - ٣٣ ، والمخصص ١٣ / ٢٣٣

نقسيم المثني بالنسبة للمفرد :

لم يكن لكل مثني مفرد استعملته العرب وإن غلب ذلك في كلامهم ، من هنا يمكن لنا تقسيم المثني بالنسبة للمفرد إلى الأنواع الآتية :

الأول : مثني له مفرد وهو الذي يجري عليه سـنن العربية ، وهو من الظهور والوضوح بمغن عن القول فيه .

الثاني : مثني ليس له مفرد مستعمل وهذا من النوادر في العربية مثل : (المذروان) فودا الرأس ، يقال : شاب مذرواه ، وهما طرف الأليين كذلك ^(١) .

وكذلك : اثنان واثنان في لغة أهل الحجاز ، واثنان في لغة بني تميم وكلا وكائنا ، حيث لم يستعمل لهما مفرد في الأصح ، فلا يقال : (اثن ولا ائنة) ولا (كيل ولا كيلة) .

قال ثعلب في أماليه : الاثنان لا واحد لهما والواحد لا تثنية له ، وفي موضع آخر قال : الواحد عدد لا يثنى .

وقال البيضاوي في شرح التفصيح مما استعمل مثني ولم يفرد (الأثنيان) وهما واقعان على خصيتي الإنسان . ولم يقولوا أنثى . على أن أبا الطيب اللغوي قال في كتابه (شجر الدر) : والأثنى البيضة من الخصيتين ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، والمثبت مقدم على الناقى لزيادة علمه .

وقال الزجاجي في أماليه : (جاء يضرب أزدريه) إذا جاء فارغا . وكذلك (جاء يضرب أصدرية) بإبدال زراى صاد لتقاربهما مخرجا واتحادهما في الصغير . وكذلك حو اليك ولبيك وسعديك وهذا ذيك . الخ على القول بأنها مشاة جئ بالتثنية لغرض المبالغة وقولهم : عقل بعيره بثايبين . غير مهموز لأنه ليس له واحد ، وفي الصحاح : لم يهجر لأنه لفظ جاء مثني ، لا يفرد له واحد ^(٢) .

الثالث : مثني له أكثر من مفرد نحو : هاتان المرأتان ، فإذا أفردت قلت : هذى

(١) انظر كتاب ليس في كلام العرب / ٣٣٤ ، وأما ابن الشجري ١ / ١٩ : والخصص لابن سيده ١٥ / ١١٤ وجنى البختين لمحمد أمين الحبي ١٠

(٢) انظر شرح الكفراوى على الأجرومية / ٢٦ ، وحشية أبي النجاء على الأهرية / ٢٧ ومعاني القرآن لفراء ٢ / ١٤٢ - ١٤٣ ، والخصص ١٤ / ٩٤ ، وجنى البخت ١٠ - ١١

أولا : التثنية بالزيادة :

إن التثنية بزيادة ألف ونون رفعا ، وياء ونون نصبا وجرا هي مالاك كلام العرب وعليها قياس اللغة ، ويمثل هذا النوع الأكثرية الكثيرة من المثنيات ، وهي المتبادرة إلى الأذهان ، والمطابقة لظاهر حال الأسلوب العربي ، كما أنها لا تحتاج إلى قرينة صارفة إليها بخلاف غيرها من الأنواع الأخرى التي سنعرض لها ، وذلك لكونها وفقا للأصول التي بنيت عليها هذه اللغة مع فهم المراد منها دون لبس أو خفاء نحو : حضر رجلان ، ورأيت رجلين ومررت برجلين فالألف والنون حال الرفع ، والياء والنون حال النصب والجر زيدا للإيجاز ، إذ استغنى بهما عن العاطف والمعطوف في نحو جاء رجل ورجل ، وهذا هو أصل المثنى ، على أنه أصل مرفوض في قياس النحويين ولن يعدل إليه إلا في أمور سنعرض لها في لون آخر من التثنية

ثانيا : التثنية بالعطف وهي الاصل :

(١) إذا اختلف اللفظان^(٢) ومعناهما نحو قول حسان :

إن شرح الشباب والشعر الأسود
ما لم يعاص كسان جنونا

المرأة ، وذى المرأة ، وهذه : وهاتا ، وتا وذه ، وكل ذلك محكى ، ومنه قول الشاعر

فهذى سيوف ياصدئى بن مالك
كثير ولكن أين للسيف ضارب^(٣)

الرابع : مثنى لم تستعمل له العرب مفردا واستعمله العامة ، ويسمى مثنى لفظا فقط نحو : الحلمان (ما يجزؤه) ، والمقراضان (ما يقطع به) ، والكلبتان (ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى) ، ذلك لأن الكلبة الواحدة ، والمقراض الواحد والجسم الواحد لا يقطع .

الخامس : مثنى مفردة إما جمع لفظا ومعنى نحو : إبلان وغنمان وجمالان قال عمرو ابن العدا الكلبى :

لأصبح القوم أو بادا ولم يجدوا
عند التفرق فى الهيجا جمالين
وإما جمع فى المعنى فقط نحو : فئتان ، وطائفتان وجمعان ومائتان وألعان .

طرائق التثنية فى العربية :

تعددت أساليب التثنية فى العربية إلى ألوان مختلفة وهذه يمكن حصرها فى الأنواع الآتية :

(١) كتاب ليس فى كلام العرب / ٣٣٤ .

(٢) المرجع السابق / ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) انظر شرح جمل الزجاجى لابن عصفور ١ / ١٣٥ .

فقد ذكر اثنين : شرح الشباب والشعر الأسود . وإنما جاء بالعطف لاختلافهما لفظاً ومعنى ، وقد أعاد الضمير مفرداً في (ما لم يعاص) وإن كانا لأثنين ، وذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة الآخر ، فجرياً مجرى الواحد ، ألا ترى أن شرح الباب هو أسوداد الشعر ، ولولا أنهما لاصطحابهما صاراً بمنزلة المفرد : كان حق الكلام أن يقال

(يعاصيا) وأشد من هذا قول القائل يصف رجلاً مغترباً في فلاة :

أخو الذئب يعوى والغراب ومن يكن شريكه يطعم نفسه شر مطمع
جعل الذئب والغراب بمنزلة الواحد . فأعاد إليهما ضميراً مفرداً لأنهما كثيراً ما يصطحبان في الوقوع على الحيف : ولولا ذلك كان حقه أن يقول ومن يكونا شريكه ، فهذا أشد من الأفراد في بيت حسان : لأنه أفرد المضمير (يكن) وجاء بالخبر مثني (١)

وكذلك إذا نعت غير الواحد وكان النعت مختلفاً وجب التفريق بالعطف نحو : مررت بالزبددين : الكريم والبخيل . قال ابن مالك ونعت غير واحد إذا اختلف فعاطفاً فرقه ... (٢)

(ب) إذا أريد التكثير نحو قول الشاعر :

لو عد قبر وقبر وقبر كان أكرمهم بيتاً وأبعدهم عن منزل الدمام
فقال : قبر وقبر ، ولم يقل : قبران لإفادة الكثرة .

(ج) إذا فصل بين الاسمين المتفقين لفظاً بالنعت ، وهو إما مصرح به في اللفظ نحو : مررت برجلين : رجل مسلم ورجل كافر .

وإما مقدر نحو : عندي من العبيد ألف وألف : أي ألف رجال وألف نساء .

(د) ضرورة الشعر نحو قول واثلة بن الأسقع الصحابي - رضي الله عنه .

ليث وليث في محل ضمنك
كلاهما ذو أشر ومحلك
وقول أبي نواس :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً
ويوماله يوم الترحل خامس
وقول الآخر :

• أنجب عرس ولداً وعرس •

(١) انظر الأمل للشمسية ٣٠٩/١ وما بعدها :

(٢) ابن عقيل بتحقيق محي الدين عبد الحميد ٢٠١/٢ :

يقول البغدادي : على أن أصل المشئى
العطف ، فلذلك يرجع إليه الشاعر في
الضرورة . . .

قال ابن الشجري في أماليه : التشنية والجمع
المستعملان أصلهما التشنية والجمع بالعطف
فقولك : جاء الرجلان ومررت بالزيردين
أصله جاء الرجل والرجل ، ومررت بزيد
وزيد ، فحذفوا العاطف والمعطوف ، وأقاموا
حرف التشنية مقامهما اختصارا وصح ذلك
لاتفاق الذايتين في التسمية باللفظ واحد ، فإن
اختلف لفظ الاسمين رجعوا إلى التكرير
بالعطف ، كقولك : جاء الرجل والفرس .

(هـ) إذا كان الاسمان علمين باقين على
علميتهما نحو : زيد وزيد : تريد : زيد
ابن فلان ، وزيد بن فلان ، ومنه قول
الحجاج :

* إن لله محمدا ومحمدا في يوم واحد*
يعنى ابنه محمدا ، وأخاه محمدا ، وفي ذلك
يقول الفرزدق :

إن الرزية لا رزية مثلها

فقدان مثل محمد ومحمد

(و) إذا اتفق الاسمان في اللفظ ، ولم
يتفقا في المعنى ، ولا في المعنى الموجب
للتسمية نحو : رأيت المشتري والمشتري
تعنى بأحدهما الكوكب ، وبالأخر قابل
عقد البيع (١)

ثالثا : التشنية بالنيابة :

(أ) نيابة المفرد عن المشئى :

الأصل أن يدل على الفردية بالمفرد وعلى
التشنية بالثنائي إلا أن العرب قد تعدل عن
ذلك لمعان هي قائمة في أنفسهم قد تدركها
تارة وقد لا تدركها منها :

(أ) أن يكون الشيطان متلازمين فيذكر
أحدهما اجترأ به عن الآخر ، حيث يقوم
أحد الشيطان مقام الاثنين معا ، من ذلك
العينان والرجلان واليدان ، والأذنان .
إلخ من الأعضاء المزدوجة .

يقول ابن الشجري : يجوز أن تعبر عن
العضوين (أى المتماثلين) بواحد وتفرد
الخبر حملا على اللفظ تقول : عيني رأته
وأذني سمعته ، وقدمي سمعت فيه ، وإنما
استعملوا الأفراد في هذا تخفيفا ، وللعلم
بما يريدون فاللفظ على الأفراد والمعنى
على التشنية .

(١) انظر المقرب لابن عصفور ٢/ ٤١ - ٤٢ ، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/ ١٣٥
وما بعدها ، والخزانة ٣/ ٣٤٠ .

ويجوز مع الأفراد عود الضمير مثني
حملا على المعنى كما في قول امرئ القيس:

وعين لها حذرة بدرة

شقت مآقيهما من آخر

وكان مقتضى الظاهر أن يقول : مؤقها
أو مؤقاهما إلا أنه عدل عن الأفراد إلى
التثنية حملا على المعنى ، كما نلاحظ أنه
جمع (مآقي) في مقام التثنية .

وقول الآخر :

إذا ذكرت عيني الزمان الذي مضى

بصحراء فلاج ظلنا تكفان

فقال : ظلنا حملا على المعنى لأنه ذكر
عيننا وأراد عينيّن اجتزاء بأحدهما عن
الأخرى (١) .

ومن المتلازمين وليسا بعضوين الإنسان
الكافر وقرينه من الجن نحو قوله تعالى
« حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك
بعد المشرقين ... » (٢) قرأ أبو عمرو وحمزة
والكسائي وحفص بالإفراد ، يعني الكافر
يوم القيامة ، والباقون (جاءنا) على التثنية

يعني الكافر وقرينه ، وقد جعلنا في سلسلة
واحدة . . . وقرأة التوحيد - وإن
كان ظاهرها الإفراد - فالمعنى لهما جميعا
لأنه قد عرف ذلك بما بعده (٣) .

ومثل ما تقدم قوله تعالى « إذ يتلقى
الملتقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » (٤)
وإنما قال (قعيد) ، ولم يقل (قعيدان) وهما
اثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال
قعيد ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه
قاله سيبويه ومنه قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما

عندك راض والرأي مختلف

وقال الفرزدق :

إني ضمنت لمن أتاني ماجني

وأني فكان وكنت غير غدور

ولم يقل : راضيان ولا غدورين . ومذهب
المبرد ، أن الذي في التلاوة أول آخر اتساعا
وحذف الثاني لدلالة الأول عليه .

ومذهب الأخفش والفراء : أن الذي في
التلاوة يؤدي عن الاثنين والجمع ، ولا
حذف في الكلام ، . . . وقال الجوهري :

(١) انظر الأما إلى ١ / ١٢١ - ١٢٢ ، وانظر الخزانة ٣ / ٣٦٩

(٢) الزخرف / ٣٨ .

(٣) القرطبي ١٦ / ٩٠

(٤) ق / ١٧ .

فعل وفعل مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع كقوله تعالى : « إنا رسول رب العالمين » الشعراء / ١٦ وقوله : « والملائكة بعد ذلك ظهير » التحريم / ٤ وقال الشاعر أكنى إليها وخير الرسو

ل أعلمهم بنواحي الخير (١)

ومنه قوله تعالى : « كلا لينبذن في الحطمة » (٢)

المراد لينبذن هو وماله ، فأفرد لكونهما كالشيء الواحد ، فقد قرأ بالافراد وأراد الاثنين بدليل قراءة الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحيد وابن محيصة « لينبذان » بالثنية : أي هو وماله. (٣)

(ب) صلاحية اللفظ للواحد والاثنين والجمع كما تقدم في نحو : قعيد وظهير على مذهب الجوهري ونحو (ماء) في قوله تعالى « فالتقى الماء على أمر قد قدر » (٤) أراد : المائين : ماء الأرض وماء السماء ، ولا يجوز التقاء إلا لاسمين فما زاد ،

وإنما جاز في الماء ؛ لأن الماء يكون جمعا وواحدا (٥)

(ج) الاستغناء بأحدهما عن الآخر نحو قوله تعالى : « سراييل تقيكم الحر » (٦) يريد والبرد فاجتزأ بأحدهما ، لأنه معلوم ، وهي تقي الحر والبرد .

ومثله كقول الشاعر :

ومـسا أدري إذا يـمت وجهها
أريد الخير أيهمـسا يليني
يريد : أي الخير والشر يليني ؛ لأنه إذا أراد الخير ، فهو يتقى الشر ، وقد فسره بقوله :

أأخير الذي أنـسا أبتغيه
أم الشر الذي هـو يبتغيني
أراد : لا يألو جهدا في طلي (٧) .

(١) القرطبي ١٧/٩-١٠ ، ١٨ / ١٩١ ، ١٣ / ٩٣ ، وانظر التبيان لأبي البقاء العكبري ١١٣٩ ، ١١٧٤ ، البحر ٨ / ١٢٣ .

(٢) الحمزة / ٤ .

(٣) القرطبي ٢٠/١٨٤ ، والتبيان لأبي البقاء العكبري ١٣٠٣ /

(٤) القعر ١٢ /

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/١٠٦

(٦) للنحل ٨١ /

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/١١٢ ، والقرطبي . . ١٦٠-

(د) إفادة المفرد العموم نحو قول أبي ذؤيب الهذلي :

فأليت لا أنفك أحدو قصيدة

تكون وإياها مثلاً بعدى

الأصل : تكون القصيدة والمرأة مثابن فأوقع المفرد (مثلاً) موقع المثنى كما يقع موقع الجمع لما فيه من العموم المقتضى للكثرة^(١) ومنه قوله تعالى : «هل يستويان مثلاً : (الزمر ٢٩) ولم يقل مثابن لإفادة المثل العموم كما سبق ، فمثل يوصف به المفرد المثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، ولا يؤنث ، وقد يطابق تثنية وجمعاً^(٢) .

(هـ) كون الاثنين شأنهما واحد فينزلان منزلة المفرد نحو قوله تعالى : «وجعلناها وابنها آية للعالمين» الأنبياء / ٩١ ، وقوله تعالى : «وجعلنا ابن مريم وأمه آية» المؤمنون / ٥٠ ، ولم يقل فيهما (آيتين) كما قال في قوله «وجعلنا الليل والنهار آيتين» الإسراء / ١٢ . ذلك لأن شأن عيسى وأمه واحد ، بخلاف الليل والنهار فأمرهما مختلفان .

ويحتمل أن يكون المراد في جانب عيسى عليه السلام وأمه (قصتهما) ، وقال القرطبي : المعنى وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين وقال الزجاج :

إن الآية فيهما واحدة ، لأنها ولدته من غير فعل ، وقدره سيديويه فقال : «وجعلناها آية للعالمين» ، وجعلنا ابنها آية للعالمين ، ثم حذف ، وعلى مذهب سيديويه يكون قد اكتفى بإحدى الآيتين عن الأخرى ، وقال الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ، مثل قوله جل ثناؤه : «والله ورسوله أحق أن يرضوه»^(٣) فجعل^٤ الآية للأبعد دون الأقرب .

(ب) نيابة الجمع عن المثنى :

الأصل في البيان العربي استعمال المثنى في مقام التثنية ، والجمع فيما يقتضيه والمفرد فيما يدعو إليه المقام ، وهذا اللون من الاستعمال يذعن به بالاستعمال الحقيقي وقد تعدل العرب عنه إلى استعمال المفرد في مقام التثنية أو العكس والجمع في مقام التثنية أو العكس وهذا النوع من ألوان المجاز في الاستعمال العربي ، ومرده السماع .

(١) الخزانة ٥٩٧/٣ - ٥٩٩

(٢) انظر البحر ٤٠٨/٦

(٣) انظر للقرطبي ٣٣٨/١١ ، والبحر ٤٠٨/٦ ، ومعاني القرآن للفراء ٤١٩/٢ ، وللتبيان لأبي الليقاء العكبري / ٩٢٦

وإنما تعتمد العرب إلى استعمال الجمع مع إرادة المثنى لما بينهما من التقارب من حيث كانت التثنية عددا تتركب من ضم واحد إلى واحد ، وأول الجمع وهو الثلاثة تتركب من ضم واحد إلى اثنين لذلك قال الخليل : إن الاثنين جمع^(١)

كما أن العدول عن التثنية إلى الجمع لا يخلو من نكتة تسوغ التعبير بالجمع دون المثنى كما في قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » .^(٢)

فقد أعاد الضمير إلى السماء مفردا مؤنثا في قوله « فقال لها » ثم ثنى الضمير في قوله : « قالتا » باعتبار الجنسين : أى جنس السموات وجنس الأرض ، ثم جمع في قوله : « طائعين » وذلك باعتبار أفراد الجنسين^(٣) .

وفي الآية شاهد على إجراء ما لا يعقل إجراء من يعقل إذا نسب للأول مما هو

للثاني إذ الطاعة لا تقع إلا من المكلفين العتلاء ، ولما استعير وصفهم للسماء والأرض بقيت الصفة على اختصاصها من صحة جمعها جمع مذكر سالما ، ومثل ذلك قوله تعالى : « إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين »^(٤) .

وقوله تعالى « إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »^(٥) والأصل - والله أعلم - ساجدات وخاضعات ، أو ساجدة وخاضعة إلا أن الصفة لما كانت لمن يعقل بقيت محتفظة بخاصيتها وهي جمعها جمع مذكر سالما ولو كان موصوفها غير عاقل ، وقد وفيت القول في ذلك في مبحث جمع المذكر السالم .

كما أن (طائعين) في مقابل (طوعا أو كرها) و (طائعين) وقع حالا من أفراد السموات والأرض ، وهذا دليل على صحة وقوع المصدر حالا ، وحيث ثبت وقوع أحد المتقابلين حالا فيثبت

(١) ينظر الأمل الشجرية ١ / ١٢ ، ١٣ ، والمجمع ١ / ٥٠ والحمل نازجاني ٣١٢ ، وشرح الحمل لابن عصفور ٤٤٤/٢

(٢) فصحت ١١ /

(٣) انظر عبادة ٢٩/١ والأمل الشجرية ٣١٢/١

(٤) يوسف / ٤

(٥) الشعراء / ٤

لآخر كذلك ، وإذا ثبتت الحالية ل (طوعا أو كرها) اللذين هما مصدران ثبتت الحالية انظرائهما كذلك من المصادر نحو جاء زيد ركضا وقتلته صبرا (١) .

ومن وقوع الجمع مع إرادة التثنية قوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » (٢) ولم يقل : قايبا كما ؛ إذ المعنى بالخطاب : عائشة وحفصة رضى الله عنهما (٣) قال القرطبي : ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعهما ؛ لأنه لا يشكل وقيل كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلنفظ الجمع به أليق ؛ لأنه أمكن وأخف (٤) وقال أبو البقاء العكبري إنما جمع وهما اثنان ؛ لأن لكل إنسان قلبا ، وما ليس في الإنسان منه إلا واحد جاز أن يجعل الاثنان فيه بلفظ الجمع ،

وجاز أن يجعل بلفظ التثنية ، وقيل : وجهه أن التثنية جمع (٥) .

وقال في البحر : وأتى بالجمع في (قلوبكما) وحسن ذلك إضافته إلى مثنى والجمع في مثل هذا أكثر استعمالا من المثنى والتثنية دون الجمع كما قال أبو ذؤيب :

فتمخالسا نفسيهما بنوافذ
كنوافذ العبط أنى لا ترفع

وهذا كان القياس ، وذلك أن يعبر بالمثنى عن المثنى ، لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعبدوا إلى الجمع لأن التثنية جمع في المعنى (٦) .

ومنه قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا » (٧) ولم يقل :

(١) انظر حاشية عباده على الشذور ٥٠/١

(٢) التحريم / ٤

(٣) كتاب ليس في كلام العرب لابن خالوية / ٣٣٩ ، الجمل الزجاجي ٣١٢/١ وما بعده وشرح لابن عصفور ٤٤٥/٢ / ٤٤٦

(٤) القرطبي ١٨٨/١٨

(٥) التبيان لأبي البقاء العكبري ١٢٢٩/٣ : وانظر شكل إعراب القرآن الكريم لمكي ٧٤٢/٢ والأحاجي نازحشرى / ١٠١ ، وإعراب القرآن للزجاج ٧٨٧/٣ وما بعدها .

(٦) البحر ٨ / ٢٩٠ - ٢٩١ ، وانظر المزمع لمسيوطي ١٩٣/١

(٧) الرحمن ٣٣

إن استطعتم... كما قال : يرسل عليكما شواظ
من نار ونحاس فلا تنتصران » ولم يقل
عليكم فقد ثنى في (عليكما : وتنتصران)
حملا على اللفظ ، وجمع في قوله
إن « استطعتم » حملا على المعنى (١) .

وكذلك قوله « وإن طائفتان من المؤمنين
اقتتلوا » (٢) فقال : اقتتلوا ولم يقل اقتتلتا
مراعاة للظاهر : لأن الطائفة مفرد لفظا
جمع معنى مثل مائة وألف وعشرة (٣) .

وقال القرطبي : الطائفة تتناول الرجل
الواحد والجمع والاثنتين ، فهو مما حمل
على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين
في معنى القوم والناس ، وفي قراءة عهد الله
حتى يغيثوا إلى أمر الله ، فإن فاعلوا
فخذلوا بهم بالقسط » وقرأ ابن أبي عملة
(اقتتلتا) حملا على لفظ الطائفتين (٤) .

ومن وضع الجمع موضع المثنى
ما أنشده ابن السكيت :

* والساق منى باديات الرير *
وكان الوجه أن يقول : بادية حملا
على لفظ الساق ، أو باديتان ؛ لأن
المراد بالساق الساقان ، ولكنه جمع في
موضع التثنية لقرب الجمع من التثنية (٥) .

وقالت امرأة من بني الحارث بن
كعب :

لـ...و يشأ طار به ذو مبيعة
لا حق الآطال نهد ذو خصل

أراد : الإطلين ؛ إذا المعنى : قد لصقت
إطله بأختها من الضمر ، وجمعت الإطل
في موضع التثنية ، وذلك أسهل من الجمع
في موضع الواحد ، كقولهم : شابت مفارقة
(وليس له أكثر من مفرق واحد)
وقولهم : بعير ذو عثنانين . وليس له
سوى عثنون واحد ، وهي شعيرات
طوال تحت حنك البعير .

(١) معاني القرآن للفراء ١٦/٣ - ١١٧

(٢) الحجرات / ٩

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ٣١/٣ ، والأما إلى الشجرية ١٨٨ / ١

(٤) انظر للقرطبي ٢٩٤/٨ ، ٣١٦/١٦ ، والبحر ١٨ / ١١١ ، وتأويل مشكل القرآن / ٢٨٢ و١
بعدها

(٥) انظر الأما إلى الشجرية ١٢٢/١

ولو قالت : لاحق الإطنين بسكون
الطاء ، أعطت الوزن والمعنى حقهما^(١)
إلى غير ذلك من الأمثلة التي يطول بها
القول .

وبعد : فوضع الجمع موضع المثنى
يكون للنكت التالية : ﴿﴾

(أ) الحمل على المعنى كما في قوله :
« أتينا طائعين » .

(ب) إضافته إلى مثنى نحو قوله « فقد
صغت قلوبكما - فاقطعوا أيديهما » .

(ج) كون المفرد صالحا للواحد
والمثنى والجمع كما في قوله « وإن طائفتان
من المؤمنين اقتتلوا - هذان خصمان اختصموا » .

ومنه النفس والعين إذا أكد بهما المثنى
نحو : جاء الزيدان أنفسهما والمحمدان
أعينهما ، وذلك بجمعهما جمع قلة (أى
على أفعل) وهذه هي اللغة العالية ،
ودونها الأفراد والتثنية نحو : جاء الزيدان
نفسهما أو نفسهما وإلى اللغة العالية أشار
ابن مالك بقوله : :

واجمعهما بأفعل إن تبعهما

مسا ليس واحدا تكن متبعهما^(٢)

من هنا يتبين لنا أن جمع النفس والعين
مراد به المثنى ، أو أن المثنى قد ناب عنه
الجمع في هذا الموطن من كلام العرب .

(د) كون المثنى جمع أو قريب منه
نحو قول امرأة من بني الحارث بن كعب :

إن يشأ طار به ذو مبيعة
لا حق إلا طال نهد ذو خصل

(هـ) وضوح المراد من الواقع نحو قولهم :
هو رجل عظيم المناكب ، وإنما له منكبان ،
ورجل ذو أليات ، وليس له سوى
ألبين ، وغليظ الحواجب والمرافق
والوجنات ، وامرأة ذات أوراك إلخ
ومن ذلك قول العجاج :

* على كراسيعى ومرفقيه *
وإنما له كرسوعان^(٣) .

رابعا : التثنية بالتغليب والزيادة :

وإنما يكون التغليب بإطلاق أحد
المتصاحبين أو المتشابهين على الآخر .
كأن يكون المفردان اختلفا لفظا ومعنى
فيغلب المذكر على المؤنث ، والأخف
على الأثقل ، والأشهر على من دونه ،

(١) انظر الأما إلى الشجرية ١/ ١٨٧ - ١٨٨ ، وجنى الجنتين لمحمد أمين الخي / ٨ وما بعدها

(٢) انظر للتصريح نحاشية يس ١٢١/٢

(٣) النخوص لابن سيده ١٣/ ٢٣٤ .

والأفضل على غيره . والأسبق على من
يليه إلخ ، وهذا اللون من التثنية ضرب
من ضروب التوسع أو المجاز في العربية .

هذا وللعرب طرق متعددة في هذا
اللون أذكر منها الآتي :

(أ) تغليب الأشهر على غير الأشهر نحو
قول الشاعر :

ألا من مبلغ الحُرِّيس عني
مغلغة وخص بها أبيتها

فالحرين : اسم أحدهما حر ، والآخر
أبى فغلب الأول على الثاني لشهرته ومنه
قول الآخر :

جزاني الزهيمان جزاء سوء
وكنت المرأة يجزى بالكرامة

فأحدهما : اسمه : زهدم ، والآخر
اسمه : قيس فغلب الأشهر على غيره منهما .

(ب) تغليب الأخف على غيره في اللفظ
كأن يكون أحد الاسمين مركب والثاني
بسيط نحو : أبو بكر وعمر : فبطل
فيها : العمران ، بتغليب عمر لخفة
اللفظ على أبي بكر لتركيب لفظه ،
ومنه قولهم : سيرة العمرين : أبو بكر

وعمر رضي الله عنهما ، ومنه :
المصعبان : عبد الله بن الزبير وأخوه
مصعب بن الزبير .

(ج) تغليب المذكر على المؤنث لشرف
الأول على الثاني نحو : أحمر وحمر
فيقال فيهما : أحمران ، بتغليب أحمر
لذكره على حمره لتأنيثه مثله نحو :
قائم وقائمة ، فيقال فيهما : قائمان
بالتذكير دون التأنيث : ومنه الأبوان
الأب والأم .

(د) وقد تشي العرب بغير لفظ المفردين
كقولهم في الطعام والزكاح : الأضيان .
وفي الليل والنهار : الملوان : والحديدان
والعصران كل ذلك فيهما .

(هـ) تثنية ما تجمعها صفة واحدة مع
اختلاف معانها كقولهم في الذهب
والزعفران : الأصفران ، وفي البطن
والفرج : الأجوفان ، وفي الفقر
والعري : الأمران ، دعا أعرابي فقال :
أذاقك الله البردَيْن وجنبتك الأمرين
وكفأك شر الأجوفين ، البردان : برد
الغنى وبرد العافية ، الأمران : الفقر
والعري ، والأجوفان : البطن والفرج^(١) .

(١) انظر المخصص ٢٢٣/١٣ وما بعدها .

ما تغير بعض حروفه في التشبية :

نحن نعلم أن المجموع منها ما لا يتغير فيه صورة مفردة مثل جمع المذكر السالم نحو زيد وزيدون . وجمع المؤنث السالم نحو : هند وهنديات . ومنها ما يتغير فيها صورة المفرد وهو جمع التكسير نحو : رجل ورجال ، وبطل وأبطال ، وأسد وأُسُد ، وأسود ، وتاج وتيجان وحوت وحيتان ، وبرثن وبرائن إلخ .

أما المثني فتارة لا يتغير فيه صورة مفردة ، وتارة تتغير :

فالأول : ما كان من الأسماء صحيح الآخر أو شبيها به نحو : رجل ورجلان وتمرة وتمرتان ، ودلو ودلوان ، وظبي وظبيان حيث جاء المفرد على هيئته بزيادة ألف ونون رفعا ، وياء ونون نصبا وجرا فيقال : هذان رجلان ورأيت رجلين ، ومررت برجلين إلخ .

ولم يشذ عن ذلك إلا لفظتان : خصية وإلية ، فقد ورد حذف التاء منهما عند التثنية نحو قول امرأة من هذيل :

كأن خصيه مسنن التلـيل

ظرف عجوز فيه ثلثا حنظل

وقال آخر :

أخصي حماربات يكدم بحمة
أتوخذ جاراقى وجارك سالم
يحذف التاء من المثني مع وجودها في المفرد ، نقل الإمام المرزوقي عن الخليل أنه قال : الخصية تؤنث ما دامت مفردة . فإذا ثنوها أنثوا وذكروا . ومثال تثنية (ألية) قول الراجز .

• يريج ألياه ارتجاج الوطب •

يحذف التاء ولعل ذلك جاء على لغة ثانية في المفرد وهي « خصى وألى » يحذف التاء منهما ، فمن قال : خصى وألى قال في التثنية خصيان وأليان ، ومن قال : خصية وألية قال : خصيتان وأليتان ، ودليل خصية قول الشاعر :

لست أبالي أن أكون مُحَمَّقَة

إذا رأيت خصية معلقة

قال أبو العباس المبرد : يقال :

(خصية وخصى) ، فمن قال : (خصية)

قال خصيتان ، ومن قال (خصى) قال

خصيان :

ومثله ألية وألى ، فمن قال : (ألية)

قال : أليتان ، ومن قال (ألى) قال : أليان .

وقال أبو عمرو الشيباني : الخصيتان :
البيضتان ، والخصيان : الخلدتان اللتان
فيهما البيضتان (١).

والثاني : وهو ما تتغير فيه بعض حروف
المفرد ، وهو أنواع :

الأول : الاسم المقصور وحقيقته : كل
اسم معرب آخره ألف لازمة قبلها فتحة ،
نحو قفا وفتى ، فإذا تثنيته فلا بد من
تحريك الألف ، فتد إلى ما يمكن
تحريكه من ياء أو واو ، وإنما وجب
تحريكه ، لأننا إذا أدخلنا ألف التثنية
اجتمع ساكنان : الألف التي في الاسم
المفرد وألف التثنية ، فلو حذفنا إحدى
الألفين لاجتماع الساكنين لوجب أن
نقول في تثنية عصا ورخا : عصان ورحان
وكان يلزمنا إذا أضفنا أن نسقط النون
للإضافة فيقال : أعجبني رخاك وعصاك
فيلتبس المفرد بالمشي حيث تجمعهما هيئة
واحدة ، فوجب التحريك ، ولم يمكن
تحريك الألف ، فقلبت إلى أصلها الواو
أو الياء ، وقد ثبت أن ما كان على ثلاثة
أحرف ، والثالث منها ألف ، أن الألف
منقلبة من ياء أو واو فتد في التثنية إلى

ما هي منقلبة منه ، فنقول في قفا :
قفوان ؛ لأنه من قفوت الرجل إذا
تبعته من خلفه ، وفي عصا : عصوان ؛
لأنه عصوت الرجل : إذا ضربته بالعصا ،
وتقول في رجا : رجوان ، وهو ناحية
البئر وغيرها قال الشاعر :

فلا يرمى بن الرجوان إلى
أقل القوم من يغنى مكانى
وتقول في رضا : رضوان ؛ لأن رضا
من الواو بدليل مرضو ورضوان .
هذا فيما ردت فيه الألف إلى أصلها
الواو .

وترد الألف إلى أصلها الياء في نحو
رحى ورحيان ، وفتى وفتيان وندى ونديان ،
وأما قوخم : الفتوة والمدوة وإنما قلبت
الياء فيها واوا للضممة قبلها وليس ذلك
بقياس مطرد ، والدليل على أن الألف
منقلبة عن ياء في فتى قوخم في الجمع فتيان
وفتية ، والجمع والتثنية مما يرد الأشياء
إلى أصولها .

فإذا كان المقصور على أربعة أحرف
فصاعدا ثني بالياء مطلقا سواء كان أصل

- (١) انظر المنصف ١٣١/٢ - ١٣٢ ، ٣٨٤ ، المخصص ٩٨ / ١٦ ، الخزانة ٣ / ٣٥٩ - ٣٦٩ ،
فصيح ثعلب / ٨٥ ، أدب الكاتب / ٣١٧ ، والأمل الشجرية ٢٠ / ١ تهيمشة - ٢ ، وشرح جمل للزجاجي
لابن عصفور ١٤٠ / ١ .

ألفه ياء أو واوا ، فما كان من الواو نحو :
مغزى ومغزيان وملهى وملهيان من الغزو
واللهو . وما كان من الياء فنحو : مرمى
ومجرى تقول فيها مرميان ومجريان من
رميت وجريت . وما كان ألفا في الألف
نحو : حبلى وذكرى وما أشبه ذلك يقال
فيها : حبليان وذكريان . . . : . . . ونذكر في
هذا الباب قولهم : مذروان لطرفي
الألين ورأيت المذروين ، وكان القياس
مذريان ومذريين ؛ لأن تقدير الواحد
مذرى ، غير أنهم لم يستعملوا الواحد
مفردا ، فيجب قلب آخره ياء . . . قال
الشاعر :

أحولى تنفض استئلك مذرويهما
لتقتلنى فيها أنا ذا مُمَارا
. وقال الكوفيون : بعض العرب
تسقط الألف المقصورة فيما كثرت حروفه
إذا ثنوا ، فيقولون فى خوزلى وقهقرى
خوزلان وقهقران ، ولم يفرق البصريون
بين ماقلت حروفه أو كثرت ، وقد ورد فى
شعر الفصحاء إثبات الألف ببدلها فى نحو :
جماديان ؛ قال لبيد :

أوبته حتى تكفت حامداً
وأهلاً بعد جماديين حرامها

وأشدد أبو بكر بن دريد :
أصبح زيد ختميش العيين
علته لا تنقض شهرين

شهرى ربيع وجماديين (١)

الثانى : المنقوص الآخر :

المنقوص الآخر على ضربين :

الأول ما يرد محذوفه حال النصب :
وهو كل اسم معرب آخره ياء لازمة قبلها
كسرة نحو قاض وغازوداع ، فإن الياء ترد إليه
عند تثنيته وتاحقه ألف ونون فى الرفع ،
وياء ونون فى النصب والجر ، نحو : هذان
داعيان إلى الله ورأيت داعيين وسررت
بداعيين .

الثانى منقوص على غير قياس وهو ما عدا
ذلك نحو أب وأخ وحم وهن ، وفى تثنية
هذا النوع لغتان :

الأولى : وهى اللغة العالية أن يرد المحذوف ،
ثم يزداد عليه علامة التثنية الألف والنون
رفعا ، والياء والنون نصبا وجرأ ، نحو
قوله « فلان لم يكن له ولد وورثه أبواه »
(النساء ١١) وقوله : « يا بنى آدم لا يفتنكم
الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة »

(١) انظر المخصص لابن سيده ١٥/١٠٢ ، ١١١ وما بعدها ، والتصريح بحاشية بس ١/٤٨ وانظر

(الأعراف ٢٧) . وقوله : « ولأبويه
لكل واحد منها السدس مما ترك إن كان له
ولد » (النساء) ١١ :

وكذلك يقال في أخ وحَمِ وهن . (١)

الثانية : وهي قليلة عدم الرد وإيراد
التثنية على اللفظ نحو : هما أبان ورأيت
أبين ومررت بأبين ، قال الشاعر :

تزهي على تلك الظبا

فقلت شعري من أياها

وقف الهوى بي عندها

وسرت بقلبي مقلتاها

قال ابن الشجري يحتمل قوله (من أياها)
ثلاثة أوجه تكتفي بالأول منها وهو أن
يكون بمعنى قولك (أبواها) فهو تثنية
أب على لغة من قال :

هذان أبان ، ورأيت أبين ، ومررت
بأبين فلم يرد له في التثنية كما لم يرد اللام
من قال يدان ودمان ، وأنشدوا على هذه
اللغة قول الفرزدق :

يا خليلي اسقياني

أربعا بعد اثنتين

واصرفا الكأس عن أخا

هل يحيى بن حصين

لا يذوق اليوم كأسا

أو يغوى بالأبين

وعلى هذا المذهب ثناه المتنبي في قوله :

تسل بفكر في أبتيك فلنما

بكيت فكان الضحك بعد قريب

فوزن (أباها وأبيك) فعابها وفعلك ،
وحذف منها النونين للإضافة (٢) هذا
ولا ترد اللام في التثنية في نحو يدودم إلا في
ضرورة الشعر نحو قوله :

فلو أنا على حجر ذُبَحنا

جرى الدميان بالخبر اليقين

وقول الآخر :

يديان بيضاوان عند محلم

قد تمنعانك أن تضام وتضهدا

والأفصح فيها دمان ويدان قال تعالى:
« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » (النبأ/٢٤٠)
وقوله جل وعلا : « تبت يدا أبي هب
وتب » (المسد / ١) ، وقال :
« ويوم يعرض الظالم على يديه » (الفرقان -
٢٧) .

(١) انظر المقرب لابن عصفور ٢٣/٢ - ٤٤٤ ، والتصريح بحاشية يس ٤٨ / ١

(٢) الأمل الشجرية ٣٠ / ١ - ٣١

ولم يقل : يدياه ولايديه (١)

* * *

الثالث : الاسم الممدود : وهو كل اسم آخره همزة قبلها ألف زائدة نحو : سماء وصحراء وهو أربعة أضرب :

الأول : ما كانت همزته أصلية نحو : قراء ووضاء من قرأت ووضعت والوضاء : الجميل من قولهم : وضؤ وجه الرجل إذا حسن وأشرق .

الثاني : ما كانت همزته منقلبة من حرف كقولهم : كساء ورداء . وأصله : كساو ورداي .

الثالث : ما كانت الهمزة فيه منقلبة من ياء زائدة كقولهم : حرباء وعلباء وفرشاء . . . وكان الأصل : علباء ، والياء زائدة ؛ لأنك تقول : سيف معلوب ومُعائب : إذا كان مشدود المقبض بالعلباء .

الرابع : ما كانت همزته منقلبة من ألف تأنيث كقولك : حمراء وخنفساء .

فأما الوجوه الثلاثة الأول : فالباب في تثنيها الهمزة كقولك : قراءان ووضاءان وكساءان وعلباءان وحرباءان ، ويجوز فيمن الواو ، وإنما كان الهمز الوجه لأنها

الظاهرة في الكلام ، وهي أكثر في كلام العرب .

وأما من جعلها بالواو فلا ستثقال الهمز بين الألفين ؛ لأن الهمزة من مخرج الألف فتصير كأنها ثلاث ألفات . وبعض هذه الثلاثة أقوى من بعض في القلب ؛ فأضعفها في قلب الهمزة واوا ما كانت الهمزة فيه أصلية كقراء ووضاء . وبعده ما كانت الهمزة فيه منقلبة من حرف أصلي كراء وكساء لما شاركته الأول في أن الهمزة غير زائدة ولا منقلبة من زائد . وأما علياء فإن قلب الواو فيه أحسن وأكثر من الأولين ؛ لأن الهمزة فيه منقلبة من حرف زائد . فأشبهت ألف التأنيث في حمراء وعשרاء .

والذي عند البصريين في تثنية الممدود المؤنث قلبها واوا ، لم يحكوا غير ذلك كقولك : حمراوان وعشراوان .

وذكر المبرد أنهم إنما قلبوها واوا ؛ لأن الهمزة لما ثقل وقوعها بين ألفين في كلمة ثقيلة بالتأنيث ، وأرادوا قلبها كان الواو أولى بها من الياء لأن الهمزة في الواحد منقلبة عن ألف التأنيث ؛ وليست الهمزة من علامة التأنيث ، وهي بمنزلة الألف في غضبي وسكري ، والألف في غضبي ليس قبلها ساكن ، فلم يحتج إلى تغييرها

(١) انظر المقرب لابن عصفور ٤٤/٢ ، التبصرة والتذكرة للصيمري ٧٨٣

فإذا قالوا : حمراء ، أثوا فيها بألف المد لا للتأنيث ، وجعلوا بعدها ألف التأنيث ، ولا يمكن اللفظ بألفين ، ولا يجوز إسقاط إحداهما المقصور ، فقاموا بالألف الثانية إلى الهمزة لأنها من جنسها ، فصارت الهمزة في الواحد ، وليست من علامات التأنيث ، فلما أثوا جعلوا مكانها حرفا ليس من علامات التأنيث وهو الواو أو أنهم اختاروا الواو دون الياء التي هي من علامات التأنيث لأن الواو أبين في الصوت من الياء . . .

وقد حكى الكسائي : أن من العرب من يقول : ردايان وكسايان ، فيجتمع فيه على قول الكسائي ثلاث لغات :

١- ردايان وكسايان بإبقاء الهمزة وزيادة علامة التثنية .

٢- رداوان وكساوان بإبدال الهمزة واوا مطلقا .

٣- راديان وكسايان بإبدال الهمزة ياء مطلقا .

ويجوز الكسائي التثنية بالهذر في حمراءان وبابه ، وأجاز أيضا حمل باب حمراء على جميع ما يجوز في باب رداء فيقال : حمراءان وحمراءوان ، وحمرايان باللغات الثلاث .

وحكى الكوفيون أشياء لم يذكرها البصريون فقالوا : يجوز فيما طال من هذا الممدود حذف الحرفين الأخيرين ، فأجازوا في قاصعاء وخنفساء وحائياء ونحو ذلك أن يقال : قاصعان وحائيان ، وقاصعاوان ، وحائياوان ، واستحسنوا في الممدود إذا كان قبل الألف واوا أن يثنوا بالهمزة وبالواو فقالوا في لأواء وخلواء : لأواءان ولأواوان وأجازوا في سوءاء (المرأة القبيحة) : سوءاآن ، وسوءاوان^(١) .

نون المثني

هذه النون عوض عن التنوين ، لذلك حذفت للإضافة مثله ، وعن الإعراب بالحركات فلذا ثبت مع ال مثلها ، وقيل هي لدفع توهم الإضافة نحو : جاءني خليلان : موسى وعيسى ، ومررت ببنتين كرام . ولدفع توهم الإفراد في نحو : جاءني هذان ، ومررت بالمهتدين ، أو أنها زيدت للدلالة على تمام الاسم^(٢)

حذفها :

تحذف نون المثني للإضافة نحو : هذان غلاما زيدا ، وكتابا محمد قال ابن مالك :

(١) انظر الخضر لآين سيده ١١٤/١٥ وما بعده .

(٢) حاشية الخضرى ٤٥/١ ، وحاشية عبادة على للشذور ٢٩/١ .

نونا تلى الإعراب أو تنوينا

مما تضعيف احذف كطور سيدنا^(١)

أراد : اللتان . فحذف النون ، ومنه
قول الراجز يصف أفعى :

هذا - وقد جاء حذفها لغير الإضافة
لغة بنى الحارث بن كعب وبعض بنى ربيعة
كقول الأخطل

قد سالم الحيات منه القدماء
الأفعوان والشجاع الشجعاء

أبنى كليب إن عمى اللذان

قتلا الملوك وفككا الأغلالا

أصله القدمان ، فحذف النون ضرورة ،
وفي هذا البيت شاهد رفع الفاعل والمفعول
لأمن اللبس^(٤) .

يريد : اللذان ، ولعل ذلك مختص بصيغة
التثنية من المبهات كما حذفت نون الذين
في لغة هذيل في قوله «وخضتم كالذى خاضوا»^(٢)
أى كالذين ، وقوله جل وعلا «والذى جاء
بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون»^(٣)
فقد أفرد في (جاء وصدق) حملا على
اللفظ ، وجمع في (أولئك) حملا على المعنى .

تشديدها :

تشدد نون المثني من المبهات خاصة
نحو : هذان وهاتان واللذان ، واللتان
عوضا عن الألف المحذوفة من (ذا وتا)
والياء المحذوفة من (الذى والى) عند إرادة
تثنيها ، والتعويض بتضعيف نون المثني عن
المحذوف من المفرد هنا لغة تميم . وقيس ،
وقيل إن تضعيف نون المثني هنا تأكيد
للمرق بين تثنية المبني والمعرب الحاصل

ومن حذف نون المثني على لغة بنى الحارث
ابن كعب وبعض بنى ربيعة قول الأخطل أيضا

هما اللتا !و ولدت تميم
لقليل فخرهم صميم

(١) ابن عقيل بحاشية الخضرى ٢ / ٢

(٢) التوبة ٦٩

(٣) الزمر ٣٣

(٤) القرطبي ٢١٢/١ ، وضرائر الشعر للقرطبي ١٥٨ / ١٠ ، وتاج العروس ٣٢٥/١٠ وما بعدها
والخزانة ٥٠٧/٢ ، والذير ٢٢/١ وما بعدها والخصائص ٤٣٠ / ٢ ، وابن يعيش ١٥٤ / ٣ وما بعدها
الأمالي الشجرية ٣٠٦ / ٢ : ٣٠٨ ، وشرح بانت سعاد لابن هشام / ٨٦ ، والصحاح (التى والذى)
والخزانة ٣٩/٣

نحذف الألف والياء ، وإلى التشديد للعوض
أشار ابن مالك بقوله :

• والنون إن تشدد فلا ملامه •

والنون من ذين وتين شديدا

أيضا وتعويض بذلك قصدا

ولا يختص ذلك التشديد بحالة الرفع
عند الكوفيين ، بل يكون فيها وفي حالتى
النصب والبحر خلافا للبصريين في زعمهم
أن التشديد يختص بحالة الرفع ، حيث
قرئ به في السبع قوله « ربنا أرنا اللذين » -
« إحدى ابنتى هاتين » وذلك بنصب (اللذين)
وجر (هاتين) كما قرئ في حال الرفع به
قوله : « واللذان يأتياها منكم - فذانك برهانان »
... وتشديد النون حال الرفع قراءة ابن
كثير وهي لغة قریش (١) .

حركة النون :

حركة نون المثني الكسر ؛ لأنها في الأصل
تنوين ساكن ، والأصل في تحريك الساكن
إذا اضطر إليه أن يكسر قاله الرضى ،
وإنما حركت خوفاً التقاء الساكنين ،

وكانت كسرة لأنها الأصل في التختص من
الساكنين ، ولخفة المثني (٢) . وربما ضمت
بعد هذه الألف نحو قوله :

يا أبى أرقى القيدان

فالنوم لا تألفه العينان

بضم النون مثني (عين) التي هي الباصرة ،
والقيدان بكسر القاف ثنية (قيد) وهو
البرغوث ، وقيل جمع (قيد) وهو
الزنبور (٣) .

وعلى القول بالجمع فلا شاهد ، وحينئذ
تكون ضمة نون (العينان) لمشاكلة نون
الجمع .

وحكى الشيباني : هما خيلان يرفع النون ،
ومنه قول فاطمة الزهراء - رضى الله
عنها - يا حسنان ، يا حسينان يرفع النون
والتغليب (٤) .

هذا - وقد جاء فتحها لغة ، زعم الكسائي
أن فتح نون المثني مع الياء لغة لبني زياد بن
فقمعس ، وكان لا أحد يزيد عليهم فصاحة .

(١) انظر التصريح ١/ ١٣٢ : والأشمونى ١/ ١٤٧ - ١٤٨ ، كتاب ليس في كلام العرب / ٣٣٦
والأما الشجرية ٢/ ٣٠٦ . والصحاح للجوهري (لى - لذى)

(٢) انظر شرح المختصر ١/ ١٩٢

(٣) عيادة على الشذور ١/ ٦٩

(٤) الامر ١/ ٢٢ ، الشايج ٩/ ١٧٧ ، والخزانة ٣/ ٣٣٧ ، ٣٣٨

وقال الفراء : هي لغة لبعض بني أسد
أنشدني بعضهم .

على أحوذيين استقلت عشية

فما هي إلا لحظة وتغيب

وشاهد فتحها مع الألف قول الشاعر :

أعرف منها الحيد والعينانا

ومتهجرين أشبها طبياننا^(١)

وذلك بفتح النون لغة بني أسد في الأحوال
الثلاث كما ذكره في الدرر ، ولزوم المثني
الألف على لغة بني الحارث بن كعب .

الغرض من ألف المثني وبيانه :

زادت العرب على المفرد عند إرادة
تشبيه ألفا حال الرفع ، وبقاء حال النصب والبحر
عوضاً عن العاطف والمعطوف فنحو الزيدان
الألف فيه عوض عن حرف العطف والمعطوف
في أصله المرفوض وهو : زيد وزيد

وكذلك الباء حال الرفع^(٢) . كما أن
دخول ال على المثني عوض عن سلب العلمية
من مفردة ؛ إذ العلم لا يثنى إلا إذا سلب

علميته فيصير ذكره ثم يثنى ، وبعد التثنية
تدخل (ال) عوضاً عنها .

الفرق بين نون المثني ونون الجمع والتثنية :

يقول ابن الشجري : إن النون التي
تزد في التثنية والجمع - وإن كانت توافق
التثنية في أنها تحذف في الإضافة ، فإنها
تخالفه بثبوتها في مواضع لا يثبت فيها التثنية ،
فمن ذلك ثبوتها مع الألف واللام في نحو :
الزيدان والزيدون وفي النداء في قولهم :
يازيدان : ويازيدون ، وفي باب التثنية
(لا التافية للجنس) في نحو لا زبدين عندي ،
ولا زبدين . وإذا كانت النون مخالفة للتثنية
في هذه الأماكن فليس بمستنكر أن يجوز
ثباتها مع الضمير في نحو هذان مكرماك ،
وهؤلاء مكرموك . إلخ وإن لم يجز ثبات
التثنية^(٣) .

مذاهب العرب في إعراب المثني :

تعددت مذاهب العرب في إعراب المثني
إلى اللغات التالية :

الأولى : إعرابه بالحروف ، بالألف
رفعا ، والياء نصبا وجرا نحو قوله تعالى :
« قال رجالان من الذين يخافون أنعم الله عليهم »^(٤)
، وقال : « واضرب لهم مثلا رجلين... »^(٥) ،

(١) الدرر ٢١/١ ، المساعد على تسهيل الفوائد ٣٩/١ . والخضري على ابن عقيل ٤٥-٤٦ .

(٢) انظر شرح المقاصد ١٨٣/١

(٣) الأمل في الشجرية ١٩٧/١ - ١٩٨

(٤) المائدة ٢٣

(٥) الكهف ٣٢

وقولنا : سلمت على الرجلين ، فانظر كيف
رفع في الآية الأولى بالألف ، وفي الثانية
نصب وعلامته الياء ، وفي المثال جر والياء
دليل عليه .

فهذه اللغة أشهر لغات المثني وأعلامها ،
وأكثرها دورانا على السنة الفصحاء ،
ذلك لأن تغير الإعراب يستلزم تغير
المعاني ، ويرفع اللبس بينها ، حيث تدل
الألف في المثني على أحد أحواله الإعرابية
وهو الرفع والرفع في اللغة علم الإسناد ،
وتدل الياء حال النصب على الفضلة والياء
حال الجر على معنى الإضافة ، وعلى هذه
اللغة لا يحتاج في إبراز المعاني إلى كثير من
القرائن التي يستعان بها في رفع اللبس في
الكلام وإيضاح معانيه ، وعليه تكون
الألف قامت مقام الضمة في الرفع والياء
مقام الكسرة في الجر ثم حمل النصب عليه^(١).
الثانية : إلزامه الألف في جميع أحواله ،
وحينئذ يعرب إعراب المقصور بالحركات

المقدرة على الألف في جميع أحواله ، وهذه
اللغة عزاه الإمام الكسائي إلى بني الحرث
ابن كعب وزبيد ونختم وهمدان ، ونسبها أبو
الخطاب عبد الحميد ابن عبد الحميد الأنخفش
الأكبر إلى كنانة . ونسبها بعضهم إلى بني
العنبر وبكر بن وائل ، وبني الهجيم وبطون
من ربيعة . وزاد السيوطي قبيلتي : مزادة
وعذرة ، فهذه الأحياء من العرب قد عزي
إليها هذه اللغة الخفيفة اللطيفة ، ورواها
عنهم أئمة اللغة ، ومع ذلك أنكرها أبو
العباس المبرد ، لكن إنكاره ليس بشيء ،
حيث رواها الثقات مثل أبي زيد الأنصاري ،
وأبي الخطاب الأنخفش الأكبر ، والكسائي^(٢)
ورواية الجمع أكد من رواية الآحاد ،
ومن حفظ على من لم يحفظ ، ومن أثبت
يقدم على النافي .

(١) انظر شرح المتنص ١ / ١٨٥ وما بعدها ، وبدائع الفوائد لابن قيم الحوزية ١ / ١١١ ،
١١٢ .

(٢) انظر في ذلك المصادر الآتية : شواهد العيني على الخزانة ١ / ١٣٨ ، الخزانة ٣ / ٣٣٦ ، ٣٣٧
النوادر لأبي زيد ٥٨ ، ١٦٤ ، شرح كافية ابن الحاجب للجاربردي بحاشية ابن جماعة ٢٧٧ ، وشرحها
للرضي ٣٢ / ١ ، وشواهد الشافية - ٣٥٥ / ٣٥٦ ، المغني ١ / ٣٧ ، الجمع للسيوطي ١ / ٤٠ ، التصريح
بحاشية يس ١ / ٦٥ ، ٦٧ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ٣٩٩ / ٢ ، شرح انفصل لابن يعيش ٣ / ١٢٨ ، حاشية الحضري
١ / ٤١ ، شذور الذهب بحاشية عبادة ١ / ٧٢ وما بعدها . الدرر ١ / ١٤ ، الضرائر للقيرواني ٢٣٧ ،
القرطبي ١١ / ٢١٦ - ٢١٨ ، ١١٨ / ١٦ ، البحر ٦ / ٢٥٥ ، مشكل إعراب القرآن لمكي ٢ / ٤٥٨ ، المصباح
(إلى وعلى ولدي) ، البهجة ٢ / ٣٢٣ ، المصباح (هـ) ، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٥٠

وشواهد هذه اللغة كثيرة في كلامهم
شعرا ونثرا ؛ قال أبو النجم العجلي أوروثة :

إن أباه وأبا أباه

قد بلغا في المجد غايتها

فقال : غايتها ، وهو مفعول (بلغا)
وقياسة على اللغة المشهورة غايتها .
فقلب الياء ألفا بفتح ما قبلها .

وقال الآخر :

تزود منا بن أذناه طعنة

دعته إلى هابي التراب عقيم

أراد : أذنيه ، فقلب الياء ألفا^(١)

وقال آخر :

أفد حبيبا منذ واجهته

عن وجه بدر التم أغنانى

في خده خالان لولا هما

ماكنت مفتونا بعمان

أراد : عمين ، فالزوم المثني الألف على

هذه اللغة^(٢) .

وأنشد رجل من الأسد عن بني الحرث :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى

مساغا لناباه الشجاع لصمما

وحكى عنهم أيضا : هذا خط يدا أخي

بعينه . قال الفراء : وذلك - وإن كان

قليلًا - أقيس ؛ لأن العرب قالوا : مسلمون ،

فجعلوا الواو تابعة للضمة ؛ لأن الواو

لا تعرب ، ثم قالوا : رأيت المسلمين ،

فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم ، فلما رأوا

أن الياء من الاثنين لا يمكنهم كسر ما قبلها

وثبت مفتوحا ، تركوا الألف تتبعه ،

فقالوا : رجلان في كل حال^(٣) .

وشواهدا من الحديث قول النبي -

صلى الله عليه وسلم - « لا وتران في ليلة »

وقياسه لاوترين في اللغة الحمهورية ،

وقوله : « إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان

... » الحديث : أى وهاتين عطفًا على

إياكم كما تقول : إياك والشر^(٤) .

(١) انظر الأشموني بتحقيق محي الدين عبد الحميد ٣٦/١ ، والدرر ١٤/١ ، إعراب الحديث

للعكبري / ١٢٥ ، وتأويل مشكل القرآن / ٥٠

(٢) يس على التصريح ٦٧/١ .

(٣) معاني القرآن للفراء ١٤٨/٢

(٤) إعراب الحديث للعكبري / ١٢٤ - ١٢٥ ، وكتاب ليس في كلام العرب / ٣٣٣ وما بعدها

وحاشية يس على التصريح ٦٧/١

وقال الخليل : مررت بأخوأك : وضربت أخوأك : بإلزام المثني الألف (١).

ومن القرآن قوله : إن هذان لساحران (٢) قرأ أبو عمرو « إن هذين » بتشديد النون من (إن) وبالياء في (هذين) لأن تثنية المنصوب والمجرور بالياء في لغة فصحاء العرب

وقرأ الباقون « إن هذان لساحران » بتشديد نون (إن) وبالألف في (هذان) وحجتهم أنها مكتوبة هكذا في (الإمام) مصحف عثمان : وهذا الحرف في كتاب الله مشكل على أهل هذه اللغة ، وقد كثر اختلافهم في تفسيره إلى الآن :

(أ) حكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب وهو رأس رؤساء الرواة أنها لغة كنانة : يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، يقولون : أتاني الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان .

(ب) قال الزجاج : وقال النحويون التمداء : هاهنا هاء مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ، كما تقول : إنه زيد منطلق ، ثم تقول : إن زيد منطلق .

(ج) وقال المبرد : أحسن ما قيل في هذا أن يجعل (إن) بمعنى نعم : والمعنى : (نعم هذان لساحران) فيكون ابتداء وخبراً . واستعمال (إن) بمعنى (نعم) لغة لكانانة ومن جاورهم في مكة ونواحيها . وعليها جاء قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

بكر العواذل في الصبو
ح يلمه - نني وألومهمه
ويقنن شيب قد علا
لك وقد كبرت فقلت إنه

أي نعم .

فإن قيل : اللام لا تدخل بين المبتدأ وخبره : لا يقال : زيد لقائم فما وجه : (هذان لساحران) .

الجواب في ذلك : أن من العرب من يدخل لام التوكيد في خبر المبتدأ : فيقول : زيد لأخوك . قال الشاعر :

خالي لأنت ومن جرير خاله
يمل العلاء ويكرم الأخوالا

(١) المنصف ٢٠٣/١ : والخصائص ١٤/٢

(٢) طه / ٦٣

(د) وقال النحاة في (هذان) إنهم زادوا فيها النون في التثنية . وتركوها على حالها في الرفع والنصب والجر . كما فعلوا في (الذي) فقاموا : (الذين) في الرفع والنصب والجر . يريد : أن الألف الموجودة في المثني هي ألف البناء في المفرد .

وسمع أبو زيد أعرابيا فصيحيا من بلخارث يقول : ضربت يداه ، ووضعته علاه يريد : يديه . وعليه ، ومثله أخذت الدرهمان : واشتريت ثوبان ، والسلام عليكم وقال رؤبة أو بعض اليمن :

طاروا عليهم فشلى علاها

وأشدو بمثنى حقتب حقواها

ناجية وناجيا أباهـ (١)

من هنا يجادو جليا أن التقبائل التي تلزم المثني الألف يتقاربون كل ياء مفتوح ما قبلها في اسم كان أو حرف نحو : إلاك وعلاك في إليك وعليك ، أو ظرف نحو : لداك في لديدك (٢) .

وقد بين ابن قيم الجوزية وجه إلزام المثني الألف على هذه اللغة فقال : فحق علامة في التثنية أن يكون على حدها في علامة الإضمار (يعني ضمير المثني في الفعل) - وأن تكون أنما في كل الأحوال ، وكذلك فعلت طوائف من العرب وهم : خثعم وطيء وبنو الحارث ابن كعب : وعليه جاءت في قول محقق النحاة «إن هذان لساحران» وأما أكثر العرب فإنهم كرهوا أن يجعلوه كالاسم المثنى والمتصور من حيث كان الإعراب قد ثبت في الواحد ، والتثنية طارئة على الأفراد وكرهوا زوال الألف لاستحقاق التثنية لها فتمسكوا بالأمرين فجاءوا بياء علامة الجر : وشركوا النصب معه . . . فكان الرفع أجدر بالألف لاسميا وهي في الأصل علامة إضمار الفاعل : وهي في الأسماء علامة رفع الفاعل أو ما قام مقامه (٣) .

اللغة الثالثة : إعرابه بالحركات على النون إعراب ما لا يتصرف ، فيرفع بالضمة كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : «كنا عند النبي ﷺ في ليلة

(١) انظر حجة القراءات لآبي زرعة / ٤٥٤ وما بعدها . وحجة القراءات لابن خالوية / ٢٤٢ وما بعدها ، وكتاب ليس في كلام العرب لابن خالوية / ٣٣٣ وما بعدها . والمقرب لابن عصفور / ٤٦ / ٢ . وما بعدها ، الخصائص / ٣ / ٦٥ ، ٧٣ ، معاني القرآن للأخفش / ١١٣ . والنوادر / ٥٨ ، ١٦٤ وابن عيش / ٣ / ٣٤ ، ١٢٩ . والخزانة / ٣ / ١٩٩ ، شذور الذهب بتحقيق محي الدين عبد الحميد / ٤٦ - ٤٧ والشاح / ٩ / ١٢٨

(٢) انظر المصباح وغيره من معاجم اللغة في (إلى - على - لدى) وشرح الكافية / ١٢ / ٢ .

(٣) انظر بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية / ٨٢ / ١ : ١١١ - ١١٢

ظلماء حنّيس ، وعنده الحسن والحسين ، فسمع
تَوَكَّلُوا فاطمة - رضى الله عنها - وهى
تناديهما : يا حسنان - يا حسينان (برفعهما
بالضمة) فقال : الحقاً بأكما ، . . . قال
الأزهري : هكذا روى سلامة عن القراء
بضم النون فيهما جميعاً ، كأنه جعل الاسمين
اسماً واحداً ، فأعطاهما حظ الاسم الواحد
من الإعراب^(١) ومن ذلك قولهم : الحكمان^٢
والعلمان^٣ ، أعربوا النون كأنه اسم لشيء
واحد تشبيهاً للتثنية بباب (فعلان) فقالوا
اشترك باب فعلان كغضبان وسكران ، وباب
التثنية . . .^(٢)

وقال أبو عمر الزاهد :

يا أبتا أرقنى القلدان^٤

قالنوم لا تطعمه العينان^٥

قال ابن جني : هو من الشذوذ بحيث
لا يقاس عليه ، وقال الشيباني : هذه لغة
وحكى : هما خليلان^٦ ، وقيد بعضهم إعرابه
بالحركات الظاهرة على النون بكون النون
بعد الألف خاصة .

وشاهد فتح النون حال النصب قول رجل
من ضية

أعرف منها الجيد والعينانا

ومنمخران أشبها طيبانا

هذا - وقد قدمت أن فتح نون المثني
في كل حال لغة لبني أسد ، وعلى لغتهم
هذى جاء قول حميد بن ثور الهلالي الصحابي :

على أحوذيين استقلت عشية

فما هي إلا لمحمة وتغيب

بفتح النون مع الياء ، وفي حاشية عبادة
على الشذور : في المثني وما ألحق به لغة
تعربه اعراب المقصور^(٣)

ما يحمل على المثني في إعرابه :

يحمل على المثني في إعرابه كل ما لم
يستوف الشروط الثمانية ، وقد جاءت
صورة على التثنية ويتلخص في الأنواع
التالية :

الأول : اثنان واثنان في لغة أهل الحجاز
وثنتان في لغة التميميين ، مطلقاً سواء أفردا

(١) التاج ١٧٧/٩ ، والتصريح بحاشية يس ٦٧/١ ، وعبادة على الشذور ٧٧/١

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ٢٤/١ ، وجمع الذمائع للسيوطي ٥٠/١

(٣) الدرر ٢١/١ ، الجمع ٤٩/١ ، ٥٠ التوادر لأبي زيد ١٥ ، ابن عقيل ٦٩/١ - ٧١ شرح
الناكبي بحاشية يس ٧٦ - ٧٧ ، التصريح ٦٨/١ ، اللغة والنحو لحسن عون ٨٢ ، حاشية
الخضري ٤١/١ ، كتاب ليس في كلام العرب لابن خالوية ٣٣٣ وما بعدها : انقرب لابن عصفور
٤٦/٢ - ٤٧

آتت أكلها^(٥) . . » (فكلتا) مبتدأ مرفوع بالضممة المقدرة على الألف : ويقال : جاءني كلا الطالبين ، وكلتا الطالبتين ورأيت كلا الطالبين ، وكلتا الطالبتين ، ومررت بكلا الطالبين ، وكلتا الطالبتين والتفرقة بين الإضافة إلى المضممر بإعرابهما بالحروف والإضافة إلى الظاهر بإعرابهما بإعراب المقصور هي اللغة المشهورة ، وهناك لغتان أخريان :

الأولى : إعرابهما بالحركات المقدرة مطلقا أضيفتا إلى مضممر أو ظاهر في لغة بلحارث حكاهما الفراء

يقال : رأيت الرجلين كلاهما ، ورأيت كلا الرجلين سواء ، ومررت بالرجلين كلاهما .

الثانية : إعرابهما بالحروف مطلقا أضيفتا إلى مضممر أو ظاهر وهي لغة كنانة ، يقال جاء الرجلان كلاهما ، وجاء كلا الرجلين فكلتا في المثالين مرفوع بالألف ، ويقال رأيت كليهما ، وكلتي الرجلين ، ومررت بكليهما وكلتي الرجلين^(٦) .

نحو : هذان اثنان ، وهاتان اثنتان ، أو ركبا مع العشرة نحو قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا »^(١) برفع اثنا بالألف خبرا لأن ، وقوله « فأنشجرت منه اثنتا عشرة عينا »^(٢) برفع (اثنتا) على الفاعلية بالألف ، أو أضيفا إلى ظاهر أو مضممر وليس ضمير تثنية ثلثا يكون من إضافة أنشئ إلى نفسه ، يقال : هما اثنا محمد ، واثناهم^(٣) .

الثاني : كلا وكلتا ، بشرط أن يكونا مضافين إلى مضممر عند جمهور النحاة نحو قوله تعالى : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما »^(٤) برفع كلا بالألف عطفًا على (أحدهما) الواقع فاعل (يبلغن) . . . ويقال : جاء الرجلان كلاهما والمرأتان كلتاهما ورأيت الرجلين كليهما والمرأتين كلتيهما . الخ .

فإذا أضيفا إلى الظاهر لزمهما الألف في اللغة العربية في الأحوال الثلاثة رفعا ونصبًا وجرا ، نحو قوله تعالى : « كلتا الجنتين

(١) التوبة ٣٦

(٢) البقرة ٦٠

(٣) ينظر المخصص لابن سيده ١٤ / ٩٤ ، ٩٥

(٤) الإسراء ٢٣

(٥) الكهف ٣٣

(٦) انظر التصريح بحاشية يس ١ / ٦٨ ، والشذور بحاشية عبادة ١ / ٧٦ - ٧٨ ، والمساعد على

تسهيل الفوائد ١ / ٤٢ ، ومعاني القرآن للفراء ٢ / ١٨٤

وكلا وكلتا : لفظيهما مفرد : ومعناهما
 مثنى عند البصريين . ومن هنا يراعى لفظيهما
 فيعود الضمير عليهما مفردا كما في قوله
 تعالى : « كاتبا الجنة آتت أكلها » فقال آتت
 مراعاة للفظ ، ولم يقل آتتا . وكذلك
 يخبر عنهما بالمفرد نحو كلاهما قائم ، وكلاهما
 قائمة ويراعى المعنى فيعود الضمير مثنى^١
 وهو قائل : وقد اجتمعت اللغتان في قوله
 الشاعر :

كلاهما حين جد الحرى بينهما

قد أقلعا : وكلا أنفيهما راي

قال ابن هشام في نحو : كلاهما قائم
 أو كلاهما قائمان : إن قدر كلاهما توكيدا
 قيل : قائمان : لأنه خبر عن زيد وعمرو .
 وإن قدر مبتدأ فالوجهان والاختار الإفراد .
 وعلى هذا . فإن قيل : إن زيد وعمرا
 فإن قيل كليهما ، قيل قائمان ، أو كلاهما ،
 فالوجهان . ويتعين مراعاة اللفظ في قول
 الشاعر :

كلانا غنى عن أخيه حياته

ونحن إذا متنا أشد تغانيا^(١)

حيث راعى اللفظ فأخبر بالمفرد (غنى)
 عن كلا وهو مبتدأ .

* * *

اعراب ما سمي به من المثنى :

ما سمي به من المثنى ورد في إعرابه لغتان :
 الأولى : إعرابه إعراب المثنى قبل
 التسمية فيرفع بالألف وينصب ويجر بالياء
 يقال فمن سمي بالزيدان : جاء الزيدان
 ورأيت الزيدين ومررت بالزيدين .

الثانية : إعرابه إعراب مالا ينصرف
 فيرفع بالضمة وينصب ويجر بالفتحة فيقال
 جاء الزيدان يرفع النون ، ورأيت الزيدان
 ومررت بالزيدان بفتح النون فيهما مالم
 يضاف ، أو يقترن بالألف واللام . وذلك
 إجراء له مجرى (سلمان) فيمنع من الصرف
 للعلمية وزيادة الألف والنون ، فإذا أضيف
 أو دخلت عليه الـ جر بالكسرة نحو قوله :

* ألا ياديبار الحى بالسبعان^(٢) *

(١) المنفى ٢٠٣/١ - ٢٠٤ بتحقيق محي الدين عبد الحميد ، الخصائص ٣/٣٣٥ وحاشية الخضرى
 ٤٠/١ - ٤١ ، والتعريض بحاشية يس ٤٣/٢
 (٢) انظر التعريض بحاشية يس ٦٧/١ - ٦٨ ، وحاشية اسماعيل الخامدي على الكفراوى / ٢٥

مذاهب العرب في عود الضمير على المثنى :

لقد اختلفت مذاهب العرب في عود الضمير على المثنى إلى طرائق أربع :

الأولى : عود الضمير عليهما مثنى نحو قوله تعالى : « قال رجالان من الذين يخافون أنعم الله عليهما »^(١) فالضمير في عليهما راجع إلى (رجالان) وهذا كثير في اللغة .

الثانية عود الضمير على الأهم فقط نحو قوله تعالى : « وإذا رآوا تجارة أو هذوا انفصوا إليها »^(٢) فالضمير في (إليها) راجع إلى التجارة لأنها كانت أحب شيء إليهم . وعليه فالضمير راجع إلى المتقدم من المتعاطفين .

الثالثة عودة على الأقرب نحو قوله تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين »^(٣) فالضمير في (إنها) عائد على الصلاة وهي أقرب مذكور . وقوله « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً »^(٤) ولم يقل بها .

الرابعة : عوده على الأشرف قرب أم بعد نحو

قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه »^(٥) فالهاء في (يرضوه) عائد على الله جل ثناؤه^(٦) .

مذاهب العرب في نشية آحاد ما في الجسد مضافا إلى مثنى :

إذا أريد تشية أحد أعضاء الجسم المفردة مثل الوجه والبطن والظهير والرأس . . الحج ثم أضيف إلى مثنى تشية اللغات التالية :

الأولى : اللغة العانية وهي لغة القرآن الكريم جمعه مع إرادة التشية نحو قوله تعالى : « فقد صغت قلوبكما »^(٧) وكان من حق العربية أن يقول : قلبها كما . إلا أنه عدل عنه إلى الجمع لوجود ما يدل على المراد وهو إضافته إلى المثنى .

الثانية : من العرب من يعطى هذا حقه من التشية فيقولون : ضربت رأسيهما وشققت بطنيهما . . وقد ورد على هـ أنه اللغة قول الفرزدق :

« بما في فؤادينا من الشوق والهمى »

(١) المائدة ٢٣

(٢) الجمعة ١١

(٣) البقرة ٤٥

(٤) النساء ١١٢

(٥) التوبة ٦٢

(٦) انظر كتاب ليس في كلام العرب لابن خالويه / ٣٤٣ . معاني القرآن للفراء ١٥٧/٣

(٧) المحرم ٤

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ

كنوافذ العبط التي لا ترفع

والوجه في هذا ونحوه هو الجمع كما جاء
في التنزيل نحو قوله تعالى « قالوا ربنا ظلمنا
أنفسنا » (١) ولم يقل (نفسيما) .

هذا - وقد جاءت اللغتان : الجمع
والثنائية في قول هميان بن قحافة :

ومهممين قـمـذفين مرتين

ظهرهما مثل ظهور الترسين

فقد ثنى في (ظهراهما) وجمع في (ظهور
الترسين) .

الثالثة : إفراده مع إرادة الثنائية ، وفي
هذه الحالة ينوب المفرد عن المثنى ، كما ناب
الجمع في اللغة الأولى عنه ، وذلك لأن إضافة
العضوين إلى اثنين تنبئ عن المراد كقولك :
ضربت رأس الرجلين وشققت بطن الحملين ،
ولا يكادون يستعملون هذه اللغة إلا في
الشعر فهي لغة الشعراء مثل قوله :

كأنه وجه تركيين قد غضبا

مستهدفين لطنع غير تذييب

وعلى هذه اللغة يكون المضاف قد
اكتسب الثنائية من المضاف إليه .

ومنه قولهم : سمع صوت إنسانين
وأكلت رأس شاتين ، قال ابن مالك :
وجمعه أجود (يعني جمع المضاف كما في
اللغة الأولى) ويجوز الثنائية (كما في اللغة
الثانية) وكانت الثنائية أقل من الإفراد والجمع ؛
لأن الثنائية مع أصالتها قليلة الاستعمال (٢) .

مذاهب العرب في التعبير عن العضوين
المزدوجين في الجسد :

للعرب في استعمال المثنى الذي يطلق على
المماثلين من الأعضاء لغتان :

الأولى : التعبير عن العضوين بالثنائية نحو العينان
تنظران ، والأذنان تسمعان ، واليدين
تبطشان ، والرجلان تتحركان . الخ
قال المتنبي :

حشاي على جمر ذكي من الهوى

وعيناي في روض من الحسن توتع

(١) الأعراف ٢٣

(٢) انظر الأمل الشجرية ١١/١ وما بعدها ، وإعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ٧٨٧/٣ وما
بعدها ، وشرح شواهد الشافعية ٩٤ ، والدور ١/٢٦ - ٢٧ والبحر ٨/٢٩٠ - ٢٩١ ، وشواهد التوضيح
لابن مالك ٦٠ وما بعدها .

الثانية : التعبير عن العضوين بالمفرد منهما
فيقال : عيني رأته والمقصود عيناى ، ومنه
قول الشاعر :

أيهما المبتغى فناء قریش

بيد الله عمرها والفناء

قال النمر : والواحد من هذا يكفى من
الاثنين ، وكذلك العينان والرجلان واليدان
تكتفى إحداهما من الأخرى ، لأن معنهما واحد
وللعرب فى الإخبار عن المثنى من هذا النوع
أربع لغات .

الأولى : استعمال الحقيقة فى الخبر
فيتطابق المبتدأ والخبر نحو : عيناى رأته
وأذناى سمعته ، وقدمائى سمعتهما .

الثانية : أن تثنى العضو وتنفرد الخبر ؛
لأن حكم العينين أو الأذنين أو القدمين
حكم واحدة لا اشتراكهما فى الفعل فتقول :
أذناى سمعته ، وعيناى رأته وقدمائى
سمعت فيه كما قال المتنبي :

... وعيناى فى روض من الحسن ترتع

وقول سلمى بن ربيعة السيلدي :

فكأن فى العينين حب قرنفل

أو سنبلا كحلت به فأنهلت

ومثله قول امرئ القيس :

لمن زحرفة زل

يهما العينان تنهل

وقال الفرزدق :

ولو بخلت يداى بها وضنت

لكان على للقدر الخيار

الثالثة : أن تعبر عن العضوين بواحد
وتنفرد الخبر حملا على اللفظ ، تقول :
عيني رأته ، وأذنى سمعته ، وقدمى سمعت
فيه ؛ وإنما استعملوا الإفراد فى هذا تخفيفا ،
وللعلم بما يريدون ، فاللفظ على الإفراد ،
والمعنى على التثنية ، ومن ذلك أيضا قول
أبي ذؤيب الهذلي .

فالعسين بعدهم كأن حداقها

سُلِّمت بشوك فهى عور تدمع

أراد : العينين جميعا ، واستغنى عن
تثنيتهما لتلازمهما ، تقول : كحلت عيني ،
وعين مكحولة ، تريد : هما معا ، ومثل
العينين المنخران والرجلان والخفان والنعلان .

الرابعة : أن تعبر عن العضوين بواحد
وتثنى الخبر حملا على المعنى كقولك :
أذنى سمعته ، وعيني رأته ، وهذا قليل ،
ومنه قول امرئ القيس :

وعيني لها حذرة بكرة

شسقت مآقيهما من أخسر

وقول الآخر :

ومنه قولهم : يا غلام اضرب يا زبانا .
ويازيد اسفعا بيده ، وياحرسى اضربا
عنقه (٣).

إذا ذكرت عيني الزمان الذي مضى
بصحراء فلج ظلتنا تكفان (١)

دلالات المثني في استعمالاته :

تتنوع دلالات المثني في العربية بتنوع
الأساليب وإيماءات سياقات الكلام ،
ويمكن لنا لميجازها في الآتي :

(أ) الدلالة على التثنية حقيقة ، وهذا
النوع جسد كثير ومعرفته تغنى
عن القول فيه .

(ب) الدلالة على الإفراد ، وذلك كأن
يذكر في الكلام علم التثنية ويراد به
خلافها كتصديق المنفرد في قوله تعالى :
«ومن آياته خلق السموات والأرض
وما بث فيهما من دابة» (الشورى ٢٩)

أراد : وما بث في الأرض دون السماء ،
قال الفراء : بذلك جاء التفسير ومثله مما
ثنى ومعناه واحد قوله تعالى «يخرج منهما اللؤلؤ
 والمرجان» (الرحمن ٢٢) وإنما يخرج من
الملح دون العذب (٢).

فقد خاطب المفرد باللفظ الاثنين ، ويحتمل
عندي أن تكون الألف في كل من (اضربا -
اسفعا) عوضاً من نون التوكيد الخفيفة
على أن يكون وصل بذية الوقف . ومنه
قوله تعالى «ألقينا في جهنم كل كفار عنيد»
ق- ٢٤ . قال الخليل والأنخض هذا كلام
العرب الفصيح أن يخاطب الواحد باللفظ
الاثنين : فتقول : ويلك ارحلها وأزجرها
وخذها وأطعمها ، قال الفراء : تقول للواحد
قوما عنا . وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل
في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان فجري
كلام الرجل على صاحبيه ، ومنه قولهم
للا واحد في الشعر : خليلي ، ثم يقول :
يا صاح ، قال امرؤ القيس :

خليلي مراي على أم جندب
نُقَضَّسَ لبانات الفؤاد المعذب
وقال أيضا :

قفانيلك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحوول

(١) انظر في ذلك الأمل في الشجيرة ١ / ١٢٠ وما بعدها : ٣٠٩ ، ومعاني القرآن للأزهار ٢ / ١٢٤-
والنور المشتطي ١ / ٢٤ وما بعدها .

(٢) معاني القرآن للأزهار ٣ / ٢٤

(٣) كتاب ليس في كلام العرب .

وقال آخر :

يريد : مهمنا وسمتنا واحدا . وأشدنى آخر :

فلان تزجرائي يا بن عفان أنزجر

يسعى بكيداء وخسامين

وإن تدعاني أحرم عرضا ممنعا

قد جعل الأرطاة جنتين

أراد : جعل الأرطاة جنة .

قال القراء : وذلك أن الشعر له قواف
تقيمها الزيادة والنقصان فيحتمل مالا يحتمله
الكلام^(٢) .

قال ابن قتيبة : ومنه أن يجتمع شيطان
ولأحدهما فعل ، فيجعل الفعل هما : كقوله
سبحانه : « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما »^(٣)
روى في التفسير أن الناسي كان يوشع بن
نون . وبذلك قوله لموسى عليه السلام : « لنسيت
الحوت » . ومنه قوله « وأنؤمن لبشرين
مثلنا » المؤمنون ٤٧ . فقد ثنى مع إرادة
الإفراد .

وقوله « مرج البحرين يلتقيان بينهما
برزخ لا بغيان » ثم قال « يخرج منهما اللؤلؤ
 والمرجان »^(٤) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان
من الماء الملح لا من العذب^(٥) .

وقيل : جاء كذلك : لأن القرين يقع
للجماعة والاثني ، وقال المازني : « ألقيا »
يدل على ألقى ألقى ، وقال أبو البقاء بقول
المازني إلا أن الألف في (ألقيا) عوض
من تكرار الفعل عنده : ومثلهما المبرد
حيث قال : هي تشية على التوكيد : المعنى
ألقى ألقى : فناب (ألقيا) مناب التكرار^(١) .

ومنه أيضا قوله جل ثناؤه : « ومن خاف
مقام ربه جنتان » الرحمن ٤٦ فقال :
(جنتان) ولم يقل (جنة) فقد ثنى مع قصد
الإفساد وذلك لمشاكله رؤوس الآيات :

قال القراء : ذكر المفسرون : أنهما
بستانان من بساتين الجنة ، ثم قال : وقد
يكون في العربية جنة تشبهها العرب في
أشعارها أنشدني بعضهم :

ومهدنين فلفسين مرتين

قطعت به بالأم لا بالسنتين

(١) انظر القرطبي ١٧ / ١٦ ، والتبيان لأبي البقاء ١١٧٥ : ومشكل إعراب القرآن لمكي القيس

٦٨٤ . والبحر ٨ / ١١٦ . وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / ٢٩١

(٢) انظر معاني القرآن للقراء ٣ / ١١٨ ، ١٥٧ ، والكتاب ١ / ٢٤١ ، والخزانة ١ / ٣٧٦ وشرح

بإهداء الشافية / ٦٠ : ٩٤ : القرطبي ١٧ / ١٧٧ .

(٣) الكهف / ٦١

(٤) الرحمن ١٩ : ٢٠ : ٢٢

(٥) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - ٢٨٦ - ٢٨٨ ، والتاج (بشر) .

(ج) دلالة المثنى على الجمع :

كأن يكون اللفظ مثنى والمراد به جمع نحو قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين » (الملك ٤) فقد ذكر (كرتين) وأراد كرات ؛ بدليل قوله بعد « ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » وذلك أن إعياء البصر وخسوئه لا يتأتى من مرتين بل من مرات (١) .

ومنه قوله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الحجرات ٩) فانظر كيف عاد الضمير جمعا في (اقتتلوا) على (طائفتان) وذلك حملا على المعنى ، حيث تصلح الطائفة للمفرد والمثنى والجمع فمن مجئ الطائفة بمعنى المفرد قوله تعالى : « إن نعلم عن طائفة منكم نعتب طائفة » (التوبة ٦٦) قال قتادة : كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي ﷺ ويسير بجانبهم ؛ فسماه الله طائفة وهو واحد (٢) ومثال مجئ طائفة جمعا قوله : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » (آل عمران ٦٩) لهذا لما كانت بمعنى الجمع صلح عود الضمير جمعا في قوله : « وإن طائفتان

من المؤمنين اقتتلوا » ، ولما كانت بمعنى المفرد صلح عود الضمير مثنى على (طائفتان) في قوله (بينهما) ، وذلك حملا على اللفظ من هنا يظهر أن (طائفتين) مثنى يراد بهما الجمع مرة والثنية أخرى ، فيعود الضمير مراعاة للفظ مثنى ، وجمعا مراعاة للمعنى ومثل طائفتان (خصمان) في قوله « هذان خصمان اختصموا » (الحج ١٩) (خصمان) مثنى قصد به الجميع بدليل عود الضمير جمعا في قوله « اختصموا » وذلك لأن الخصم يصلح للمفرد فيقال : هذا خصمي ، وللمثنى فيقال : هما خصمي وللجمع نحو : هؤلاء خصمي مثل (هؤلاء ضيفي) ومنه قوله تعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » (ص ٢١) فأعاد الضمير على الخصم جمعا مما يؤكد صلاحيته للمفرد وغيره (٣)

ومنه قوله « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فلا تدعهم فريقيان يختصمون » (٤) ، المعنى يتضح مما سبق .

(١) انظر القرطبي ٢١٠/١٨ ، البحر ٢٩٩/٨ ، والتاج (مر) .

(٢) تأويل مشكل القرآن / ٢٨٣

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ٢١٩/٢ - ٢٢٠ ، والقرطبي ٢٦/١٨ ، والبحر ٣٦٠/٦ والأسنى الشجرية ٣١٢/١ ، والبيان لأبي البقاء المكي ٩٣٧ / ١١٧١

(٤) النمل / ٤٥

(د) دلالة على المبالغة :

الأصل أن يستعمل المثنى في مقام التثنية لا يزيد عليه ولا ينقص نحو : جاء الزيدان ورأيت الزيدتين ومررت بالزيدين وهكذا دواليك .

وقد يخرج عن حقيقته من خلال سياقات الكلام فيؤدى به غير ما يقتضيه ظاهر اللفظ من إفادته المبالغة والتعظيم .

وذلك نحو : لبيك وسعديك وحنانيك ودواليك ، وهذا ذيك وحجازيك وخياليك وحواليك .

يقول ابن سيده : يجوز في المصدر المثنى المحمول على الفعل المتروك (المحذوف) إظهاره إذا كانت الحال حال تعظيم في خطاب رئيس : وكان اللفظ ينبنى عن جنس الفعل . حمل المصدر على الفعل المتروك لإظهاره للمبالغة في التعظيم إلى أعلى منزلة على طريق المعنى النادر . فأجرى اللفظ على ما يقتضيه ذلك المعنى من ترك التصرف . والتثنية لتضعيف فعل التعظيم حالا بعد حال . كقولهم : لبيك وسعديك فنية مبالغة تعظيم مما عومل به مما يقتضى ذلك . .

ولما جازت التثنية للمبالغة ولم يجوز الجمع لأن التثنية أولى بالتفصيل شيئا بعد شيء من الجمع ، إذا كانت التثنية لا تكون إلا

على الواحد . والجمع قد يكون على غير الواحد . نحو نفر ورهط . فهذه تقتضى تضعيف المعنى كما قال سيديويه في (حنانيك) كأنه قال : تحننا بعد تحنن ، وحنانا بعد حنان . والتثنية أدل على هذا التفصيل من الجمع . . ، فكلما قل النظر في معنى التعظيم كان أشد مبالغة . لأنه إذا قل النظر قل من يستغنى عنه : أى من يحتاج إليه ولا يستغنى بغيره عنه فهو أجل في التعظيم مما ليس فوق تعظيمه تعظيم : وهذه الصفة لا تكون إلا لله تعالى . . . ولا تجوز هذه المبالغة إلا بالإضافة لأمرين :

أحدهما : طلب الأعراف في هذا المعنى النادر فيصير كالمثل .

والآخر : أن الإضافة إلى المعظم أخص بمعنى التعظيم من الانتمصال : فلها لم يجوز حنانيك ولبيك وسعديك وما جرى مجراها . إلا بالإضافة : وعلة الإضافة فيه كعلة لزوم الإضافة في (سبحان الله ومعاذ الله) . قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشرأهون من بعض

كأنه قال : تحننا بعد تحنن : ووضع حنانيك موضع تحنن : وتقول : سبحان الله وحنانيه كأنك قلت : ورحمته ، على المبالغة في طلب

الرحمة منه بعد الرحمة على ما تتمتضيه
التثنية وقل عبد بنى الحساس:

إذا شقَّ بردٌ شقَّ بالبرد مثله

دواليك حتى ليس للبرد لابس

فقال: دواليك، لأن المداولة على معنى المداومة
موضع مبالغة وتعتيم: كأنه قال: مداولتكَ
وجعل (دواليك) في موضعه وقال
آخر:

* ضرباً هذا ذاك وطعنًا وخضاً *

أى هذا بعد هذا ، فبالغ في الكثرة .. (١)
وبعد:

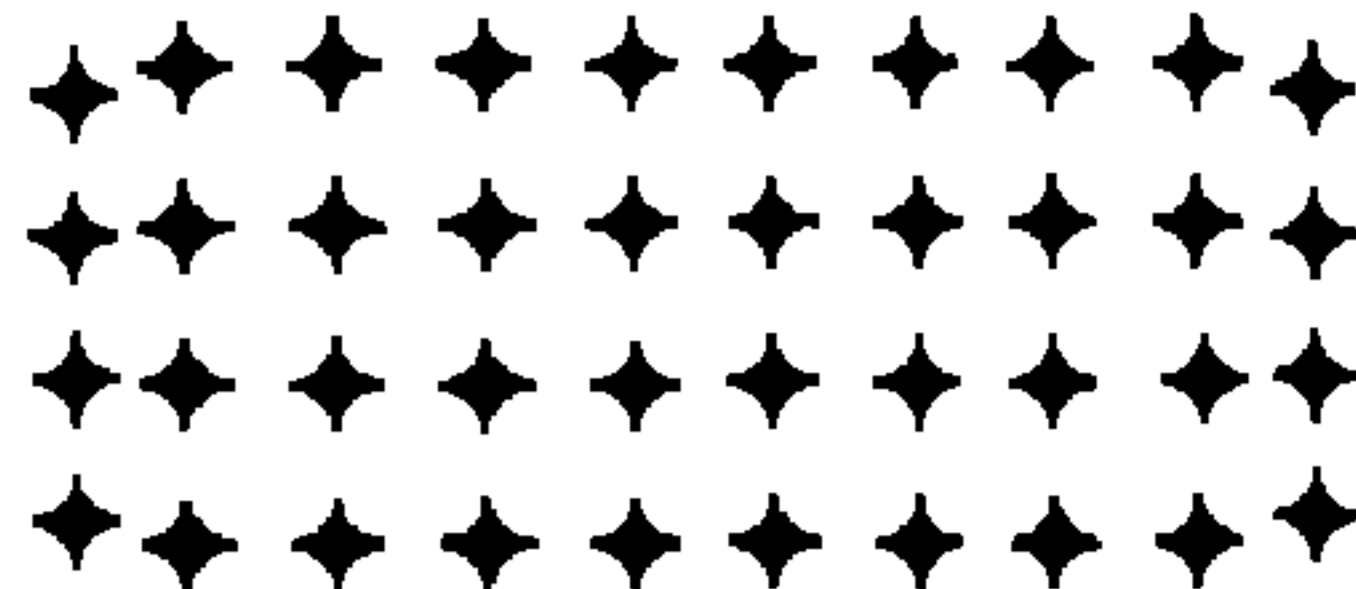
فهذه ظاهرة التثنية بكل ما يحيط بها
وهذا هو المنهج الوظيفي الذي أراه جديراً

بالتناول في مجال تعليم الناشئة ، وقد استوفيت
كثيراً من جوانبه ولا أدعى الإتيان عليها
كما قصدت فيه بيان ألوان التوسع في
الاستعمال العربي الذي هو بمنأى عن
قواعد النحويين التي لم يك للمجاز أو التوسع
بخصوع لها ، أو بعبارة أخرى لم يعد لها
سلطان عليه ، كما يتضح ذلك من هاته
الدراسة : ومهما يكن من عمل هذا فلن
أضرع به إلى إلهي صاحب العزة والجلال
أن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم ، كما أرجوه
في كل مسعى حسن الثواب وهو المرتجى
وعليه التكالان ، وصلى الله وسلم على البشير
النذير وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد الرحمن محمد اسماعيل

جامعة أم القرى

معهد اللغة العربية



(١) انظر المخصص ٢٣١/١٣ وما بعدها .

الفهرس

- تهيمه
- تعريف المثنى والغرض منه
- أقسامه
- شروطه
- ... ما يثنى
- ... لا يثنى
- ما يختلف في تشييته
- تقسيم المفرد بالنسبة للمثنى
- تقسيم المثنى بالنسبة للمفرد
- طرائق العرب في التثنية
- (أ) التثنية بالعطف وهي الأصل
- (ب) التثنية بالزيادة
- (ج) التثنية بالنيابة
- (د) التثنية بالتغليب والزيادة
- ما تغيرت حروفه في المثنى
- قضايا نون المثنى
- ... مذاهب العرب في إعراب المثنى
- مذاهب العرب في عود الضمير على المثنى
- مذاهب العرب في تثنية آحاد الجسم مضافة إلى المثنى
- مذاهب العرب في التعبير عن العضوين المزدوجين
- دلالات المثنى :
- (أ) الدلالة على التثنية لفظاً ومعنى
- (ب) دلالاته على الإفراد معنى
- (ج) دلالاته على الجمع معنى
- (د) دلالاته على المبالغة .